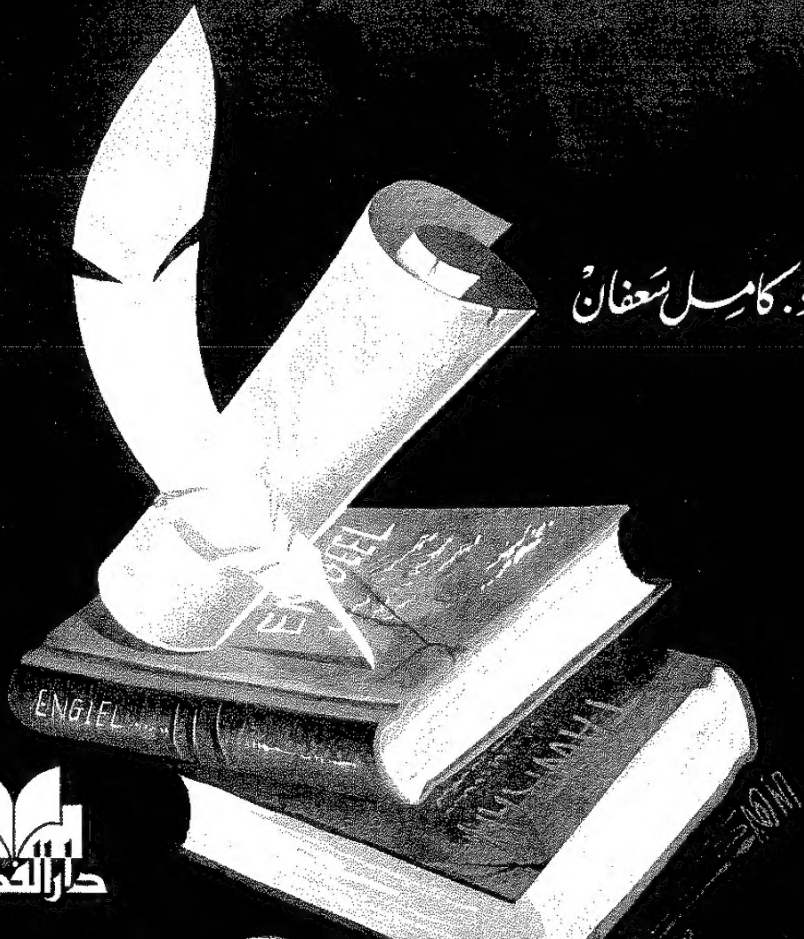


دراسة في

التوثيق والائتمان

د. كامل سحنان



دار الفخيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي -
كلية البنات - مصر الجديدة - ت ٦٦٤٤٤٤
المكتبة: ٧ شارع الجمهورية - طابرين - القاهرة - ت ٢٩٠٩٤٢١
الإمارات، دبي - ديرة - ص ب ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٤١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية

دار المعرف

٤٠ شارع فيكتور هيكو - الدار البيضاء
ص ب ٤١٥٠ - ت 309520 - 300567

١ - أنبياء

العهد القديم .. ورب إسرائيل !!

لاشك في أن كتب العهد القديم من (الكتاب المقدس)^(١) طابع القداسة ، لا لأنها قديمة ، وللقدم عبيره الخاص ، وقوة لأنها تخدنا عن تاريخ الحضارة الإنسانية في شكل من أشكالها ، تتناول علاقة السماء بالأرض في حقبة زمنية طويلة ، ولا لأنها تحاكي أكثر الرجال تأثيراً في الكيان الإنساني ، حتى يومنا هذا ، ولا لأن آلاف الملايين - من سكان هذه الأرض - يؤمنون بما جاء فيها ، كل حرف منها مأخذ التقديس ، بل هو إلى ذلك كله صورة عارياً ، عاجزاً أمام قوة خفية ، تفرض عليه قدراً ، تبسط له وتقدر وتشقيه ، تحييه وتهلكه .. ومع ذلك فهو يريد أن يكون ، أن يعلن إرادته ، أن يجعل من هذه القوة الخفية أداة .

(الكتاب المقدس) إذن - إن لم يكن كتاب دين - هو كتاب لأنه يكشف أبعاداً إنسانية عميقة الجذور ، بعيدة المرامي .. ومن أجل وجب أن يهتم به كل من واثقه القدرة ، لأنه جزء من التراث العظيم .. ومن ثم لا يكون ملك طائفة دون أخرى ، لأنه ملك كلها .. وعلى هذا نكون مطالبين بحمايته ، وتقريبه ، وحسن تقويمها ولما كان هذا الكتاب العظيم كتب في أزمان متباعدة ، امتد ألف عام تقريباً ، من حوالي ١١٠٠ ق . م حتى القرن الثاني

(١) اعتمدت هذه الدراسة على طبعة مطبعة عنتر بالقاهرة سنة ١٩٦٦ ، وهي مصدر (وقد ترجم عن اللغات الأصلية ، وهي اللغة العبرانية ، واللغة الكلدانية ، واللغة اليونانية)



دار الفصيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي.
كلية البنات - مصر الجديدة - ت فاكس ٦٦٤٤٢٢
المكتب: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٢٩٠٩٤٣١
الإمارات: دبي - ديرة - مبنى ١٥٧٦٥ ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

جميع الحقوق محفوظة للناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَّخَذْتُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ مِنْ (النِّصِّ الْمَقْدَسِ) سَبِيلًا
إِلَى إِبْرَازِ الْفِكْرَةِ وَتَدْعِيمِهَا وَتَعْمِيقِهَا .

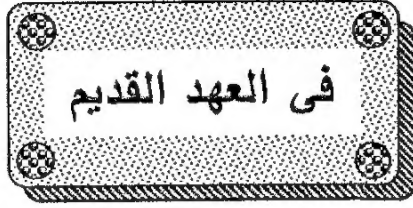
أَمَّا (مَا حَوْلَ النَّصِّ) مِنْ دِرَاسَاتٍ - بِالرَّغْمِ مِنْ
كَثْرَتِهَا - فَقَدْ كَانَتْ وَسَائِلَ تَنْوِيرٍ ، وَعَلَامَاتٍ عَلَى
الطَّرِيقِ .

كَانَتْ بَيْنَ يَدَيِ كِتَابَاتٍ أَكْثَرُ تَحَرُّرًا ، وَكِتَابَاتٍ أَكْثَرُ
انْغِلَاقًا ، وَكِتَابَاتٍ تَتَحَرَّى الْحَقِيقَةَ ، دُونَ انْفِعَالٍ ،
وَأَكْثَرُهَا أَقْلَامٌ غَيْرُ إِسْلَامِيَّةٍ .

وَمَعَ أَنِّي أَفَدْتُ مِنْ كُلِّ هَذَا ، فَبِإِنِّي لَمْ أَخْضَعْ لَهُ ،
لَأَنَّ (النص) كَانَ صَاحِبَ الْكَلِمَةِ الْآخِرَةِ وَهَذَا حَسْبِي .

وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ ،،،

أَكْتُوبِر ١٩٨٩



- ١ - أنبياء العهد القديم .. ورب إسرائيل !!
- ٢ - شعب صلب الرقبة !!
- ٣ - صهيونية !!
- ٤ - إله من ذهب !!
- ٥ - تشريعات سماوية .. ولكن !!
- ٦ - أسطورة .. بل لا معقول !!
- ٧ - قيم أدبية جديدة فى العهد القديم !!
- ٨ - كتاب مقدس .. عبارته تنفى قداسته !!

١ - أنبياء

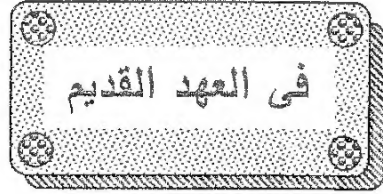
العهد القديم .. ورب إسرائيل !!

لاشك في أن كتب العهد القديم من (الكتاب المقدس)^(١) تحمل طابع القداسة ، لا لأنها قديمة ، وللقدم عيبره الخاص ، وقوة أسرته ، ولا لأنها تحدثنا عن تاريخ الحضارة الإنسانية في شكل من أشكالها ، ولا لأنها تتناول علاقة السماء بالأرض في حقبة زمنية طويلة ، ولا لأنها تحدثت عن أكثر الرجال تأثيراً في الكيان الإنساني ، حتى يومنا هذا ، ولا لأن مئات بل آلاف الملايين - من سكان هذه الأرض - يؤمنون بما جاء فيها ، ويأخذون كل حرف منها مأخذ التقديس ، بل هو إلى ذلك كله صورة الإنسان عارياً ، عاجزاً أمام قوة خفية ، تفرض عليه قدراً ، تبسط له وتقدر ، تسعده وتشقيه ، تحييه وتهلكه .. ومع ذلك فهو يريد أن يكون ، أن يعلن وجوده ، إرادته ، أن يجعل من هذه القوة الخفية أداة .

(الكتاب المقدس) إذن - إن لم يكن كتاب دين - هو كتاب حياة ، لأنه يكشف أبعاداً إنسانية عميقة الجذور ، بعيدة المرامي .. ومن أجل هذا وجب أن يهتم به كل من واثقه القدرة ، لأنه جزء من التراث الإنساني العظيم .. ومن ثم لا يكون ملك طائفة دون أخرى ، لأنه ملك الإنسانية كلها .. وعلى هذا نكون مطالبين بحمايته ، وتقريبه ، وحسن تقويمه .

ولما كان هذا الكتاب العظيم كتب في أزمان متباعدة ، امتدت نحو ألف عام تقريباً ، من حوالي ١١٠٠ ق . م حتى القرن الثاني قبل

(١) اعتمدت هذه الدراسة على طبعة مطبعة عتر بالقاهرة سنة ١٩٦٦ ، وهي مصدرة بعبارة : (وقد ترجم عن اللغات الأصلية ، وهي اللغة العبرانية ، واللغة الكلدانية ، واللغة اليونانية) .



- ١ - أنبياء العهد القديم .. ورب إسرائيل !!
- ٢ - شعب صلب الرقبة !!
- ٣ - صهيونية !!
- ٤ - إله من ذهب !!
- ٥ - تشريعات سماوية .. ولكن !!
- ٦ - أسطورة .. بل لا معقول !!
- ٧ - قيم أدبية جديدة فى العهد القديم !!
- ٨ - كتاب مقدس .. عبارته تنفى قداسته !!

الميلاد^(١)، ولم يصل إلينا فى لغته التى كُتِبَ بها ، وقد بدأ تدوينه - فيما عدا لَوْحَى موسى - بعد العودة من الأسر البابلى ، أى بعد قرون عديدة من الحروب والفتن والشتات والخضوع لمعتقدات وعادات وأساطير شعوب كثيرة تَمَزَقُوا فيها وبها ، وفى عام ١٥٤٦م أضاف مجمع « ترنت » كتباً أخرى إلى أسفار العهد القديم ، لم يقبلها البروتستانت^(٢) .. وكل ذلك يعلل تسرب عوامل التحريف والتزييف والإضافة والحذف ، بسبب الرواية الشفهية زمنياً طويلاً ، ولأسباب كهنوتية وسياسية وطائفية وبغية .. هذا إلى أن اللغة التى ترجم بها ليست سليمة كل السلامة - فقد وَجَبَ فى رأى - أن تعاد (ترجمة) هذا الكتاب ، عن أصوله العبرية والآرامية واليونانية ، بأسلوب هذا العصر ، مع مراعاة ما داخل الشريعة من نظم فاسدة ، وقِيم مُشوَّهة ، وما بُدِّلَ وأسقط من أحداث تاريخية ، وما أُضيف من أوْهام وأساطير .

إنه ليس من المعقول مثلاً أن نجد معظم رسل الله وأنبيائه فى صورة من الضعف والنذالة والقسوة والجشع والتهتك ، والوقوع فى جرائم الشرك والزنا والقتل !! .

* * * هذا نوح : (شرب من الخمر ، فسكر وتعوى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه ، وأخبر أخويه خارجاً ، فأخذ سام وياث الرءاء ووضعاه على أكتافهما ، ومشيا إلى وراء ، وسترا عورة أبيهما ، فلما استيقظ نوح من خمره ، علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته) - (تكوين / ٩) .

رسول من أولى العزم ، تلعب به الخمر ، فيتعري ، ويثور ، لأن أصغر

(١) د . فؤاد حسنين على - التوراة الهيروغليفية - دار الكتاب العربى - القاهرة - ص ١٥ و ٣١ .

(٢) القس صمبريل شرقى - مصادر الكتاب المقدس - القاهرة - سنة ١٩٧٣ - ص ٥٦ .

أولاده استحيى أن ينظر عورة أبيه ، ولم يدر ما يفعل ، فخرج وأخبر أخويه الكبارين ، حتى يحسن التصرف ، ومع هذا يصبح ملعونا ، بل يصبح (كنعان) البرىء هو الملعون إلى الأبد ، ويظل عبد العبيد لإخوته .

من أجل خدمة مآرب (صهيونية) يُصَبِّحُ أبو البشر - بعد الطوفان - مُتهكِّماً ظالماً ، ويستجيب (الله) لدعاء الرسول المتهتك الظالم ، فيقضى فى كنعان وذريته من بعده ، دون جريرة ، ودون ذنب اقترفوه !! .

أهذا هو نوح الأب الرحيم الذى دعا إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما أبى ابنه الاستجابة له ، وأدبر واستكبر ، وقال : ﴿ سَأْوَى إِلَى جِبِل يَعْمَنَى مِنَ الْمَاء ﴾^(١) .

دعا نوح ربه متضرعاً مستعطفاً : ﴿ رَبِّ، إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾^(٢) .

إن نوحا الذى ضاق بكفر قومه ، فقال : ﴿ رب ، لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً * إِنَّكَ إِنْ تَدْرِهِمْ يُضْلُوا عِبَادَكَ ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾^(٣) .

أخذته الرحمة بابه ، وطمع فى نجاته مع كفره ، فكيف به - دون سبب - يلعن حفيده ، ويدعو بحرمانه من رحمة الله ، مع يقينه ببراءته من الإثم ١٩ .

أما كان أجدر به أن يلتمس لابنه عُذْراً ، وأن ينصح له إذا شام^(٤) خطأ ، وأن يصبر عليه إذا وجد انحرفاً ، وقد صبر على قومه تسعمائة وخمسين عاماً ١٩ .

* * * وإبراهيم ، خليل الله ، وأبو الأنبياء ، العقل الكبير ، الذى اهتدى

(٢) هرد / ٤٥ .

(٤) شام الأمر : التمسه وتطلبه .

(١) هرد / ٤٣ .

(٣) نوح / ٢٦ - ٢٧ .

إلى الله بالنظر في سمائه ، والقلب المؤمن الشجاع الذى جاهد أباه وقومه ، ولم يُبال أن يحرقوه ، فلم يجبن ، ولم يَلن ، ولم يظهر غير ما يبطن .. هذا المثل الأعلى . فى التفكير السليم ، والحفاظ على المبدأ القويم ، الذى هاجر ضارباً فى الأرض ، مخلياً أباه وقومه ، عابراً مجاهل ومخاطر ، من أور الكلدانيين - شمال شرق العراق - إلى مصر ، يدفعه الجذب والمجاعة إلى بلاد بعد بلاد ، حاملاً رسالة السماء وتصحيه زوجه سارة ، فقال (لساراي امرأته : إني علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رأيك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته ، فيقتلوننى ، ويستبقونك ، قولى إنك أختى ، ليكون لى خير يسبك ، وتحيا نفسى من أجلك) .

هذا الرسول القوى القلب والعقل يتأجر بامرأته ، يتخذها درعا ، ووسيلة خير !! .

وكان أن (أخذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيرا بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتت وجمال) . ولولا أن الرب تدخل ، فضرب (فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام) - (تكوين / ١٢) - لكان ما لا يحمد فى حساب !! .

استمر (كتاب) التوراة هذه (القصة) ، فأعادوا روايتها (ذاتها) فى موقع آخر ، حين نزل إبراهيم وامرأته مغتربين فى أرض (جرار) ، فرووا على لسان إبراهيم أنه قال عن سارة إنها أخته ، مما دعا أبيمالك ملك جرار إلى أخذها عنده ، فلما اكتشف الحقيقة عثف إبراهيم على خذاعه إياه ، ثم أعطاه غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وألفاً من الفضة ، ورد إليه امرأته - (تكوين / ٢٠) .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل تكررت القصة ذاتها مع ابنه إسحاق ، حين قصد إلى أرض جرار ، ليقم فيها - (تكوين / ٢٦) .

وكأننا إزاء تقرير تلك القاعدة اللاأخلاقية الشهيرة : « الغاية تبرر الوسيلة » !! .

* * * ولوط ابن أخى إبراهيم ، ذلك الرجل الطيب ، الذى حاول أن يصلح من أمر (سدوم) الفاجرة فلم يفلح ، وتآمرت عليه زوجته ، فكان أن أمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً ونارا ، فاحترقتا ، وصارت امرأة لوط (عمود ملح) .

هذا الرجل : رسول الطهارة الروحية والجسدية (سكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر ، فسكن فى المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كمادة كل الأرض . هلم نسقى أبانا خمرأ ، ونضطجع معه ، فنجنى من أبينا نسلأ ، فسقتا أباهما خمرأ فى تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها) وتكرر الحال فى اليوم الثانى مع الصغيرة ، (فجلت ابنتا لوط من أبيهما) فولدت الكبرى (مواب) أبا الموابيين ، وولدت الصغرى (بن عمى) أبا بنى عمون إلى اليوم - (تكوين / ١٩) .

من أجل أن يكون الموابيون والعمونيون أعداء الإسرائيليين - بنى سفاح ، فليكن رسول الطهارة زانياً بابنتيه ، هذا النبى الذى خاف أن يبيت فى (صوغر) ، حتى لا يتعرض أحد بسوء لابنتيه ، حمل معه إلى المغارة خمرأ ، وشرب حتى سكر ، واستولد ابنتيه وهو لا يدري ، والبنتان تحتلان على أب (نبى) شيخ ، خوف أن ينقطع النسل ، كأن المغارة هى كل الدنيا ، وكأن المغارة ستكون موطنهم إلى الأبد ، وكأن زادهم من الماء والطعام لن ينفد ، ولو صح هذا كله ، فكيف تبرران لأبيهما هذا الحمل الذى لا يمكن إخفاؤه ، وهم سجناء هذه المغارة !!

إذا وضعنا فى الاعتبار أن من مهام رسالة لوط السماوية تطهير قومه من آفة الشذوذ الجنسي ، وقع فى وهمنا أن هذه القصة المفتراة أريد بها الاحتجاج على (الطهارة) ، وتبرير الانحراف ، !! .

اختلاف الصوت ، وجذف على الله سبحانه الذى أقر هذه المهزلة جميعاً .

كان بوسع إسحق سحب بركته من اغتصبها غدرًا ، ومنحها لصاحب الحق فيها ، أو كان منحها الاثنين معاً ، فرصيد البركة لن ينقصد ، وإلا ، فالإبقاء على بركة يعقوب ، دون عيسو ، اعتراف بمشروعية العدوان والاحتيال على حقوق الآخرين ، مع حرمان صاحب الحق دون جريئة !! .

يعلق جيمس فريزر على هذه (الفرية) بأنها تتعارض - بطريقة غير مستحبة - مع الوقار الذى اتسم به جده إبراهيم ، كما تتعارض مع الورع التأملى الذى اتسم به أبوه إسحق ، فإذا كان إبراهيم يعد مثلاً للشيخ السامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة واللطف ، فإن يعقوب كان مثلاً للتاجر السامى اللين الحذق ، الوافر الحيلة ، الحريص على الكسب ، وعلى أن يتم صفقاته بالحق ، لا بالقوة ، دون أن يتردد كثيراً فى اختيار الوسائل التى يترتب بها منافسيه ، ويتفوق عليهم (١) .

ويحاول فريزر جهده أن يبرر موقف يعقوب من أخيه عيسو فى حق البكورية ، على أساس أن العادة كانت أن يرث الابن الأصغر أباه ، لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه فى مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ، ويخرجون إلى الحياة بحثاً عن مساكن جديدة لهم (٢) . وعلى هذا أورد داود أصغر أبنائه سليمان الحكم ، وأبعد أحد أبنائه الكبار (أدونيا) الذى كان قد طالب بالعرش (٣) ، ومن قبل ورث إسحق إبراهيم من دون إسماعيل !! .

ومن ثم كان تحايل يعقوب على حرمان أخيه من حقه مشروعاً (!!) مع أن ما فعله داود كان من صميم حق داود فى اختيار الرجل

(١) الفولكلور فى العهد القديم - الهيئة المصرية العامة - سنة ١٩٧٢ ج ١ ص ٢٥٨ .

(٢) المصدر السابق - ص ٢٧٢ .

(٣) نفسه - ٢٦٢ .

ويرى بعض علماء الأساطير أن هذه القصة (تضمينة أسطورية مهاجرة من أصل مصرى ، وترد فى الميثولوجيا المصرية ، مرتبطة بالهة الموت نفتيس التى سماها بلوتارخ « أفروديت ») ، إذ تروى الأسطورة أن هذه الإلهة (كانت تتمنى أن تنجب طفلاً من أخيها الأكبر أوزوريس ، ولهذا الغرض أسكرته ، وضاجعته ، وكان ثمرة هذا اللقاء الدنس إنجابها للإله أنوبيس) (١) .

ولأن الفكر المصرى عَشَّ فى رعوس اليهود زمناً طويلاً ، واستقرى وجدانهم ، يمكن تسرب هذه الأساطير إلى أقدامهم ، مع ما تسرب من المعتقدات الفرعونية إلى ديانتهم .

** ويعقوب بن إسحق : يحكى (سفر تكوين ٢٧) أن يعقوب احتال على أبيه إسحق - وكان قد كفَّ بصره - ليحصل على البركة وحق البكورية ، من دون أخيه عيسو ، وساعدت على هذا التآمر (رقيقة) أم عيسو ويعقوب المنعم المدلل ، بينما يحب إسحق عيسو الصياد الماهر الكاسب المكافئ ، وبهذا يخدع يعقوب ، نبي الله ، أباه إسحق ، نبي الله ، وتصبح بركة يعقوب بسبب الغش والتحايل ، والرب - سبحانه - يقر هذا الأمر ، ويحقق البركة !!

وينسى كاتب القصة أن إسحق - حين يارك يعقوب فى شخص عيسو - إنما كان يارك عيسو لا يعقوب ، فالبركة إذن لاحقة بعيسو ، لأن إسحق لم يكن يعرف أن الذى يباركه غير عيسو .

وفى سبيل هذه البركة المدعاة ، جعل الكاتب من يعقوب وصولياً كاذباً ، وجعل من أمه (رقيقة) ناقصة عقل ودين ، وانتقص إسحق الذى لم يستطع أن يميز بين جلد الإنسان وجلد المعزى ، وقد داخله الشك من

(١) شوقى عبد الحكيم - أساطير وفولكلور العالم العربى - روز اليوسف - ج ١ ص ١١٩ .

المناسب للحكم ، لا للبركة وحق البكورية ، ثم إذا صح أن الابن الأصغر يرث أباه لأن الأكبر هجر أباه ، فهذا لم يصح في حالة عيسو مع أبويه وأخيه ، وإذا كان هذا الأمر مشروعاً ، ففيم الاحتيال ، وتتمص شخصية الابن الأكبر ١٢ .

✽ ✽ أما داود النبي ، ذو الأئمة ، الأبواب ، الذي آناه الله (الحكمة وفصل الخطاب) فقد أصبح - في شريعة إسرائيل - مجرمًا سفاحاً ١١ .

(قام عن سريرته ، وتمشى على سطح بيت الملك ، فرأى من على السطح امرأة تستحم ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً ، فأرسل داود ، وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه بشئبع بنت أليعام ، امرأة أوريا الحثي ١٢ فأرسل داود رسلاً ، وأخذها ، ودخلت إليه ، واضطجع معها ، وهي مطهرة من طمئتها) .

وأرسل إلى (يواب) قائد جنده يستدعي زوجها الذي كان بين الجند ، (وقال داود لأوريا : انزل إلى بيتك ، واغسل رجليك) ، على أمل أن ينام الرجل مع زوجته ، فيغطي على جريمة داود ، إذا هي حبلت ، لكن الجندي المخلص أبى أن ينام مع زوجته ، لأن (التابوت وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام ، وسيدى يواب وعبيد سيدى نازلون على وجه الصحراء ، وأنا أتى إلى بيتى لأكل وأشرب واضطجع مع امرأتى ١٢ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر) .

أعاد داود الكرة ، بعدما أسكر الرجل . لكن أوريا (خرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده) . فما كان من داود إلا أن أرسل إلى قائده أمراً مكتوباً : (اجعلوا أوريا في الحرب الشديدة ، وارجعوا من ورائه فيضرب ، ويموت) ١١ .

(ولما مضت المناحة ، أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امرأة ، وولدت له) ، وكانت أم سليمان الحكيم - (صموئيل الثاني / ١١) .

هذا داود الذى قال عنه الرب : (أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً إن تعوج أدهته بقضيب الناس ، وبضريات بنى آدم ، ولكن رحمته لا تنزع منه ، كما نزعته من شاءول الذى أزلته من أمامك ، ويأمن بيتك ومملكته إلى الأبد أمامك ، كرمسيك يكون ثابتاً إلى الأبد) .. (صموئيل الثاني / ٧) .

لكن ابن الرب هذا جعله كتاب (الكتاب المقدس) عابثاً متجبراً لامبالياً ، يستحم في بحر من الدماء . حين انتصر على (ربة بنى عمون) استولى على كل غنائمها ، (وأخرج الشعب الذى فيها ، ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفئوس حديد ، وأمرهم فى أثون الآجر ، وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون) - (صموئيل الثاني / ١٢) .

ومع هذا ، فكل أخطاء داود (وغيره) مغفورة فى (التلمود) ، لأن الله أعطى الإنسان طبيعة سيئة ، ومن ثم لا خطيئة ، مادام (الله مصدر الشر ، كما أنه مصدر الخير) ١١

✽ ✽ وهذا سليمان ، الذى آناه الله العلم ، وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وفضله الله على كثير من عباده المؤمنين ، فقال : ﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ ^(١) .

سليمان بن داود ، صار بأمر كتاب (الكتاب المقدس) مخالفاً لأمر ربه ، فتزوج من غير بنى إسرائيل ، (من الأمم الذين قال الرب عنهم لبنى إسرائيل ، لا تدخلون إليهم ، وهم لا يدخلون إليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم) .

صار زير نساء ، تزوج مصرية وموابيات وعمونيات وأدوميات

(١) النمل / ١٩ وانظر الآيات (١٥ - ١٩) .

وصيدونيات وحيثيات ، (وكانت له سبعمائة من النساء السيدات ، وثلاثمائة من السراى ، وأمالت نساؤه قلبه) (١) .

صار مشركاً بربه آلهة نساؤه ، (ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه ، كقلب داود أبيه ، فذهب سليمان وراء عشتروت إلهة الصيدونيين ، وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب .. بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين ، على الجبل الذى تجاه أورشليم ، ولولئك رجس بنى عمون ، وهكذا فعل لجميع نساؤه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن) - (الملوك الأول / ١١) .

هذا سليمان الذى بدأ حياته فى الحكم بالجريمة ، فقتل (يواب بن صروية) قائد جيوش أبيه ، وقتل أخاه (أدونيا) ، وطرده (أيبا ثار) الكاهن فى عهد أبيه ، ليخلص له الملك .. وفى هذا يقول لأمه ، وقد سألتها فى أزواج أخيه : (لماذا أنت تسألين أيشح الشمونية لأدونيا ؟ فاسألى له الملك ، لأنه أخى الأكبر منى ، له ولأيبا ثار الكاهن ، وليسواب بن صروية) - (الملوك الأول / ٢) .

وحين تزوج المصرية ، كان المهر أن (صعد فرعون ملك مصر ، وأخذ جازر وأحرقها بالنار ، وقتل الكنعانيين الساكنين فى المدينة ، وأعطاهما مهراً لابنته امرأة سليمان) - (الملوك الأول / ٩) .

ومضى (الحكيم) فى حكم ظالم ، يستبد بقرومه ، ويستعبد لهم ، ويفرض الضرائب الباهظة ، فلما حكم رجسام من بعده قالوا له : (خفف الآن من عبودية أليك القاسية ، ومن نيره الثقيل الذى جعله علينا ، فنخفدك) - (الملوك الأول / ١٢) .

(١) يقول ول ديورانت : (لعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بمصر وفينيقية ، أو لعل الباعث الذى حمل رئيس الثانى على هذا العمل يعينه هو الباعث لسليمان ، وهو رغبته فى أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له) - قصة الحضارة - ج ٢ ص ٣٣٣ وما أظن رسالة سليمان وفوحات رسميه تسمح بمئات الزيجات !!

ومن العجيب أن كاتب هذا (سفر الملوك الأول) نسى أنه قال : (كانت كل الأرض ملتمة وجه سليمان ، لتسمع حكمته التى جعلها الله فى قلبه) .. فلما زارته ملكة سبأ قالت : (لم أصدق الأخبار ، حتى جئت وأبصرت عينائى ، فهو ذا النصف لم أخبر به ، زدت حكمة وصلاً على الخبر الذى سمعته) (الملوك الأول / ١٠) .

كيف إذن يكون هذا التناقض ، إلا إذا كان من وراء تجريم (أولى العزم من الرسل) هدف ما ، وبخاصة أن هذا التجريم يلح على الزنا الذى حدّه الرجم ، بل تجاوز بنو يعقوب فقتلوا (بنى حمور) جميعاً ، (ونهبوا المدينة ، لأنهم نجسوا أختهم ، غنمهم وبقرةهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه ، وسبوا ونهبوا كل ثروتهم ، وكل أطفالهم ونساءهم ، وكل ما فى البيوت) ، مع أن الرجل (شكيم) أراد أن يصلح خطاه ، ويتزوج (دينة) ، ويعث فى هذا أباه حمور يقول : (ابنى قد تعلقت نفسه بابتنتكم ، أعطوه إياها زوجة ، وصاهرونا ، تعطونا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم ، اسكنوا وانجروا فيها ، وتملكوا بها) - (تكوين / ٣٤) .

كيف تفقد حساسية العرض هذه قيمتها فى حياة الأنبياء والرسل ؟
أليس لأمر ما قصد الكاتب هذا العبث ؟
أليس لأمر ما تواطأ كتاب (الكتاب المقدس) على تدليس المقدسات ؟
أليكون هذا محاولة للتخفيف من أعباء الجرائم اليهودية على نفسية الأجيال الجديدة ؟

لعله التهوين من أمر الجريمة ، تبريراً لارتكابها فى حق الشعوب الأخرى ، على أساس أنهم أقل درجات من (شعب الله المختار) .
بل لعله صورة التمزق النفسى الذى أصاب اليهود بعد الشتات ،

والذى عبرت عنه كل أسفار العهد القديم ، ابتداء من (أشعيا) ، التى لاتكاد تتناول إلا تنبؤات عن غضب الله ووعيده ، وعن رجاء الخلاص مما حاق بهم ، وكأنهم يقولون للرب ، لقد غفرت لأنبيائك جرائمهم ، فلماذا لا تغفر لنا ، وما نحن إلا أتباع هؤلاء الأنبياء ، ولم تعطنا قدراتهم ١٩ (١) . لكن إذا كان هذا شأن اليهود ، فلم أبقى المسيحيون على هذه الترهات ، وجعل منهم من يدافع عنها ١٩ (٢) .

إن الأمر لم يقف عند الأنبياء (المصطفين الأخيار) الذين اكتملت فيهم كل صفات التبليغ عن الله ، والقيادة إلى سواء السبيل ، ﴿ وكلا جعلنا صالحين ﴾ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين ﴿ (٣) .

إننا نجد هذا (الكتاب المقدس) يعرض لله فى صورة لا تتناسب مع : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ﴾ ، ... ﴿ الخالق ، البارئ ، المصور ، له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ (٤) .

يعرض لله فى صورة مُجَسِّمة ، أقرب إلى الآلهة التى كانت تُعبد فى الشعوب التى نزلوا بها ، أو عبروا .

ومما يؤسف له أن حياتهم الطويلة فى أرض مصر تطبعهم بطابع

(١) ، (٢) يعزل القس مشرقى هذه الجرائم بأنها تؤكد (أن الكمال لله وحده ، وأن الجميع زاغوا وفسدوا ، لأننا نعرف أنهم جميعاً بشر متنازلون من آدم الساقط ، ووارثون منه بالتنازل الطبيعة الفاسدة التى تميل إلى الشر) - مصادر الكتاب المقدس - ص ١١٩ .

(٣) الأنبياء / ٧٢ - ٧٣ .

(٤) الحشر / ٢٣ - ٢٤ .

الوحدانية التى شاعت فى عهد (إخناتون) - الأسرة الثامنة عشرة ١٣٧٥ - ١٣٥٨ ق م . بل كانت تنتشر بينهم الأفكار البدائية ، كالخوف من العفاريت ، والاعتقاد فى الأرواح الشريرة ، التى تهدد حياة البشر ، وكانوا يعبدون الحجارة والأغنام والأشجار ، واتخذوا فى بيوتهم أصناما صغيرة يعبدونها ، ويتنقلون بها من مكان إلى آخر ، على طريقة بدو الجزيرة العربية (١) .. حتى جاء موسى رسولاً من الله الواحد الأحد بشريعة نقية طاهرة ، لكن روح التمرد المغروسة فى نفوسهم أبت عليهم الاستجابة والإذعان ، وبخاصة أن الحكم المصرى - بعد إخناتون - أحاط باليهود ، وفرض عليهم التزامات ، حتى اضطروا إلى الخروج .. لهذا ما لبثوا فى خروجهم أن صنعوا « عجلا جسدا له خوار » وعبدوه فى غيبة موسى ، كأنما يعلنون إرادتهم المستقلة بهذا الضلال ، أو كانوا يعلنون حنينهم إلى أرض مصر ، بل إن القرآن الكريم يسجل على هؤلاء القوم - فى حضور موسى - ميلهم إلى الخروج على الإله الواحد المنزه عن المثلية والتجسيم ، بقول الله تعالى : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ، فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى ، اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون ﴾ * إن هؤلاء متبر ما هم فيه ، وباطل ما كانوا يعملون ﴾ * قال غير الله أبغيكم إلها ، وهو فضلكم على العالمين ﴿ (٢) .

ولا نكاد نجد تعبيراً فى كتب العهد القديم عن هذه الوحدانية المصرية إلا فى آخر هذه الكتب ، بعد رحلة الخروج والتهيه وحروب يشوع وحكم القضاة والملوك والأمم الأول والثانى ، والاختلاط بشعوب وحضارات ، وتدوين التوراة والتلمود .. إذ يقول سفر ملاخى : (ولكم أيها المتقون اسمى - تشرق شمس البر والشفاء فى أجنتها) - (ملاخى ٤)

(١) د . أحمد شلى - اليهودية - النهضة المصرية - سنة ١٩٧٤ - ص ١٧٧ عن

Reinach .

(٢) الأعراف / ١٣٨ - ١٤٠ .

إشارة صريحة إلى إله الشمس المصرى الذى كان يُرمز له بقرص مجنح .

أما الله (الذى لا تدركه الأبصار) ، الإله (اللطيف) ، الذى هو (نور السموات والأرض) ، فلا تعرض له كتبهم إلا فى صورة كائن محدود بحدود مرئية .

(فى وسط هذا الشعب الذى أنت يارب قد ظهرت لهم عيناً لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً وعمود نار ليلاً) - (عدد / ١٤) .

ولم يقتصر الأمر على أن يظهر الرب (مغلفاً) بالسحاب أو النار ، بل هو يستعلن جسداً ، لامرئية فيه ، ويلتقى بيعقوب فى وادى ييسوق ، ويصارع ، (حتى طلع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حتى فخذ يعقوب فى مصارعة معه ، وقال : أطلقنى ، لأنه قد طلع الفجر ، فقال : لا أطلقك إن لم تباركنى ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس ، وقدرت ... فدعا يعقوب اسم المكان فيثييل ، قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسى) - (تكوين / ٣٢) .

ويقول هذا (الرب) المصارع العاجز الجاهل لموسى : (إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له ، فى الحلم أكلمه ، وأما عبدى موسى ، فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى ، فما لقم ، وعياناً أتكلم معه ، لا بالألغاز) - (عدد / ١٢) . (ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه ، كما يكلم الرجل صاحبه) - (خروج / ٣٣) .

ثم (أعطى موسى - بعد فراغه من الكلام معه فى جبل سينا - لَوْحَى الشهادة ، لوحى حجر ، مكتوبين بإصبع الله) (خروج / ٣١) (ثم صعد موسى وهرون وناداب وأبيهو ، ومبعون من شيوخ إسرائيل ، وزاروا إله إسرائيل ، وتحت رجله شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف ، وكذات

السما فى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل ، فرأوا الله ، وأكلوا وشربوا) - (خروج / ٢٤) .

وينسى الله أنه لا يستعلن إلا فى (الحلم) للأنبياء ، كما ينسى وعده موسى ألا يكلم سواه (فما لقم) ، ولعله يتجاوز عن وعده تسامحاً ومعاملة لضيوفه ، أو يرا بانبياؤه ، إذ (جاء الرب ، ودعا كالمرات الأولى : صموئيل ، صموئيل ، فقال صموئيل : تكلم ، لأن عبدك سامع) - (صموئيل الأول / ٣) .

ولم يكن داود بأقل شأنًا من صموئيل ، فقد جاء على لسان سليمان : (مبارك الرب إله إسرائيل ، الذى تكلم بضمه إلى داود أبى ، وأكمل بيده قائلاً : ...) - (الملوك الأول / ٨) .

وإذا كان سليمان قد قرّر هذا لأبيه ، وقد (ورث سليمان داود) . فلا يبعد أن يتراءى الرب لسليمان ، وأن تتكرر الرؤية ، (كما تراءى له فى جبعون ، وقال له الرب : قد سمعت صلاتك وتضرعت الذى تضرعت به أمامى) - (الملوك الأول / ٩) .

وأيوب الرجل الصابر ، (نعم العبد ، إنه أواب) ، يستولد الله ملائكته ، (كان ذات يوم أنه جاء بنوا الله ليمثلوا أمام الرب ، وجاء الشيطان أيضاً فى وسطهم) - (أيوب / ١) .

ومع أن مثل هذا التعبير يحتمل التأويل ، فإن الجو العام لمثل هذه العبارات الجافية المجذبة على الله يرجح ظاهر اللفظ ، فضلاً على أن هذا التعبير يجرى على لسان أيوب كثيراً ، ويزيد كاتب المزامير فيسكن الله فى الأرض ، ليكون مع شعبة المختار : (رثموا للرب الساكن فى صهيون) - (مزمور / ٩) - (إن الله فى الجبل البار) - (مزمور / ١٤) - (القدوس الجالس بين تسيحات إسرائيل) - (مزمور / ٢٢) .

ويتجاوز ، فيصف الله بالكذب ، (مرة حلفت بقدسى أنى لا أكذب

لداود) - (مزمو ر / ٨٩) - فكونه يحلف ألا يكذب لداود يعنى أنه يكذب لغيره ، أو أن داود قد أخذ عليه كذباً ، فحلف ألا يكذب بعد ذلك !! .

ومن العجيب أن يحدث هذا فى (ديانة سماوية) ، فى الوقت الذى كانت الديانة فى مصر قد وصفت الله على لسان أختاتون بكل ما هو من صفاته جلّ شأنه :

خلقت الأرض ، وصورّت الناس ، وأوجدت الحيوان ، كبيره وصغيره وأحدثت كل ما يخلق بجناحيه فى السماء .

ما أكثر مخلوقاتك ، وما أكثر ما خفى علينا منها

إنك الإله الذى دان الجميع بحبك

أنت الواحد الأحد ، لا شريك لك (١) .

كما أن (اليريا نيشادة) الهندية وصفت (براهما) بأنه :

الله الواحد الكلى فى كل الأشياء .

كلى الشمول ، النفس الباطنة لكل الأشياء .

الشاهد ، الحكيم ، الأوجد ، العارى من الصفات .

أغرك الوحيد للسكانات الكثيرة .

الذى يجعل الحبة الواحدة متكاثرة .

الحكماء من يرونه قائما فى ذات المسرة .

أولئك لا غيـرهم ذوو سعادة أبدية (٢) .

• بل إن الهندوسية تصف الإله بأنه :

(هو الأعلى من كل شىء ، وهو الأمن ، إله الآلهة ، ذو القوة العليا ، الذى أمام قدرته الغالبة ترتعد الأرض والسموات العالية ، إنما هو « أندرا » إله الكون ، الذى قهر الشياطين فى السحاب ، وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار ، واقتحم كهوف الكآبة والأكدار ، وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام ، وأضاء النار القديمة من البرق فى الغمام ، ذلك هو « أندرا » البطل الجسور ، الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله ، والجبال المرتعدة تخزّله ، وتسجد لجلاله ، هو الذى يرسل صواعق السماء على أعدائه ، فلتهدّ له السكائب المقدسة (١) .

*** ولا يكتفى كتاب (العهد القديم) بتجسيد ذات الله ، بل يصفونه بصفات إنسانية دنيئة ، فالرب يعد ويخلف ، ولا يملك نفسه عند الغضب ، فيأخذ الابن بجريرة الأب ، مع أنه القائل : (لا تقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل) - (تثنية / ٢٤) .

لما حمى غضبه على (أخاب) ملك السامرة ، لأن زوجته (إيزابيل) احتالت فتخلصت من (نابوت البزريعى) ، ليترك أخاب حق Nabot ، قال الرب : (هأنذا أطلب عليك شرا ، وأبيد نسلك ، وأقطع لأخاب كل باطل بحائط ، ومحجوز ، ومطلق فى إسرائيل .. ولما سمع أخاب هذا الكلام شق ثيابه ، وجعل مسحاً على جسده ، وصام ، واضطجع بالمسح ، ومشى بسكوت) ، فتحول انتقام الرب (من أجل أنه اتضع أمامى ، لا أجلب الشر فى أيامه ، بل فى أيام ابنه ، أجلب الشر على بيته) !! .

(١) محمد المزب موسى - موسى مصرية - للكتبة الثقافية - عند ٢٢٧ - ص ٣٨ / ٣٩ .

(٢) د . محمد جابر الحسينى - فى العقائد والأديان - الهيئة المصرية العامة - سنة ١٩٧٠ - ص ١٢٠ .

(١) د . محمد جابر الحسينى - فى العقائد والأديان - الهيئة المصرية العامة - سنة ١٩٧٠ - ص ١٢٠ .

وأما إيزابيل المتآمرة على (نابوت) ، فقد تجاهلها الرب تماماً -
(الملوك الأول / ٢١) .

ونفاجاً بأن السرب احتال على (أنخاب) ، وهو يستعد لحرب
(راموت جلعاد) ، وألقى في أفواه جميع أنبيائه الأربعمئة روح كذب
(تغويه وتقتدر) ، وتزيّن له النصر ، فدخل المعركة ، ويقتل ، (فلحست
الكلاب دمه) ، كما سبق أن توعدّه !! - (تثنية / ٧) .

وتتمثل قسوة الرب في مواقف كثيرة من كتب العهد القديم ، لكنها
قسوة الإنسان الفظّ ، الغليظ القلب ، الذي لا قيم له ولا مبادئ .

أمر موسى - في طريقه إلى أرض كنعان - (متى أتى بك الرب إلهك
إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها ، وطرد شعوباً كثيرة من أمامك
.. لا تقطع لهم عهداً ، ولا تشفق عليهم ، ولا تصاهرهم) - (تثنية / ٧)
- أى أن الرب لا يكتفى بأن يسلب الإسرائيليين أرض الآخرين وأموالهم ،
بل يحال للقضاء عليهم ، فلا عهد ولا مصاهرة ، (أما مدن هؤلاء الشعوب
التي يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما) - (تثنية
/ ٢٠) .

ولأن الرب هو الذى يطرد الشعوب ، ويعطى المدن ، فكل (الفضة
والذهب وآنية النحاس ، والحديد ، تكون قدساً للرب ، وتدخل في خزنة
الرب) - (يشوع / ٦) .

وطبعاً سينتفع بها الكهنة أبناء (لاوى) ، خلفاء الرب في إسرائيل .

فإذا انتهى (عَخَان بن رازح) شيئاً من غنيمة (أريحا) يؤخذ مع ما
سرق وبنيه وبناته وبقرة وحميره وغنمه وخيمته ، وكل ماله ، ويحرق ،
ويرمى بالحجارة ، حتى يدفن الجميع تحتها - (يشوع / ٨) - وبهذا لا

يطمع أى جندي فيما أفاء الله على الرؤساء القادة !! .

والذى يثير السخط ضد هذا (الرب الإسرائيلى) أنه لا يكتفى بما
ينزل بالشعوب الأخرى من هزيمة وقتل واغتنام ، فقد أمر - بعد أن سقطت
(عاي) ، وقتل يشوع اثني عشر ألفاً ، هم جميع أهلها ، ونهب أموالها -
أمر بإحراقها ، (وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم) ، أما ملك (عاي)
فقد (علّقه على الخشبة إلى وقت المساء) - (يشوع / ٨) .

بهذا أمكن الرب لإسرائيل من جميع ملوك الأموريين الساكنين في
الجبيل ، (فأزعجهم الرب أمام إسرائيل ، وضربهم ضربة عظيمة في
جبعون ... وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل - وهم في منحدر بيت
حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقه ، فماتوا) -
(يشوع / ١٠) .

ومن العجيب أن شهوة القتل والتدمير لا تصيب هذا (الرب
الإسرائيلى) في حالة الحرب فقط ، بل إذا كان السلام انتابته هذه
الشهوة ، ففتش عن مبرر للقتل ، فتذكر قوماً مَرَّ بهم شعب إسرائيل إلى
كنعان ، وكانوا قد أنزلوا إصابة جسيمة بالعابرين الغزاة ، وهذا واجبهم ،
فقال رب الجنود : (إنى افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل ، حين وقف له
في الطريق ، عند صُعوده من مصر ، فالآن اذهب واضرب عماليق ، وحرّموا
كل ماله ، ولا تعف عنهم ، بل اقتل رجالاً وامرأة ، وطفلاً ورضيعاً ، بقراً
وغنماً ، جملاً وحماراً) - (صموئيل الأول / ١٥) .

واستقر أمر إسرائيل في عهد داود ، و (نفشت غنم القوم) ، ونعموا
بما فتح الرب عليهم من أرض زراعية خصبة ، لكن مالبيث أن (حمى
غضب الرب على إسرائيل ، فأهاج عليهم داود ، قائلاً : امض واحص
إسرائيل ويهوذا) ، فلما تم الإحصاء (ضرب داود قلبه ، وقال للرب ، قد

أخطأت جداً فيما فعلت ، وآلآن يارب ، أزل إنم عبدك ، لأنى انحمقت جدا) .

ولما كان فعل داود بأمر الرب ، فكأن الحمق للرب .. ومع هذا يريد أن ينتقم من إسرائيل ، وليس سبب يدعو للغضب أو الانتقام ، (فجعل الرب وكاً فى إسرائيل ، من الصباح إلى الميعاد ، فمات من الشعب من دان إلى يثر سيع سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب عن الشر ، وقال للملاك المهلك : الشعب كفى) .

واحتج داود على هذا الانتقام الذى لا مبرر له ، فقال : (هأنأ قد أخطأت ، وأنا أذنبت ، وأما هؤلاء الخراف فماذا فعلوا ؟ فلتكن يدك على وعلى بيت أبى) .

ونتبين أن الرب فى حاجة إلى بناء مذبح ، (وبنى داود مذبحاً للرب ، وأصعد محرقات ، وذبائح سلامة ، واستجاب الرب من أجل الأرض ، فكفّت الضربة عن إسرائيل) - (صموئيل الثانى / ٢٤) .

هذا هو الرب القاتل : (إنما كل إنسان يقتل بخطيته) ، فإذا حمى غضبه انبهمت معالم الشريعة أمامه ، ولم يعد يميز بين شعبه المختار وشعوب الأرجاس الأخرى .

ونتساءل : كيف ، ولماذا جرت هذه الأساطير فى أقلام كتاب الأسفار المقدمة ؟ هل هو لون من التمرد الذى انطبع به شعب (صلب الرقبة) ؟ هل هو لون من التبرير لكثرة ما اقترفوا من أثام وجرائم ؟ أم أن اليهود قد اشتقوها من ذكرياتهم عن موسى الذى اشتهر بحدة الطبع وشدة الغضب ، والذى كان يبدو أمامهم كإله^(١) ؟ مع أنهم لم يشهدوا المذابح وسيل الدماء

(١) موسى مصرى - ص ٥٣ / ٥٦ .

إلا على يد يشوع ومن بعده !! أم أنها صفات الإله (يهوه) إله البراكين الذى كان يسكن جبل حوريب ، إذ كان شيطاناً مهلكاً محباً للدماء ، يجوب الليل ، ويتجنب ضوء النهار ، وما كان يظهر لأنبياء إسرائيل إلا مصاحباً للنار ، كما فعل مع موسى ، إذ (ظهر ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة ، وإذا العليقة تتوقد بالنار ، والعليقة لم تكن تحترق) ؟ أم أن هذا الإله الذى لا يتصل باللغة العبرية اتصالاً ما^(١) ، قد دخل إلى وجدانهم من خلال التيه أربعين عاماً ، فى صحراء عارية ، تسفعها الريح ، ويسوطها البرق ، وتلهبها حمارة القيظ ، وتسليخها صبارة الزمهرير ، وتتناوح على أكتافها الأشباح والأرواح ، وتتراقص فى أوديتها الغيلان والسعالى ، ومن وراء ذلك كله مطاردة فرعون الرهيبة التى زرعت فى نفوسهم الرعب والهلع واليأس ؟ .

مع هذا كله يمكن القول إن هذه الصورة مستمدة من الأساطير الأوجاريتية (الكنعانية) التى تتحدث عن الإلهة (عناة) العنيفة التى :

من تحتها طارت رعوس كالعقبان .

ومن فوقها طارت أيد كالجراد .

تنزل حتى الركب فى دماء الأبطال .

عالياً حتى العنق فى دماء الكتائب^(٢) .

وقد يرجع التأثير الكنعانى كون الإله (تموز) إله الخصب ، ويسمى (آذون) ، تحول فى (التوراة) إلى (أدوناي) ، بدلاً من (يهوه)^(٣) .. بل إن يهوه اكتسب صفة الإخصاب ، وأصبح مانح الغيث ، ومنبت

(١) التوراة الهيروغليفية - ص ٦ .

(٢) أساطير العالم القديم - ترجمة د . أحمد يوسف - الهيئة المصرية العامة - سنة ١٩٦٤ - ص ١٧٣ .

(٣) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - طه باقر - بغداد - سنة ١٩٥٦ - ج ٢ ص ٢٦٣ .

الحب ، وواهب الحياة ، لذلك كان الإسرائيلي إذا ما أراد أن يقسم به أمسك بعضو التناسل ، كما أن متعة الجماع صارت شيئاً مقدساً^(١) .

وقد نرى هذا الرب الذى يغلبه العنف كثيراً ، تغلبه عاطفة الأبوة الحانية ، فيغضب ولا ينتقم ، وينتقم فلا يقسو ، ويقسو فلا يتجاوز حد التأديب ، تماماً مثل الإلهة عنات :

تغسل يدها في دماء الجنود .

وأصابها في دماء الكتائب .

غير أن بركات السلام تعقب ذلك .

فتستبط ماء وتغسل :

ندى من السماء .

ودها من الأرض .

وهظرا من راكب السحب^(٢) .

خالف سليمان أمر الله ، فتزوج من غير بنى إسرائيل ، وأشرك بربه آلهة نسائه ، (وعمل الشر فى عيني الرب) ، فغضب الرب وهدد : (إني أمزق المملكة عنك تمزيقا ، وأعطيها لعبدك) ، ثم تراجع : (إلا أنى لا أفعل ذلك فى أيامك ، من أجل داود أبيك ، بل من يد ابنك أمزقها) ، ثم تراجع : (على أنى لا أمزق منك المملكة كلها ، بل أعطي سبطا واحدا لأبيك ، لأجل داود عبدي ، ولأجل أورشليم التى اخترتها) !! (الملوك الأول / ١١) .

(١) د. فؤاد حسنين على - اليهودية واليهودية المسيحية - معهد البحوث والدراسات العربية -

سنة ١٩٦٨ - ص ١٤ .

(٢) أساطير العالم القديم - ص ١٧٤ / ١٧٥ .

بل إن الرب أحياناً يحمي غضبه على إسرائيل ، حين (يفسدون أكثر من آباؤهم بالذهب وراء آلهة أخرى ، ليعبدوها ويسجدوا لها) ، فإذا هو لا يتجاوز القول : (فأنا أيضاً لا أعود أطرّد إنساناً من أمامهم من الأمم الذين تركهم يشوع عند موته ، لكن أستحن بهم إسرائيل) - (القضاة ١ /) .

فقط يتخلى عنهم ، ويتركهم يواجهون مصائرهم بقدراتهم ، مع أنهم - أنبياء وغير أنبياء - أشركوا به و ^{١١} إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ^{١١} .

ولم يوصف رب إسرائيل فى (الكتاب المقدس) بهذه الأوصاف الانفعالية الشرسة ، أو المتهاونة فقط ، بل هو على غير علم بما يجرى فى عالمه ، ومن ثم هو فى حاجة إلى تحرّ وحسن إدراك ، حتى يهتدى إلى الصواب .

أرسل (رجل الله) من يهوذا ، متوعداً (يريعام) الملك ، لأنه أشرك به (عجلتي ذهب) ، وبنى المرتفعات ، وصير كهنة من أطراف الشعب ، لم يكونوا من بنى لاوى .

والتقى (رجل الله) بشيخ ساكن فى (بيت أيل) ، فقال الشيخ : (سر معي إلى البيت ، وكل خبزاً) ، فرفض (رجل الله) ، لأنه (قيل لى بكلام الرب لا تأكل خبزاً ، ولا تشرب هناك ماء ، ولا ترجع سائراً فى الطريق الذى ذهبت فيه) .

فكذب عليه الشيخ ، وقال له : (أنا أيضاً نبي مثلك ، وقد كلمنى ملاك بكلام الرب ، قائلاً : ارجع به معك إلى بيتك ، فياكل خبزاً ، ويشرب ماء) .

فرجع رجل الله ، (وأكل خبزاً فى بيته ، وشرب ماء) .

فحكم عليه الرب بأن (لا تدخل جثتك قبر آبائك) .

وكان أن (صادفه أسد فى الطريق ، وقتله ، وكانت جثته مطروحة فى الطريق ، والحمار واقف بجانبها ، والأسد واقف بجانب الجثة) - (الملوك الأول / ١٣) .

ما ذنب هذا الرجل ؟ كيف يدرى أن (الشيخ) ليس نبي الله ؟ ما حاجة الشيخ إلى أن يكذب ويدعى ؟ ما الضرر فى أن يأكل ويشرب ، وليس للأكل والشرب علاقة بالمهمة التى وُكِّلَ إليه ؟ إذا كان الرب قد حذّر ، أما يحتمل أن يكون التحذير مرتبطاً بالملك وجنده وحاشيته ، حتى لا يكون تأثير على رجل الله ؟ ثم مادور رجل الله إلا أن يهدد ويتوعد ، حتى يرعوى (ربحهم) ، ويرجع إلى عبادة الله ؟ وأخيراً ما الحكمة فى وقفة الأسد والحمار بجوار الجثة التى احتضنت سرها ؟ .

أسئلة كثيرة مجرة ، لأنها لا جواب لها ، وهى لا تحتاج إلى جواب . فليس هناك إله تذهب به الظنون مذاهب كهذا الإله الذى صنعه هؤلاء الكتّاب لهدف لا ندره ، وإن كان مثل هذا الإله يساعد كثيراً على خلق جماعة متميزة بكل ما ارتكبت وترتكب فى حق الإنسانية كلها .

وإذا كنا فى (أشعيا) نجد ملامح الوحدانية الحقّة :

(أنت هو الإله وحدك لكل بمالك الأرض ، أنت صنعت السموات والأرض) - (أشعيا / ١٧) .

(هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها ، باسط الأرض ونتائجها ، معطى الشعب عليها نسمة ، والساكين فيها روحاً) - (أشعيا / ٤٢) .

(أنا الأول وأنا الآخر ، ولا إله غيرى) - (أشعيا / ٤٤) .

(مصدر النور ، وخالق الظلمة ، صانع السلام) - (أشعيا / ٤٥) .

(يدى أسست الأرض ، ويميني نشرت السموات ، أنا أدعوهم

فيفتن جميعاً) - (أشعيا / ٤٨) .

فهذا دليل على أن ما جاء به موسى لم يكن بمنجاة من أيدي العابثين ، وأن كهنة البيت كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ، ويكفرون ببعض ، أو كما يقول القرآن لكريم : ﴿ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾^(١)

وبهذا كان الضلال ، وكان الإضلال !!

يقول توينبى المؤرخ البريطانى الشهير :

كان (يهود) إله قبيلة بدوية ، وتطورت هذه الديانة حتى بلغت مرحلة متقدمة على يد الأنبياء فى القرن الثامن ق . م فلما نقل « نبوخذ نصر » جماعة من أشراك اليهود وكهانهم وصناعهم وعمالهم الماهرين ، لايزيد عددهم على ٤٦٠٠ ، وأسكنهم فى بابل - بلغت الديانة اليهودية نضجها ، وصفت عقيدة التوحيد فيها ، وخاصة فى آثار عزرا وأشعيا الثانى ، مما استمدته الأسرى اليهود من اجتماع السابلى من عقائد وأفكار ، وتأثر اليهود بالديانة الزرادشتية ، واستمدوا منها بعضاً من عقائدهم فى الجن والشياطين ، وربما أخذوا منهم بعضاً من عقائدهم المهمة ، كخلود الروح ويوم القيامة ونفاذ أمر الله بواسطة الروح المقدس ، وكان من الممكن أن يتطور الدين اليهودى ، بعد بلوغه مرحلة التوحيد المطلق فى بابل ، فيصبح ديناً عالمياً ، ذا رسالة إنسانية ، لولا إصرار اليهود على إبقاء ديناً قومياً ، خاصاً بالشعب اليهودى ، محدود الآفاق ، واستخدموه أداة للإبقاء على الوعى القومى حياً فى نفوس الأقليات اليهودية المشتتة فى أقطار الأرض ، مما أدى إلى عزل هذه الأقليات عن الشعوب التى تعيش فى وسطها^(٢) .

(١) البقرة / ٧٩

(٢) مجلة آفاق عربية - آذار ١٩٧٦ - نقلاً عن توينبى : دراسة التاريخ مج ١٢

٢ - شعب صلب الرقبة !!

(اعرف نفسك) .. تجربة حكيم داخل ذاته ، هدّت إلى أن معرفة الذات سبيل إلى معرفة العالم من حولنا ، لأن هذا العالم ليس إلا صورة ما يعتمل في نفوسنا ، ومن ثم نحن نتعرف إلى الكون من حولنا لنعرف ما يدور في أعماقنا ، لكن المعرفة شيء ، والاعتراف بما نعرف شيء آخر ، لأنني - حين أعترف - لا أقدم إلا الصورة التي أرغبتها ، حتى مبادلي التي أعريتها ، أهدف - من وراء تعريتها ، أو من وراء الطريقة التي اخترت لتعريتها - إلى الحصول على شيء من نفوس الآخرين ، أو من خارج نفوسهم .

ومع هذا ، فالاعتراف سيّد الأدلة ، ما دام في صورة إدانة ، لأن حرص المرء على نفسه أقوى - دون شك - من حرص الآخرين ، فإذا كشف عن عيوب وأخطاء فإننا لا نملك إلا تصديقه ، ما لم تقم شواهد وبيّنات أو مؤثرات ترجح تكذيبه . فإذا كانت الشخصية معنوية ، أو مكونة من مجموع وحدات جزئية ، فإن صدور هذا الاعتراف من محاور مختلفة ، أو كون الاعتراف يتعدد ويتنوع ولا يختلف - إنما هو برهان صادق - إلى حد كبير - على حقيقة ما .

ونحن بصدد ما تحدثت به أقلام العهد القديم نجد صورة واضحة عن هذا (الشعب المختار) الذي أجمعت (الأسفار) على وصفه بأنه (شعب صلب الرقبة) ، مما يوحى بالغرور والعناد والعتوّ والقسوة والأنانية والغدر وعدم القدرة على التطور .

ولأن هذا الشعب ينتسب إلى يعقوب عليه السلام ، فلننظر صورة يعقوب هذا الذي وصفه القرآن الكريم بأنه هبة من الله صالحة : ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ، وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ (١) .

يحكى سفر (تكوين) أن (رفقة بنت بتوئيل الأرامي) تزاحم في بطنها ولدان لإسحق ، أحدهما عيسو ، والثاني يعقوب العنيد المكار الذي زاحم أخاه جنيئاً ، وأراد أن يخرج قبله إلى الحياة ، وحين خرج وجدت (يده قابضة على عقب عيسو) ، يحاول استرجاعي ، فيسبقه ، لتكون له (البكورية) ، وحين فشلت المحاولة الأولى لم يئس ، (وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد ، إنسان البرية ، ويعقوب إنساناً كاملاً يسكن الخيام ، فأحب إسحق عيسو ، لأن في قمه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ، وطبخ يعقوب طبيخاً ، فأثى عيسو من الحقل ، وهو قد أعيا ، فقال عيسو ليعقوب : أطعمني من هذا الأحمر ، لأنني قد عييت ... فقال يعقوب : يعني اليوم بكوريتك ، فقال عيسو هأنا ماض إلى الموت ، فلماذا لي بكورية ؟ فقال يعقوب : احلف لي اليوم ، فحلف له ، فباع بكوريت ليعقوب ، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس ، فأكل وشرب ، وقام ومضى ، فاحتقر عيسو البكورية) - (تكوين / ٢٥) .

من هذا الخبر نرى يعقوب عالة على أخيه الصياد المكافح ، يبيع كسب أخيه له ، وليس له في هذا الكسب إلا الطهو والإعداد ، ويتقاضى الثمن (البكورية) ، فيرث أباه من دون أخيه .

يعقوب الجشع يتصرف بعقلية المرابي تاجر السوق السوداء ، انتظر عودة أخيه من البرية منهكاً شديد الإعياء وساومه ، ولأن أخاه أكبر من أن يزن هذه المطامع المادية بغير ميزانها فقد احتقرها .. تماماً شأن اليهود اليوم في كل بلاد الدنيا ، يعملون في الربا والتجارة والمصارف ، ويشربون دماء العمال والفلاحين .

بل إنها سياسة الدول الكبرى اليوم مع الدول (المتخلفة) ، تستولي الكبرى على معادن الصغرى ، وتصنعها ، وتبيع مصنوعات بغرض سيطرتها على مقاليد حياة هذه (المتخلفة) .

وكما يحدث اليوم من توثيق السيطرة في معاهدات وتحالفات ، لم

يكتف يعقوب بصك شراء بكورية أخيه ، فلجأ إلى تسجيله رسمياً على يد أبيه ، أو عن طريق الاعتراف الدولي ، أو (الاستفتاء الشعبي) .

فلما أن شاخ إسحق ، وكَلَّت عيناه عن الرؤية ، طلب إلى عيسو أن يخرج إلى البرية ، ويصيب صيداً ، (واصنع لى أطعمة كما أحب ، واتنى بها لأكل ، حتى تباركك نفسى قبل أن أموت) .

تأمرت (رفقة) مع ابنها المدلل (يعقوب) ، حتى يحصل على البركة من دون أخيه ، وأعدت (جديدين جيدين من المعزى) ، وألبست يعقوب ثياب عيسو الفاخرة ، لأن عيسو أشعر ، ويعقوب أملس ، فقد (ألبست يده وملامه عنقه جلود جدى المعزى) .

(وتقدم يعقوب إلى إسحق أبيه ، فجمه ، وقال : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا عيسو) ومع هذا ، دعا له أن يعطيه (الله من ندى السماء ، ومن دسم الأرض ، وكثرة حنطة وخمرة ، ليستعبد لك شعوب ، وتسجد لك قبائل ، كن سيداً لإخوتك ، وليسجد لك بنو أمك ، ليكن لاغتك ملعونين ، ومباركوك مباركين) - (تكوين / ٢٧) .

الافتعال واضح فى هذا الخبر ، لأن رفقة أم عيسو ويعقوب ، ولأن حبها يعقوب لا يستدعى بغضها عيسو ، وبخاصة أن عيسو ساع فى خير الأسرة ، غير طامع فى شىء ، ولأن البركة قصد بها إسحق بكره عيسو ، لا يعقوب ، فمردها إلى عيسو دون شك ، وبخاصة أن مانح البركة هو الله المطلع على عملية الاحتيال والنصب بين نبيين من أنبيائه .. مع هذا كله ، فإن الهدف من الخبر ليس إلا بيان اختصاص يعقوب بالفضل ، حتى ولو كان على حساب الحق والعدل .

وتتكرر المأساة الخلقية البشعة II .

(حدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال للابان : اصرفنى لأذهب إلى مكائى وأرضى ، وأعطنى نسائى وأولادى الذين خدمتك بهم فأذهب) .

. أراد (لابان) أن يكافئ ابن أخته (يعقوب) على السنوات التى قضاهما معه فى رعى الماشية ، بأن يقطعه بعضها ، واضعاً فى اعتباره أنه زوج ابنته ، فقال يعقوب : (اعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء ، وكل شاة سوداء بين الخرفان ، وبلقاء ورقطاء بين المعزى ، فيكون مثل ذلك أجرى) . اقترح يعقوب ، ووافق (لابان) ، فساق يعقوب هذه الشياه والمعزى ، بلقاء ورقطاء ، بين يدى بنيه ، وعاد يرعى غنم (لابان) ، حتى تتكاثر ، كما اتفقا .

لكن يعقوب أخذ لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطاً بيضاء ، كاشطاً عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران ، وفى مساقى الماء ، حيث كانت الغنم تجيء لتشرب ، فجاء الغنم ، لتتوحم عند مجيئها لتشرب ، فتوحمت الغنم عند القضبان ، وولدت الغنم مخططات ورقطاً وبلقاء ، وأفرز يعقوب الخرفان ، وجعل وجوه الغنم إلى المخطط ، وكل أسود بين غنم لابان ، وجعل له قطعاناً وحده ، ولم يجعلها مع غنم لابان ، وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران ، لتتوحم بين النضبان ، وحين استضعفت الغنم لم يضعها ، فصارت الضعيفة للابان ، والقوية ليعقوب ، فانسج الرجل كثيراً جداً) - (تكوين / ٣٠) . وهكذا فعل يعقوب النبى ، أبو أنبياء بنى إسرائيل ، بل أبو الشعب الإسرائيلى كله . فعل هذا مع خاله الذى زوجه بنتيه ، وسراه بجارييتين ، وزاد على الاتفاق بينهما ، فأعطاه من الغنم والمعزى ما طلب .

أمرنا مع عهد وميثاق يهودى ، تناسله الأجيال عن يعقوب ١٩ أم أن هؤلاء الأئمة المجرمين - فى سبيل الوصول إلى أهدافهم الدينية - لا يستحيون أن يعلّقوا فى رقاب آبائهم وأنبيائهم تعاليم عدوانية جائرة ، حتى تكون لأجيالهم نبراساً ، فتتحقق لهم السيادة فى الأرض ١٩

وفى سبيل هذه السيادة تداس كل القيم والتشريعات ، أو يعاد صوغها على حسب ما يريدون ، فإذا اعترض سبيل الخطايا (ابن معاند ومارد ، لا يسمع لقول أبيه ، ولا لقول أمه ، ويؤذنه فلا يسمع لهما ، يمسكه أبوه وأمّه ، ويأتيان به إلى شيوخ مدينته ، وإلى باب مكانه ، ويقولان لشيوخ مدينته : ابننا هذا معاند ومارد ، لا يسمع لقولنا ، وهو مسرف ومكبر ، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت) - (تثنية / ٢١) .

ومع أن السكر ليس جريمة أخلاقية فى حد ذاته ، إذ إن الأنبياء يشربون ويسكرون ، لأن (السكائب) فرائض للكهنة مع القرابين - فإن السكر جريمة اقتصادية ، هو إسراف ، والإسراف استنزاف لقوة المال ، عصب الشعب المختار ، ومن ثم كان العقاب رجماً بأيدي الشيوخ ، لأنهم أعرف الناس بهذه القوة ، وأقدر الناس على استثمارها ، وتسليطها على رقاب الآخرين وامتلاك طاقتهم .

وفى سبيل حماية التقاليد اليهودية يزداد العنف شراسة ووحشية ، حين توانيهم الفرصة للانتقام من غيرهم .

أتى يعقوب إلى مدينة (شكيم) التى هى أرض كنعان ، وابتاع قطعة الحقل التى نصب فيها خيمته من يد بنى حمور الحوى رئيس الأرض ، فخرجت (دينة) ابنة يعقوب لتتنظر نبات الأرض ، قرأها شكيم بن حمور الحوى رئيس الأرض ، وأخذها ، واضطجع معها ، وأذلها ، وتعلقت نفسه بها ، فكلّم أباه أن يأخذها له زوجة .

ذهب حمور إلى يعقوب ، وقال : (ابنى قد تعلقت نفسه بابتئكم ، أعطوه إياها زوجة ، وصاهرونا ، تعطونا بناتكم ، وتأخذون لكم بناتنا ، وتسكنون معنا ، وتكون الأرض قدامكم ، اسكنوا واتجروا فيها ، وتملكوا بها ، ثم قال شكيم لأبيه وإخوته : دعونى أجد نعمة فى أعينكم ،

فالذى تقولون لى أعطى ، كثروا علىّ جدّاً مهراً وعطية ، فأعطى كما تقولون لى ، وأعطونى الفتاة زوجة) .

(أجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر) ، واشترطوا أن يتم ما أرادوا إذا اختتنوا ، (إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر ، نعطيكم بناتنا ، وتأخذ لنا بناتكم ، تسكن معكم ، ونصير شعباً واحداً ، وإن لم تسمعوا أن تختنوا نأخذ ابنتنا ونمضى) .

حسن القول فى عيني آل حمور ، (واختتن كل ذكر) .

(وفى اليوم الثالث إذ كانوا متوجّعين ، أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة ، أخذ كل واحد سيفه ، وأتيا على المدينة بأمن ، وقتلا كل ذكر ، وقتلا حمور وشكيم ابنة جدّ السيف ، وأخذوا دينة من بيت شكيم ، وخرجوا ، ثم أتى بنو يعقوب على القتل ، ونهبوا المدينة ، لأنهم نجسوا أختهم ، غنمهم وبقرةم وحميرهم ، وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه ، وسبوا ونهبوا وغنموا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت) - (تكوين / ٣٤) .

إذا عرفنا أن موسى وهارون والكهنة جميعاً من سلالة (لاوى) لم يغب عنا أن ما يفعله (لاوى) يصبح من شريعة موسى ، وتقوم الكهنة على تنفيذه ، دون تساهل ، ولو أن الابن جادل فى هذا أو عاند رجموه حتى الموت .

الهدف هو إبادة الشعوب الأخرى ، والاستيلاء على كل ما يملكون ، فإذا لم تمكن للواجهة فالحيلة .

فتحت مصر أبوابها للعشرات منهم ، فامتلكوا وأثروا ، وصاروا مئات الألوف (١) ، ربطوا وجودهم بوجود أعداء مصر من (الهكسوس) ، فلما

(١) كانوا سمينين نسمة (تكوين ٤٦) ، فصاروا مئاة ألف وخمسمائة وخمسين ، وأما اللاويون - سبط آبائهم - فلم يعدوا بينهم (عدداً) ، وإن كان فى نسبة هذا التكاثر مغالاة شديدة ، فإنها دليل على ما نعموا به من خيرات مصر ، طعماً وأماناً .

انتصر المصريون على الغزاة ، وظهر تأمر اليهود مع أعداء مصر ، قرر (رمسيس) طردهم ، دون أن يرفع في وجوههم السيف .

وكان أن صدرت أوامر الرب (أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها ، أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، وتضعونها على بيتكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين) - (خروج / ٣) .

صدرت هذه الأوامر مصحوبة بتهديد المصريين . (أضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها) - (خروج / ٣) .

ما الداعى إذن إلى السرقة والاحتفال مادام بوسع (الرب) أن يصنع العجائب ؟

ألا تكون هذه مجرد تعاليم يهودية عصابية تأخذ شكلاً دينياً ؟

ماذا يفعل رئيس العصاية غير أن يسلب وينهب ويتوعد ، متخذاً كل وسائل الخداع والغدر ، متعللاً بتعلة ما ؟

(حين تقهر من مدينة لكى تخاربها ، استدعها للصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، وتستعبد لك ، وإن لم تسالمها ، بل عملت معها حرباً ، فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة .. لنفسك .. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً ، التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيباً ، فلا تستبق منها نسمة ما) - (تثية / ٢٠) .

كيف تأمن الشعوب لقوم هذا دينهم ؟

ماجرية روسيا القيصرية وألمانيا النازية إذا أعملتا فيهم القتل والتعذيب والتعجير ، بعدما ذاقنا من تأمرهم وغدرهم ، وتخريب الذم والضماير ،

وترويض الفسق والفجور ، ومحاربة الاقتصاد الوطنى بالربا والتهريب والمصادرة ؟

(متى أراحك إلهك من جميع أعدائك حولك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك نصيباً لكى تمتلكها ، تمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، لا تنس) - (تثية / ٢٥) .

ليس لهذا (الرب) كلمة واحدة فى العدل والرحمة والمغفرة والمودة والحسنى والتضامن والتعاون والسلام إنما هو القتل والنهب والختل والرجم والحرق والصلب والتثليل .

حين سقطت (أريحا) فى يد يشوع ، كانت أوامر الرب : (حرّمو كل ما فى المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، بحد السيف) ، ولم يكتف بهذا ، بل (وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها) - (يشوع / ٦) وكذلك فعل مع (حاي) ، وزاد فملق ملكها على الخشب حتى المساء - (يشوع / ٨) .

وبعدما انهزم ملوك الأموريين الخمسة ، وقتل من رجالهم الكثير ، وقعوا فى أسر يشوع ، فقال (لقواده) رجال الحرب الذين ساروا معه : تقدموا ، وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك ، وضربهم يشوع بعد ذلك ، وقتلهم ، وعلقهم على خمس خشب ، وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء - (يشوع / ١٠) .

بهذه القسوة المريعة والهمجية الدنيئة فعل بكل المدن التى سقطت فى يده ، لبنة ولخيش وجازر وعجلون ودير وحاصور .. قتل كل حى ، واغتتم كل خير ، وحرق كل ما بقى .

ماذا بقى لهذا (الرب) من صفات الربوبية ؟ أو ماذا لهذا الإنسان الذى كتب هذه الجرائم من صفات الإنسانية ؟

كيف تكون جماعة هذه صفاتهم دولة ١٩

هل يأخذ تجمع ما ، فى مكان ما ، صفة الاستقرار والاستمرار ، دون قيم كريمة ، ومبادئ رحيمة ١٩ دون تواد وتراحم وتعاون ١٩ وأن يشد بعضهم بعضاً ليكونوا بنياناً مرصوصاً ، يحس بعضهم بالآلام غيرهم ، فيصبروا تكويناً حياً ، أو جذيراً بالحياة ١٩

ماذا ، وهؤلاء : ﴿ بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ ١٩ .

اعتدى رجال من بنى بنيامين - أحد أسباط إسرائيل - على (سرية) رجل من (لاوى) ، ولم يسلم (البنيامينيون) المعتدين للإسرائيليين ، فقامت حرب - بعد مشورة الرب - قتل فيها عشرات الآلاف من الجانبين ، وأخيراً انهزم البنيامينيون ، فرجع (رجال بنى إسرائيل إلى بنى بنيامين ، وضربوهم يحد السيف من المدينة بأسرها ، حتى البهائم ، حتى كل ما وجد ، وأيضاً جميع المدن التى وجدت أحرقوها بالنار) - (قضاة / ٢٠) .

قد نقول إن جريمة الزنا تستثير النفوس ، ولا تقف بالغضب عند حد ، لكن أى جريمة زنا ١٩ .

إنه ليقال إن الزنا كان منتشرًا بين اليهود ، وإن اللواط لم ينقطع بعد تدمير سدوم وعمورة .

لقد زنا الملك الإسرائيلى داود بامرأة أوريا الحثى - على علم من رجاله - واستولدها ، وقتل زوجها ، ولم يحدث شيء ، سوى أن (الأمر الذى فعله داود قبح فى عيني الرب) - (صموئيل الثانى / ١١) .

إذن الأمر لا يخرج على أن تكون هناك قدرة على الفعل أو لا ، وليس أن تحدث جريمة لها عقابها .

حين فتحت (أريحا) كانت الأوامر أن تكون الغنائم كلها فى خزانة الرب ، ولكن عخان بن كرمى بن زبدي بن رازح ، من سبط يهوذا ، رأى (فى الغنيمة رداء شنعارياً نفيساً ومائتى شاقل فضة ولسان ذهب وزنه خمسون شاقلاً) ، فأخذها لنفسه ، ثم اعترف بجرمه ، فأحرقهم بنو إسرائيل بالنار ، ورموهم بالحجارة ، حتى أقاموا رجمة عظيمة إلى هذا اليوم (يشوع / ٧) .

لهذا كله لا يعوزنا أن نجد من كتاب العهد القديم من يستبد به هول مايرى ، فيجربى على لسان الرب ، واصفاً أحوالهم لاعناً إياهم ، دون أن يقع فى أيدي جلاديهم :

(آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم ، وخطاياكم سترت وجهه عنكم ، حتى لا يسمع ، لأن أيديكم قد تنجست بالدم ، وأصابعكم الإثم ، شفاهكم تكلمت بالكذب ، قد حبلوا بتعب ، ولدوا إثمًا ، فقسوا بيض أفعى ، ونسجوا خيوط عنكبوت ، الآكل من بيضهم يموت ، والتى تكسر تخرج أفعى ، خيوطهم لا تصير ثوباً ، ولا يكتسبون بأعمالهم ، أعمالهم أعمال إثم ، وفعل الظلم فى أيديهم ، أرجلهم إلى الشر تجرى ، وتسرع إلى سفك الدم الذكى ، أفكارهم أفكار إثم ، فى طرقهم اغتصاب وسحق ، طريق السلام لم يعرفوا ، وليس فى مساكنهم عدل ، جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة ، كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً) - (أشعيا / ٥٩) .

وإذ يرتفع مثل هذا الصوت الجرىء ، فإنه يشجع الآخرين ، متخذين من لسان الرب وسيلة للتعبير عن السخط المرير الذى انغرزت جذوره فى حلوقهم أماداً طويلة :

(إذ زنت العاصية لإسرائيل ، فطلقتها ، وأعطيتها كتاب طلاقها ، لم تخف الخائنة يهوذا أختها ، بل مضت وزنت هى أيضاً ، وكان من هوان

زناها أنها نجست الأرض ، وزنت مع الحجر ، ومع الشجر) - (أرميا / ٣) .
حتى أورشليم ، دار الهيكل ، خنقت جرائمها صوت الرب :

(زنت ، على اسمك ، وسكبت زناك على كل عابر ، فكان له ،
وأخذت من ثيابك وصنعت لنفسك مرتفعات موشاة ، وزنت عليها ، أمر لم
يأت ولم يكن ، وأخذت أمتعة زينتك من ذهبي ، ومن فضتي التي
أعطيتك ، وصنعت لنفسك صور ذكور ، وزنت بها) - (حزقيال / ١٦) .

من أجل هذا كله ، فإن الرب اتخذ موقفاً صارماً ، فضرب ضرباته
القاصمة : (ثلثك يموت بالوباء ، وبالجوع ، يفنون في وسطك ، وثلث
يسقط بالسيف من حولك ، وثلث أذريه في كل ربيع ، وأستل سيفاً
وراءهم) - (حزقيال / ٥) .

وتقع دولتا يهوذا وإسرائيل بين يدي « نبوخذ نصر » ، ويخرب
الهيكل ، ويطول الأسر بأغلبية الشعب ، ويمضي الشتات بالبقية الباقية .

ونتيجة حمائم الدم المتلاحقة ، عن طريق الحروب الاستعمارية
والاستيطانية التي شنها ، وحملات الانتقام التي شنت عليهم ، ووقوعهم -
وهم البدو الرحل - بين بلاد مستقرة ذات حضارة ، لم يوفر لهم الأمان ،
ولا الوجود السوي فهم في قلق دائم ، ورهبة مستمرة ، وكروفر ، وهم
أسرى هذا الوجود الحضاري ، لا يستطيعون أن يأخذوا بأسبابه ، ولا
يستطيعون أن يلتمسوا أثوابهم بعيداً منه ، هم شجرة سنت ، لا ظل ولا
ثمر ، بين حدائق غانية . فإذا قضى عليهم ، أو كاد ، على يد
نبوخذ نصر ، انطلقت الدعاوى هنا وهناك ، في محاولة لإنقاذ ما يمكن
إنقاذه ، وكثر الأنبياء الأدعياء :

(لم أرسل الأنبياء ، بل هم جروا ، لم أتكلّم معهم ، بل هم تنبعوا)
(أرميا / ٢٣) .

(قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين تنبشوا باسمي الكذب ، قائلين :
حلمت حلمت) - (أرميا / ٢٣) .

حتى النساء أصابهن ما أصاب الرجال :

(اجعل وجهك ضد بنات شعبك اللواتي يتبنأن من تلقاء ذواتهن ،
وتنبأ عليهن) - (حزقيال / ٢٣) .

ولعل هذا الهول والفرع والشتات المادى والمعنوى الذى أصاب القوم
يفسر لنا قول الرب لموسى :

(كلم بنى إسرائيل ، وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً في أذيال ثيابهم
في أجيالهم ، ويجعلوا على هدب الذيل عصاية من اسما نجوى) -
(عدد / ١٥) .

إن هذا التمايز في الثياب أبقي على هذه القطعان الضائعة سلالة
متميزة عن بقية أجناس الأرض ، وكان عامل اعتزال (جيتو) ولّد في
نفوسهم كل المباذل والمطامع والشهوات الخسيسة والدنيئة II .

٣ - صِهْيُونِيَّة !!

لأول مرة يفاجأ قارئ (العهد القديم) بلفظ (صهيون) مقحماً إقحاماً في سفر الملوك الأول (٨) ، إذ يقول كاتبه :

(حينئذ جمع سليمان شيوخ إسرائيل ، وكل رعوس الأسباط ، رؤساء الآباء من بني إسرائيل ، إلى الملك سليمان في أورشليم ، لإصعاد تابوت عهد الرب ، من مدينة داود ، هي صهيون) .

ولما كان صهيون جبلاً يقع في الجنوب من بيت المقدس ، وليس مدينة ، فإن إطلاق لفظ (صهيون) على أورشليم القدس ، له دلالة ذات مغزى ، في عهد داود ، الذي رسم حدود مملكة (إسرائيل) ، بعدما نكل بكل شعوب هذه المنطقة ، بل قام بعملية إبادة وإحلال جماعة من الرعاة البدو المتمردين مكان شعوب مستقرة ذات حضارة وأصالة . لا يمكن أن يكون إطلاق لفظ (صهيون) على هذه المدينة (رمية من غير رام)^(١) ، أو هو من قبيل المجاز المرسل ، في لغة البلاغيين ، إنه تخطيط محدد الأهداف ، مهد له سفر (تكوين) ، بمحاولة خبيثة لإدانة الكنعانيين منذ بدء الخليقة ، والحكم عليهم بالعبودية لأبناء سام .

روى الكاتب (الصهيوني) قصة نوح الذي سكر وتعرى ، فلما أفاق من سكره لعن كنعان بن حام ، قائلاً :

(ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإشوته) .

مع أنه برىء هو وأبوه من الإساءة إلى الجد نوح ، كما سبق القول ،

(١) ينسب إلى الكاتب اليهودي النمساوي ناتان برونباوم (١٨٦٤ - ١٩٣٧) أنه اشتق كلمة صهيونية ليصف هذا الاتجاه الاستعماري الجديد بين صفوف اليهود وغيرهم .

(وقال : مبارك الرب سام ، وليكن كنعان عبداً لهم ، ليفتح الله لياث ، فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبداً لهم) - (تكوين / ٩) .

فإذا كانت تخوم الكنعانيين (من صيدون ، حينما تجيء نحو جزار إلى غزة ، وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبريم إلى لاشع) - (تكوين / ١٠) - أدركنا لماذا كان الحكم على آل كنعان بالعبودية .

قد تتساءل : ما خطأ (حام) الصغير ، وقد رأى عورة أبيه فاستحيا ، وخرج يخبر أخويه الكبار ليحسنوا التصرف ؟ وإذا كان (حام) - ومن سلالة المصريين الأعداء الألداء لليهود - قد أخطأ ، فما ذنب كنعان ابنه ؟ ولماذا اختص كنعان - من دون أبناء حام - بهذه اللعنة ؟ أليس في هذا إشارة إلى العيث المقصود بالكتاب المقدس ، وتطوير عبارته لأهداف استعمارية ؟!

بعد أن سكن إبراهيم (كنعان) ، وذهب لوط إلى سدوم ، (قال الرب لأبرام - بعد اعتزال لوط عنه - ارفع عينيك ، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، لأن جميع الأرض التي أنت ترى ، لك أعطيها ، ولنسلك إلى الأبد .. قم امش في الأرض طولها وعرضها ، لأني لك أعطيها) - (تكوين / ١٣) .

خرج إبراهيم من (أور الكلدانيين) فاراً بدينه ، ومر ببلاد كثيرة^(١) ، استضافته ، وأكرمت مثواه ، وصاهر منها ، وأخيراً انتهى به المطاف إلى هذه الأرض التي تزخر بشعوب كثيرة - قينية ، وقنزية ، وقدمونية ، وفريزية ، ورفائية ، وأمورية ، وحرقاشية ، وبيوسية ، وحيشية ، وكنعانية ، وفلسطينية - ليتخذ منها (مستعمرة) على حساب أهلها الذين لا ذنب لهم إلا أن نوحا - عليه السلام - سكر وتعرى !!

(١) يرى أكثر المؤرخين أن هذه الرحلة تمت حوالي سنة ٢٠٠٠ ق م ، ويرجع بعضهم حللها سنة ١٧٥٠ ق م .

ونلاحظ أنه بعد أن تمكن إبراهيم من هذه الأرض ، وانتصر على كبد لعوم والملوك الذين معه) ، وبعد أن طاردهم إلى (حوة) التي عن شمال دمشق - (تكوين / ١٥) - ورد ذكر (الشعب) - (تكوين / ١٤) - لأول مرة ، وسيلة تسجيل على يد (أبى الأنبياء) أن هذه الأرض خاصة (بالشعب) الذى صار فى الفكر اليهودى علماً على بنى إسرائيل .

بل جرى اعتراف رسمى على يد ألد أعداء هذا (الشعب) فى مواجهة بنى إسرائيل ، إذ قال فرعون ، (لماذا يأموسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله) ؟ - (خروج ٢ / ٢١) .

ثم (قطع الرب مع أبرام ميثاقاً ، قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير ، نهر الفرات) - (تكوين / ١٥) إنه الحلم الذى دونه الصهانية على جدار الكنيست (من النيل إلى الفرات) II

ويبحث (الرب) عن علاقة عضوية تميز (الشعب) عن غيره ، فأعياه البحث ، وأخيراً اهتدى إلى (الختان) الذى لا يعد وسيلة (تمييز) إلا بعد أن يمر بوسيلة (كشف) ، ابتلى بها (نوح) فى حالة سكر ، فأصابته اللعنة (كنعان) II .

وكان أن عاهد (الرب) إبراهيم : (يختن منكم كل ذكر .. أما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرله فتقطع تلك النفس من شعبها) - (تكوين / ١٧) .

وتستمر هذه العلاقة غير الظاهرية ، حتى يهتدى رب موسى إلى (أن يصنعوا لهم أهداباً فى أذيان ثيابهم ، فى أجيالهم ، ويجعلوا على هذب الذيل عصاية من أسما نجوى) - (عدد / ١٥) .

وبهذا يمكن التمييز بين (الشعب المختار)^(١) وغيره من (أرجاس

(١) يزعم فرويد أن موسى كان ضابطاً مصرياً ، آمن بديانة أخناتون ، وكانت له انتصاراته فى إثيوبيا ، فلما حدث الانقلاب ضد أخناتون لم يجد موسى لنفسه مكاناً فى مصر ، فاختار الشعب الإسرائيلى ليكون معه دولة تعرضه عما فقد فى مصر ، ولهذا سمى الشعب الإسرائيلى الشعب المختار - ص ٧١ موسى مصرياً .

الأرض) إذا لبسوا ، وإذا تعروا .

ويراعى أن هيرودوت الملقب بأبى التاريخ أخبرنا أن عادة الختان قد مورست ، منذ زمن طويل فى مصر ، وثبتت صحة هذا القول بنفحص مومياءات المصريين القدماء ، بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر^(٢) .

ولعل هذه العادة انتشرت بين القبائل التى سكنت شرقى البحر المتوسط ، بعد ما خضعت هذه البلاد للحكم المصرى زمناً طويلاً . هذا إلى أن إبراهيم عاش فى مصر فترة من حياته ، وتنقل فى مناطق كانت خاضعة للحكم المصرى ، والإسرائيليين عاشوا فى مصر ، وتناسلوا أجيالاً كثيرة ، وأخذوا عن المصريين كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، وزادتهم محنة (الخروج) حيناً إلى مصر وإلى ما يربطهم بأبائهم فيها .

والأستاذ العقاد ينفى (أن الإسرائيليين اعتبروه - الختان - علامة لقبيلتهم ، تميز الإسرائيلى عن غيره ، وإنما الصحيح أنهم اعتبروه علامة تسليم لربهم) ، مؤكداً أن الختان اختصار لعادة الضحية البشرية ، نشأ مع تقدم الإنسان فى الحضارة والمدنية ، ففى أقدم العصور كان الفائح المنتصر يقتل الأسرى ، قرباناً على محراب إلهه ، ثم تدرجوا من قتلهم إلى قطع أعضائهم ، وتدرجوا من قطع أعضائهم إلى قطع أغلفتهم ، وجعلوا ذلك علامة على تسليم الأعداء بالهزيمة ، وقد فعل ذلك الإسرائيليون مع أعدائهم فى مواقف مختلفة ، كما فعله المكيابون مع أعدائهم^(٣) .

وفى هذا الخبر نظر لحاجته إلى عشرات الجراحين ، ولأن قطع أى عضو من الأعضاء لا يكلف المحارب حذراً أو حيلة أو مهارة (طبية) ،

(١) موسى مصرياً - ص ٤٢ .

(٢) أبى الأنبياء - كتاب اليوم - القاهرة - سنة ١٩٥٣ - ص ٢١٠ / ٢٠٩ .

كما هو الحال مع قطع الغزلة ١١ .

ومع هذا ، فكتاب الأسفار المقدسة حريص على أن يضيف إلى (الشعب) ما يميزه عن بقية الأمم ، برغم أنف المسلمات التاريخية ١١ .

وتدوس العقلية الصهيونية كل الحقائق التاريخية من أجل توثيق نقل ملكية أرض كنعان إلى (الشعب) ، فسعت إلى أن يكون التوثيق على أيدي إبراهيم وهاجر وإسماعيل ، حتى لا يأتي العرب في يوم ويظعنوا في نقل الملكية ، وقد تم هذا كله بمعرفة أجدادهم وبمصادقتهم ١١ .

حين غضبت سارة على هاجر ، لم يذهب إبراهيم إلى الصحراء العربية - كما حكى القرآن الكريم - بواد غير ذي زرع ، عند البيت الحرام ، بل ذهب بها وابنها إسماعيل إلى صحراء فاران (سيناء) ، وكان أن (تاهت في بيرة بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القرية طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ... ورفعت صوتها ، وبكت ، وفتح الله عينها ، فأبصرت بئر ماء .. فذهبت وملأت القرية ماء ، وسقت الغلام ، وسكن في بيرة فاران ، وأخذت له أمه زوجة من مصر) ، لامن جرهم ، كما يذكر التاريخ العربي (تكوين / ٢١) .

ويستمر التحريف والتضليل ، ويصبح الذبيح إسحق لا إسماعيل ، لأن إسحق هو أبو يعقوب الذي ينسب إليه الإسرائيليون ، ويأخذ بهذا القول - للأسف - بعض علماء المسلمين ١١ .

يقول الرب : (خذ ابنك ، وحيدك الذي تحبه ، إسحق ، واذهب إلى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك) - (تكوين / ٢٢) .

وأرض المريا هذه في فلسطين التي تغرب فيها إبراهيم أياماً كثيرة

حينذاك - (تكوين / ٢١) - وكأنما اليهود يريدون أن يجمعوا كل الأحداث المقدسة في (أرض الميعاد) ١١ .

وفوت الكاتب الصهيوني المجتهد أن إسحق في ذلك الوقت لم يكن (الوحيد) ، فقد سبقه إسماعيل ابن هاجر ، الذي قد شب وأفنع قبل أن تبرأ (سارة) من عقمها ، بسبب غيرها من هاجر ، كما يرى علماء النفس .

وفي محاولة ليكون الحق الأزلي ملكاً مدفوع الشمن لإسرائيل ، منذ إبراهيم ، فلا يكون اغتصاب - تمت سارة - ويريد إبراهيم دفنها ، فيذهب إلى بنى (حث) ، قائلاً : (أنا غريب ، ونزيل عندكم ، أعطوني ملك قبر معكم ، لأدفن ميتي من أمامي ، فأجاب بنو حث إبراهيم ، قائلين له : سمعنا ياسيدي ، أنت رئيس من الله بيننا ، في أفضل قبورنا ادفن ميتك ، ولا يمنع أحد منا قبره عنك ، حتى لا تدفن ميتك) .

لكن العقلية الصهيونية تأبى إلا امتلاك الأرض ، فتجعل إبراهيم يقول : (التمسوا لي من عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة ، التي له في طرف حقله ، بشمن كامل) ، فيقول عفرون : (الحقل وهبتك إياه ، والمغارة التي فيه لك وهبتها) .

فإذا إبراهيم لا يقبل الهبة ، وهي تمليك شرعى ، ويصر على دفع الشمن : (أعطيك ثمن الحقل ، خذ منى فأدفن ميتي) .

وكأن إبراهيم خشى أن يرجع الرجل في هبته أو يطعن الأبناء والأحفاد في صحة الهبة .

وأمام هذا الإصرار العنيد وافق عفرون ، فدفن (إبراهيم سارة في مغارة حقل المكفيلة ، أمام مرا ، التي هي حبرون ، في أرض كنعان) - (تكوين / ٢٣) .

وللأمانة التاريخية كانت المقبرة (أمام مرا التي هي حبرون في أرض

كنعان) حتى يحيط (الشعب) هذه المقبرة برعايته وعنايته ، فيمتلك كل ما حولها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، على أساس نظرية الأمن الإسرائيلي اليوم ١١ . و (كان في الأرض جوع) ، وأراد إسحق أن يهاجر ، فظهر له الرب ، (وقال : لا تنزل إلى مصر ، اسكن في الأرض التي أقول لك ، تغرب في هذه الأرض فأكون معك ، وأباركك ، لأنني لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد ، وأنى بالقسم الذى أقسمت لإبراهيم أبيك ، وأكثر نسلك كنجوم السماء ، وأعطى نسلك جميع هذه البلاد ، وتبارك في نسلك جميع أم الأرض .. فأقام إسحق في جرار) بفلسطين - (تكوين / ٢٦) .

وإذا كان الرب قد سمح بعد ذلك ليعقوب بالهجرة إلى مصر ، في حالة جوع ماثلة ، فلم يكن ذلك إلا بعد أن توثقت الملكية على يد إسحق ، وحتى يكون مولد يعقوب في أرض (الميعاد) لا في الأرض التي انصبت على رؤوسهم فيها لجنة الفراعنة .

بعد أن تحددت معالم الأرض ، وصدق على نقل ملكيتها أطراف النزاع من العرب والإسرائيليين - أخذ (الرب) يعمل على حماية (الشعب المختار) من أن يتسرب إليه الدنس ، دنس غيره من الشعوب .

نجد إبراهيم - وقد شاخ - يحدث (عبده كبير بيته المستولى على ما كان له) ، قائلاً : (استحلكت بالرب إله السماء ، وإله الأرض ، ألا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم ، بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى إسحق) - (تكوين / ٢٤) وكأنه لا يدرى موقف أرضه وعشيرته من (الحنيفية السمحاء) !! وزيادة في الحيلة والحرص على الطهارة والنقاء (أعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له - مع أنه ليس بكره - وأما بنو السراى اللواتى كن لإبراهيم - منهن هاجر أم

إسماعيل نجد العرب - فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد حى) - (تكوين / ٢٥) - حتى لا يختلط نسل إسحق بغيره من نسل إبراهيم ، أو إسماعيل خاصة ، فتنفسد أخلاقهم ، أو تأسرهم عاطفة واحدة .

وكما فعل إبراهيم حفاظاً على نسل إسحق (دعا إسحق يعقوب ، وباركه وأوصاه ، وقال له : لا تأخذ زوجة من بنات كنعان ، ثم اذهب إلى فدان آرام ، إلى بيت بتروئيل أبى أمك ، وخذ لنفسك زوجة من هناك ، من بنات لابان أخى أمك) - (تكوين / ٢٨) .

خرج يعقوب من بئر سبع ذاهباً نحو حاران ، واضطجع في الطريق ، فأثاء الرب قائلاً : (الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيتها لك ولنسلك ، ويكون نسلك كتراب الأرض ، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ، وتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض) - (تكوين / ٢٨) .

الأرض التي تباركت ببيعقوب صارت ملكاً خالصاً ، ولاحتمال أن تكون الريح قد حملت من بركته في الجهات الأربع ، فحيث حلت البركة تنتقل الملكية ، ولا تناسق رقعة الأملاك لا بد من تكاثر المالكين كثرة التراب ، لا كالتراب يداس بالأقدام ، وجميع قبائل الأرض تلتصق بالبركة بحد السيف ، إذا كانوا من سكان الأرض الموعودة ، وبالعبودية إذا كانوا من خارجها !! .

ويضرب الجوع شعب الله المختار ، الذى كان يبلغ إذ ذاك سبعين نسمة ، فلا يجد القوت إلا في مصر . ويستيقظ المصريون في يوم وقد أصبحت الثروة والسلطة في يد الغرباء ، فتشغل قبضة سفن رع وكامس وأحمس ، فيتم طرد الهكسوس ، ويعرف أصحاب الأرض الدور الاستعماري الانتهازي الاحتكاري الذى لعبه الإسرائيليون ، فيضيق رمسيس الخناق

عليهم ، حتى يضطروا إلى الخروج ، ويعلم « مفتاح » أنهم سرقوا ذهب مصر وفضتها وحطتها فيلاحقهم .

وأمكنهم الإفلات من قبضة فرعون ^(١) ، لكن بعد ما قذف في قلوبهم الرعب والهلع ، حتى جعلهم يدورون في فراغ أنفسهم بصحراء سيناء أربعين عاماً ، لا يقدرّون على مواجهة تجربة جديدة ، لا يعلمون مصيرهم بعدها : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو ﴾ ^(٢) ، وكلّ قوم جبارين .

لهذا صدر أمر الرب : (لا يرد الشعب إلى مصر ، الرب قد قال لكم ، لا تعودوا ترجعون في هذه الطريق) (تثية / ١٧) .

ويحاول موسى ما وسعه أن يثبت في قلوبهم الأمن والأمل ، فيقول على لسان الرب في جبل حوريب :

(إنني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر ، وسمعت صراخهم من أجل مسخريتهم ، إنني علمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين ، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جديدة واسعة ، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين) - (خروج / ٣) .

لكن أشباح المصريين ما تزال تتراءى لهم ، وتسد عليهم كل طريق ، فيقولون بلغة القرآن : ﴿ إن فيها قوما جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ﴾ ^(٣) ..

(١) كان خروج بني إسرائيل من مصر حوالي سنة ١٢١٣ ق . م وقد لحق بهم عدد من المصريين الساخطين ، من الأسرى والعبيد ، كما يقول جوستاف لوبون .. فإذا أضفنا أن فرعون - حين وجد تكاثر بني إسرائيل إلى حد يهدّد الدولة ، فأمر بقتل ذكور الأطفال واستجاء الإناث ، وكان الضياع في سيناء ، والشتات بين البابليين والآشوريين واليونان والرومان - أمكننا أن نقول مع (لمبروزو) إن اليهود المحدثين هم أدنى إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي ، وأن بقاء المنصر اليهودي محض خرافة .. يقول رول ديبرانت : الحق أن وجود جنس نقي في الشرق الأوسط بين الآلاف من مزاراته الجنسية التي تتلاطم فيه - أمر يتطلب مستوى من الفضيلة لا يعقله عاتل .

(٢) المائدة / ٤ .

(٣) المائدة / ٢٢ .

﴿ لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ﴾ ^(١) .

ويصعد موسى الجبل ، ويلتقي بربه ، ويعود يبشارة أخرى :

(الآن - إن سمعتم صوتي ، وحفظتم عهدي - تكونون لى خاصة ، من بين جميع الشعوب ، فإن لى كل الأرض ، وأنتم تكونون لى مملكة كهنة ، وأمة مقدسة) - (خروج / ١٩) .

وما داموا قد أصبحوا بمثابة أبناء الله وخلفائه في الأرض ، فلا بد من أن يحقق الله لهم ما وعد من (أرض تفيض لبناً وعسلاً) .

لقد فجر الله على يدي موسى اثنتي عشرة عينا ^(٢) ، بعدما استبد بهم العطش ، وأغدق عليهم المن والسلوى ، حين استحر بهم الجوع ، أفلا يصدق هذه المرة أيضاً ، فينصرهم على هؤلاء الجبابرة ١٩ .

لكن لعنة الفراعنة ما تزال تطاردهم حيث يكونون ، ويتسرب الشك في وعد الله إلى نفوسهم ، وهم في حاجة إلى أكثر من الوعد ، إلى أن يحارب الله معهم : (أرسل هيبتى أمامك ، وأزعج جميع الشعوب الذين تأتي عليهم ، وأعطيك جميع أعدائك مدبرين ، وأرسل أمامك الزنابير ، فتطرد الحويين والكنعانيين والحيثيين من أمامك ، لا أطردهم من أمامك في سنة واحدة ، بلألا تصير الأرض خربة ، فتكثر عليك وحوش البرية ، قليلاً قليلاً أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك ، وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين ، ومن البرية إلى النهر) - (خروج / ٢٣) .

ولا جدوى .. حتى ينتهي جيل الهوان والذل ، وينبت جيل جديد ساخط ناقم ، قست عليه الصحراء ، وقتلت فيه نضرة الحياة ، فلم يعد

(١) المائدة / ٢٤ .

(٢) لماذا اثنتا عشرة عينا بعدد أسباطهم ؟ ألا يعني هذا ما أصاب القوم من نزعة الانقسام والمعصية القبلية ، وشهرة الامتلاك ١٩ .

يملك إلا إرادة التسلط والتملك والانتقام والغدر والحرق والتدمير .

وكان يشوع خير عون لهم على إشباع شهواتهم العدوانية العنيفة ، فقتلوا وصلبوا وأحرقوا ودمروا ونهبوا .

وحين شاخ يشوع ، (دعا جميع إسرائيل وشيوخه ورؤساءه وقضاته وعرفاءه ، وقال لهم : أنا قد شُخْتُ ، تقدمت بى الأيام ، وأنتم قد رأيتم كل ما عمل إليهم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم ، لأن الرب إليكم هو المحارب عنكم ، انظروا ، قد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم ، من الأردن ، وجميع الشعوب التى قرضتها ، والبحر العظيم نحو غروب الشمس ، والرب إليهم هو ينفيتهم من أمامكم ، ويضردهم من قدامكم ، فيمتلكون أرضهم كما كلمكم الرب إليهم ، فتشدّدوا جداً ، لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى .. ولكن إذا رجستم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب ، أولئك الباقين معكم ، وصاهرتموهم ، ودخلتم إليهم وهم إليكم ، فاعلموا يقيناً أن الرب إليهم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم ، فيكونون لكم فخاً وشركاً ، وسوطاً على جوانبكم ، وشوكاً فى أعينكم ، حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم إياها الرب إليهم) - (يشوع / ٢٣) .

فى هذه البوصية ركز يشوع على عوامل أسامية فى الحياة الصهيونية :

* إن المطامع الإسرائيلية تتسع باتساع قدرتهم ، فلا تنتهى الحدود الإقليمية للدولة عند ما حدده رب إبراهيم وإسحق ويعقوب ، بل شملت (البحر العظيم نحو غروب الشمس) ، وهو ما لم تصل إليه دولة داود وسليمان ، أبعد ما وصلت إليه أطماع اليهود حين ذاك .. ولعل دولة إسرائيل اليوم لم ترسم حدوداً دولية ، ولم تلتزم بدستور أو قرارات دولية ، حتى يظل الباب مفتوحاً لتوسعاتها ، على حساب غفلة العرب وتناطحهم .

* إن الاتساع لا يقف عند حدود ملكية الأرض ، بل ملكية

الشعوب ، لتسخيرهم فى الأرض ، إذ إن الشعب المختار لا يصلح للمهين الإنتاجية ، بل لاستغلال ثمراتها .

* إن على أبناء إسرائيل أن يعزلوا هذه الشعوب عن الحياة العامة ، حتى لا يكونوا فى يوم (فخاً وشركاً وسوطاً وشوكاً) - كما يحدث الآن مع الشعب العربى فى فلسطين - هذا إلى الاحتفاظ بالنقاء وطهارة (الدم الإلهى) ، لأن الرب إليهم وحدهم ، فقد خصهم - دون سواهم - بما يربطهم به برباط أبدي ، ما داموا فى طاعته .

ويأتى سليمان بن داود فيؤكد الرابطة بين الرب وإسرائيل ، قائلاً : (لأنهم شعبك وميراثك الذين أخرجت من مصر ، من وسط كور الحديد ، لتكون عينك مفتوحة نحو تضرع عبدك ، وتضرع شعبك إسرائيل ، فتصغى إليهم فى كل ما يدعونك ، لأنك أنت أفرزتهم لك ميراثاً من جميع شعوب الأرض) - (الملوك الأول / ٨) .

ونسى سليمان أنه تزوج - كما جاء فى الكتاب المقدس - بحوالى سبعمائة امرأة من شعوب أخرى ، وتسرى بثلاثمائة ، كما نسى أن بنى إسرائيل لم يعتزلوا الشعوب الأخرى عزلة كاملة ، وبخاصة خلال الهزائم التى لحقت بهم ، وخلال التطواف الطويل ، والإقامة فى أكناف شعوب كثيرة .. فإذا انتهى بهم الأمر إلى الشتات الكبير على أيدي البابليين والآشوريين وتمزق مجتمعاتهم كل ممزق ، بين بلاد ذات حضارة وقوة شكيمة - اختلط الزرع المقدس .

(لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضى ، حسب رجاساتهم ، من الكنعانيين والحيثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونييين والموابيين والمصريين والأموريين ، لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيتهم) - (عزرا / ٩) .

اعتراف صريح من الرؤساء لعزرا ، يصدر بعده أمر جديد ، فى محاولة

لاستنقاذ بقية الدم المقدس :

(إن الأرض التي تدخلون لتمتلكوها هي أرض متنجسة بنجاسة شعوب الأرضي ، برجاساتهم التي ملغوها بها ، من جهة إلى جهة ، بنجاساتهم ، والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيتهم ، ولا تأخذوا بناتهم لبنيتكم ، ولا تطلبوا سلامتهم وخيرهم إلى الأبد ، لكي تتشددوا وتأكلوا خير الأرض ، وتورثوا بنيكم إياها إلى الأبد) - (عزرا / ٩) .

عزرا ابن الله ، مجدد الشريعة ، لم يستفد من دروس الماضي ، والعمل على الإضرار بغيرهم ما وسعهم الجهد ، من أجل أن يظل (خير الأرض) ميراثاً أبدياً لهم !!

وفي سبيل تطهير وتنقية الزرع المقدس من الرجاسات التي اختلطت به ، دعا إلى بداية جديدة :

(انفصلوا عن شعوب الأرض ، وعن النساء الغريبة) .

لكن ، ماذا وقد (أكثرنا الذنب في هذا الأمر ، ووجد بين الكهنة من اتخذ نساء غريبة .. ومنهن نساء قد وضعت بنين) ؟

انتهى (السفر) عند هذا السؤال دون جواب ، لكنهم (أعطوا أيديهم لإخراج نسائهم ، مقربين كرش غنم لأجل إثمهم) - (عزرا / ١٠) .

* * *

من المؤلم حقاً ، والمثير للدهشة والإشفاق والجزع ، أن نرى هذا (الشعب) لم يستفد من المحن الكثيرة التي نزلت به ، وظل يتوارث العداوة لكل البشر ، والرغبة في السيطرة عليهم ، والاستئثار بخيرات الأرض .. وإلى يومنا هذا نجد الشعارات العدوانية ، والمحاولات الآثمة الدنيئة ، من أجل الإضرار بالآخرين ، وتمزيقهم ، وإيقاع العداوة بينهم ، وإفسادهم فكرياً وأخلاقياً واقتصادياً ، ويلقون هذه الرذائل والجرائم جميعاً برداء القداسة ،

لأن (الله قد حلّ في هذه الأمة - كما يدعى الحاخام الصهيوني « كوك » - وبذا أصبحت إسرائيل مشبعة بروح الله ، بروح الاسم المقدس) ، بهذه الروح ارتكبت جرائمها في كفر قاسم وقبية والصابحة ودير ياسين ، وغيرها ، وغيرها ، حتى وصلت إلى خيام صبرا وشاتيلا ، ومدت شياكها فاستحوذت على مقدرات الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة والجولان وجنوب لبنان .

ويدعى الحاخام كوك متبجحاً متوقفاً (أن كل ممتلكات إسرائيل القومية العزيزة على قلب اليهود - الأرض واللغة والتاريخ والعادات - إن هي إلا أوعية لروح الرب) ، بل (إن روح الرب وروح إسرائيل هما شيء واحد) .

وبناء على هذا يصبح التاريخ اليهودي بكل جرائمه مقدساً ، لأنه يعبر - في رأى كوك وكاهان وبن جوريون ومائير ودايان وشامير وغيرهم من الإرهابيين العتاة - عن الإرادة الربانية ، وليس عن المحاولة والخطأ الإنسانيين ، فإله إسرائيل يتدخل في التاريخ اليهودي من أوله لآخره ، والأمة اليهودية لم تأت للوجود من خلال تطور تاريخي ، بل من خلال استراتيجية سماوية ، وتخطيط إلهي مباشر !!

* * *

٤ - إله من ذهب !!

(إله إسرائيل .. قدوس إسرائيل .. الساكن فى بيت إسرائيل .. شعب الله المختار .. تراث الرب .. أفزتهم لك ميراثاً من جميع شعوب الأرض .. اختارك الرب لكى تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض !! .

تعبيرات كثيرة تزخر بها أسفار (العهد القديم) ، تؤكد قوة الارتباط بين (الرب) و (الشعب) ، مما يوحى بأن الشعب - على جميع مستوياته - يقف أمام الرب فى مستوى واحد .

لكن .. وكما تبين من أمثلة كثيرة سبقت - فيما عرضنا له - نجد أن الرب يحمى غضبه على فريق دون آخر ، مع أن الجريمة واحدة ، كما أنه يجمال فيغلق ، ويغفو فيشتد ، دون سبب واضح للمعاملة أو الجفوة .

وقد يشير الدهشة أن الرب - فى كثير من أسفار التوراة وكتب الأنبياء - يستغل استغلالاً قاسياً فى سيطرة طبقة على أخرى ، أو فى ابتزاز خيرات (الشعب) لصالح سبط من الأسباط (فريضة دهريّة) ، ويتخذ (تابوت الرب) الذى هو نصب من الأنصاب ، بمثابة شرك ، للإيقاع بالشعب المخدوع بين أنياب ومخالب لا تشيع ولا ترتوى .

فإذا كان هارون - فى عبارة القرآن الكريم - فصيحاً شجاعاً ، ونبياً شريكاً فى أداء الرسالة : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردأ ﴾ ^(١) . ﴿ اشئد به أزى * وأشركه فى أمرى ﴾ ^(٢) .

فإنه فى عبارة العهد القديم - يهودى ، قبل أن يكون ريانياً .

لما كان الذهب هو إله اليهود حقاً ، فإن هارون أول من صنع هذا الإله ، وإذا كان كل الكهنة من نسل هارون ، فإن إله هارون الذهبى سيطر إله إسرائيل ، (فريضة دهريّة) .

(لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل ، اجتمع الشعب على هارون ، وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى ، الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا تعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون :

انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبناتكم وبناتكم ، واتنوني بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم ، وأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم ، وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكة ، فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر ، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ، ونادى هارون وقال : غداً عيد الرب ، فبكروا فى الند ، وأصعدوا محرقات ، وقدموا ذبائح سلامة) - (خروج ٣٢ /

طلب الشعب إلهاً مصنوعاً ، وكان على هارون أن ينكر هذا الطلب ، وأن يهديهم إلى الصواب ، لكنه سرعان ما استجاب كأنما كانوا يترجمون عما فى نفسه ، فلم يتركها ، ولم يماطل ، كما كان بوسعه أن يجعل هذا الإله من طين أو من خشب أو من نحاس ، أو من تمر ، كما فعل بنو حنيفة العرب ، حتى إذا جاعوا أكلوه ، لكنه أراد من ذهب ، وفى صورة الإله المصرى القديم ، قبل عهود الذلة والعبودية التى أصابتهم فى مصر ، وصنعه بيده ، لا بيد أخرى ، وبنى له مذبحاً ، وجعل له عيداً ، وأصعد المحرقات ، وقدم القرابين .

كانت بداية ومثالاً ، فقد ظلت عبادة العجل تتجدد فى حياة بنى إسرائيل .

(١) القصص / ٣٤ .

(٢) طه / ٣١ - ٣٢ .

سَجِّل العهد القديم أن يربعم بن سليمان عمل عجلى ذهب ليعبدهما
أنباعه ، حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل - (الملوك الأول / ١٢)
كأنما الذهاب إلى الهيكل كان للقاء الرب (الساكن فيه) .

وملك بعشا بن أخيا على جميع إسرائيل ، وسار فى طريق يربعم ،
وفى خطيئته التى جعل بها إسرائيل تخطئ - (الملوك الأول / ١٥) .
كذلك فعل عمري ، وجاء أخاب بن عمري فتزوج ابنة ملك
الصيدونيين ، وعبد البعل ، وسجد له ، وأقام مذبحاً - (الملوك
الأول / ١٦) .

هذا ما حفلت به الأسفار المقدسة ، وهى لم تسجل كل الأحداث
الإسرائيلية ، بل تركز على أخبار الأنبياء والملوك ، وهم الصفوة التى تلتزم
بالآداب العامة للسلوك ، أو تتظاهر بالالتزام ، فكيف بالشعب الذى تغلب
عليه الخرافات والأساطير ، وتغلب عليه القيم المطبوعة بطابع مادي ، أو
المثلة فى شخوص وأوثان ١٩

ونعود إلى ربط الإله بالذهب بهارون بمصر (الفردوس المفقود) ، وما
لهذا كله من دلالات ذات أثر كبير فى الحياة اليهودية .

فإذا قال الشعب : (هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض
مصر) ، أحسنا بالحسرة واللوعة التى أصابت القوم حين اضطروا
للخروج ، كما تبين العبارة النشاط الإسرائيلى داخل مصر ، وفى كل بلد
يدخلونها .

ويعود موسى من لقاء الرب ، وحين أبصر هذا الانقلاب الذى أحدثه
هارون (حمى غضب موسى ، وطرح اللوحين من يديه ، وكسرهما فى
أسفل الجبل ، ثم أخذ العجل الذى صنعوا ، وأحرقه بالنار ، وطحنه حتى
صار ناعماً ، وذرّاه على وجه الماء ، وسقى بنى إسرائيل) - (خروج / ٣٢)

أراد موسى أن يحطم الرثنية ، فأجراها فى دمائهم ذرات ذهبية ، تصبح
نسيج أبدانهم ، وميراث أجيالهم ١١ .

هذا الفهم الخاص للعلاقة بين الشعب والرب هو الذى جعل من
(الرب) وسيلة لا غاية ، وأقدر الناس على اتخاذ الرب وسيلة هم الكهنة ،
وبدأ تاريخ الكهنة فى إسرائيل بهارون ، أول من صنع إلهاً من الذهب فى
إسرائيل ، من أجل هذا قال الرب لموسى :

(قَرِّب إليك هارون أخاك ، وبنيه معه ، من بين بنى إسرائيل ، ليكون
لى) - (خروج / ٢٨) .

ومن ثم تكون أول (تقدمه) للرب من (ذهب وفضة ونحاس
وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر محزى وجلود كباش محمرة وجلود
تخس ، وخشب سنط أوزيت للمنارة ، وأطياب لدهن المسحة ، وللبخور
العطر ، وحجارة جزع ، وحجارة ترصيع للرداء والصُّدرة) - (خروج /
٢٨) . حتى يصنعوا للرب (مقدساً ، لأسكن فى وسطهم) (١) .

هذا ، مع أن تعاليم الرب لموسى فى أول لقاء (لا تصنعوا معى آلهة

(١) لعل فكرة بناء بيت للرب مستقاة من معابد قدماء المصريين ، أو من الأساطير الأوجارية
التي تتحدث عن قصور الآلهة فتقول : هناك مسكن آيل ، ومأوى ييت / ومسكن السيدة أشيرة صاحبة
البحر / مسكن بدارى بنت الفضاء / ومأوى تلالى بنت المطر / ومسكن إرساى بنت يعبور / ومسكن
العرائس الشهيرات .

وهناك من يقول إن إنشاء بيت بعل الأسطوري كان طليعة لبناء هيكل (يهوه) التاريخي الأول
فى القدس .

تقول الأسطورة : اعلم يا بعل / إني آتيك بالبشائر / بيت لك سوف يبنى كاخوتك / بل وبلاط
كأقربائك / ادع .. إلى بيتك / ... وسط قصرك / حتى تأتيك الجبال بالفضة الكبيرة / والتلال
بأحسن الذهب / وتبنى بيتاً من الفضة والذهب / بيتاً من لاواهر اللازورد .

(أساطير العالم القديم - ص ١٧٩ / ١٨٢) .

فضة ، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب ، مذبحاً من تراب تصنع لى ، وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك ، غنمك وبقرتك فى كل الأماكن التى أصنع لاسمى ذكراً ، أتى إليك وأباركك ، وإن صنعت لى مذبحاً من حجارة فلا تبته منها منحوتة ، وإذا رفعت عليها أزميلك تدنسها ، ولا تصعد بدرج إلى مذبحى ، كى لا تنكشف عورتك عليه) - (خروج / ٢٠) .

صورة مبسطة ارتضاها الرب لعبادته ، وحذر من المغالاة فى المظاهر ، حتى لا تصبح هذه المنشآت أوثاناً ، ومن ثم اشترط أن تكون من (تراب) ، فإذا استخدمت الحجارة لا تكون منحوتة ، بل بصورتها الأولى ، لم يستخدم معها أزميل ، وإلا تدنست ، لأنها ستكون سبيلاً إلى الإعجاب بالتقدير فالإجلال فالوثنية ، فتتكشف عورة المتقرب إلى (الرب) ، لأن هذه المظاهر الكاذبة ستخدع صاحبها عن العبادة الحققة ، ستلهيه عن أفدس واجباته ، ألا يشرك بالله شيئاً .

ومع هذا الحرص الشديد من الرب ، يأبى كاتب سفر (خروج) إلا أن يرسم باسم الرب رسماً تفصيلياً للمقدس ، فى صورة (مشروع هندسى) معداً للتنفيذ :

(بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ، ومثال جميع أئنته ، هكذا تصنعون) .

(فيصنعون تابوتاً من خشب السنط ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وارتفاعه ذراع ونصف ، وتغشيه بذهب نقى ، من داخل ومن خارج تغشيه ، وتصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه ، وتسبك له أربع حلقات من ذهب ، وتجعلها على قوائم الأربعة ، على جانب الواحد حلقتان ، وعلى جانبه الثانى حلقتان ، وتصنع عصويه من خشب السنط ، وتغشيهما بذهب ، وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبي التابوت ، ليحمل التابوت بهما ، تبقى العصوان فى حلقات التابوت ، لاتنزعا منها ،

وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك) .

نلاحظ من هذا الوصف المطول أن التابوت لا يزيد على صندوق ، يوضع فيه لوحا الشهادة (الشريعة) ، وقاية لهما ، وكان بوسع (الرب) أن يؤكد صيانة اللوحين ، وعلى شعبه المختار أن يختار الطريقة التى تتناسب مع ظروف حياتهم ، كأن تحفظ التعاليم فى الصدور وترتل ، أو تكتب نسخ منها ، حتى يكون عهد الطباعة فتطبع آلاف النسخ وملايينها على الورق أو على الكاسيت ، وتبرمج فى (الحاسوب) .. لكن الكهانة أرادت شيئاً أو صنماً يلتفت حوله الشعب ، أو أرادت حقل تجارب لمعرفة إمكانيات الشعب ، وقدرته على الحركة داخل اقتصاديات الشعوب المستغلة ، لهذا لزم أن (تبقى العصوان فى حلقات التابوت ، لا تنزعان منها) ، رمزاً لحركة التابوت المستمرة ، ولحركة الشعب الدائمة .

(وتصنع غطاء من ذهب نقى ، طوله ذراعان ونصف ، وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كرويين من ذهب ، صنعة خراطة ، تصنعهما على طرفى الغطاء .. ويكون الكرويان باسطين أجنحتهما إلى فوق ، مظلمين بأجنتهما على الغطاء ، ووجهاهما كل واحد إلى الآخر) .

من وصف التابوت والغطاء نجد أن الرب كان مهتماً بأن يكون الإكليل والحلقات والغطاء والكرويان من ذهب نقى ، لأن حديث الرب سيكون (من على الغطاء من بين الكرويين) ، فلا بد وأن يكون (العرش) ذهبياً ، حتى يتناسب ومكانته (العلية) (١) !!

(وتصنع مائدة من خشب السنط ، طولها ذراعان ، وعرضها ذراع ، وارتفاعها ذراع ونصف ، وتغشيهما بذهب نقى ، وتصنع لها إكليلاً من

(١) يقول الدكتور فؤاد حسين على: فى نصوص قديمة لم يرد ذكر لهذه الطبقة الذهبية أو الحلقات والقوائم ، بمعنى أن مصالح الكهنة انتضت هذا الأمر ، حتى يظل الشعب مشدوداً إليه ، خاضعاً لهم ، وفعلًا ظل الإسرائيليون زمناً طويلاً يقدسون التابوت ، ويستعملونه مجلبة للخير .

(اليهودية واليهودية المسيحية - ص ٥٩ / ٦٠) .

ذهب حواليتها ، وتصنع لها حاجباً على شبر حواليتها ، وتصنع لحاجبها إكليلاً من ذهب حواليتها ، وتصنع لها أربع حلقات من ذهب ، وتجعل الحلقات على الزوايا الأربع التي لقوائمها الأربع ، عند الحاجب تكون الحلقات بيوتاً لعصوين لحمل المائدة ، وتصنع صحافها وصحونها وكاساتها وجاماتها التي يسكب بها من ذهب نقى تصنعها ، وتجعل على المائدة خبز الوجوه أمامي دائماً) .

(وتصنع منارة من ذهب نقى ، عمل الخراطة تصنع المنارة ، قاعدتها وساقها ، تكون كاساتها وعجرها وأزهارها منها ، وست شعب خارجة من جانبها ، من جانب الواحد ثلاث شعب منارة ، فى الشعبة الواحدة ثلاث كاسات لوزية بعجرة وزهر ، وفن المنارة أربع كاسات لوزية بعجرها وأزهارها ، وتحت كل شعبتين منها عجرة ، تكون عجرها وشعبها منها ، جميعها خراطة واحدة ، من ذهب نقى ، وتصنع سرجها سبعة ، فتصعد سراجها لتضى إلى مقابلها ، وملاقطها ومنافضها من ذهب نقى ، من وزنة ذهب نقى تصنع من جميع هذه الأواني ، وانظر ما صنعها على مثالها (الذى أظهر لك فى الجبل) .

يقف القارئ بعد هذا يتساءل : من أين هذا الذهب كله ، وقد جمعه هارون فى العجل الذهبى الذى أحرق فصار رماداً فشراباً ١٢ وإذا كان الله قد صنع صورة لهذا كله فلماذا لم يقدمها هدية إلى شعبه المختار ، ويعفيه من هذا الابتزاز الكهنوتى الذهبى الرهيب ١٢

لكن يبدو أن سياسة الرب سياسة مستقبلية ، فهو يضع أسس المذاهب الاقتصادية التى ستنبثق فى صورة إلهام من العقلية اليهودية ، فتركيز الثروة فى يد (اللاويين) يعنى سيطرة الطبقة أو السياسة الرأسمالية ، وأن تتجمع الثروة فى يد المشرعين ، يعنى عدم الملكية الفردية ، أو السياسة الشيوعية ، وتتجلى السياسة الاشتراكية فيما سيعرضه - بعد بناء (المسكن) - من ألوان الضرائب الباهظة التى تثقل كاهل الشعب .

(أما المسكن فتصنعه من عشر شقق بوض مبروم وأسمانجوني وأرجوان وقرمز بكرويم ، صنعة حائك حاذق تصنعها ، طول الشقة الواحدة ثمان وعشرون ذراعاً ، وعرض الشقة الواحدة أربع أذرع ، قياساً واحداً لجميع الشقق ، تكون خمس من الشقق بعضها موصول ببعض ، وخمس شقق بعضها موصول ببعض ، وتصنع عرى من أسمانجوني ، على حاشية الشقة الواحدة ، فى الطرف الموصول الواحد .. خمسين عروة تصنع فى الشقة الواحدة ... تكون العرى بعضها مقابل لبعض وتصنع خمسين شظائلاً من ذهب ، وتصل الشقتين بعضهما ببعض بالأشظة ، فيصير المسكن واحداً) .

(وتصنع شققاً من شعر معزى خيمة على المسكن ، إحدى عشرة شقة تصنعها ، طول الشقة الواحدة ثلاثون ذراعاً ، وعرض الشقة الواحدة أربع أذرع .. وتصل خمساً من الشقق وحدها ، وستاً من الشقق وحدها ، وتثنى الشقة السادسة فى وجه الخيمة ، وتصنع خمسين عروة على حاشية الشقة الواحدة الطرفية من الموصول الواحد .. وتصنع خمسين شظائلاً من نحاس ، وتدخل الأشظة فى العرى ، وتصل الخيمة ، فتصير واحدة ، وأما المدلى من الفاضل من شقق الخيمة .. فيدلى على مؤخر المسكن ، والذراع من هنا والذراع من هناك ، من الفاضل فى طول شقق الخيمة ، تكونان مدلاتين على جانبي المسكن من هنا ومن هناك لتغطيته ، وتصنع غطاء للخيمة من جلود كباش محمّرة ، وغطاء من جلد تخس من فوق) .

(وتصنع الألواح للمسكن من خشب السنط قائمة ، طول اللوح عشر أذراع ، وعرض اللوح ذراع ونصف ، وللوح الواحد رجلان مقرونة إحداهما بالأخرى ، هكذا تصنع لجميع ألواح المسكن ، وتصنع الألواح للمسكن عشرين لوحاً إلى جهة الجنوب نحو التيمن ، وتصنع أربعين قاعدة من فضة ، تحت العشرين لوحاً ، تحت اللوح الواحد قاعدتان لرجليه ، ولجانبي المسكن الثانى إلى جهة الشمال عشرين لوحاً ، وأربعين قاعدة لها من

فضة ، تحت اللوح الواحد قاعدتان ، ولؤخر المسكن نحو الغرب تصنع ستة ألواح ، وتصنع لوحين لزاويتي المسكن فى المؤخرة ويكونان مزدوجين من أسفل ، وعلى سواء يكونان مزدوجين إلى رأسه إلى الحلقة الواحدة ، هكذا يكون لكليهما ، يكونان للزاويتين ، فتكون ثمانية ألواح وقواعدها من فضة ، ست عشرة قاعدة ، تحت اللوح الواحد قاعدتان .

(وتصنع عوارض من خشب السنت ، خمساً لألواح جانب المسكن الواحد .. وخمس عوارض لألواح جانب المسكن فى المؤخر نحو الغرب ، والعارضة الوسطى فى وسط الألواح تنفذ من الطرف إلى الطرف ، وتغشى الألواح بذهب ، وتصنع حلقاتها من ذهب ييوتا للعوارض ، وتغشى العوارض بذهب .

(وتصنع حجاباً من أسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص ميروم ، صنعة حائك حاذق يصنعه بكرويم ، وتجعله على أربع أعمدة من سنت مغشاة بذهب ، رززا من ذهب ، على أربعة قواعد من فضة ، وتجعل الحجاب تحت الأشرطة ، وتدخل إلى هناك داخل الحجاب تابوت الشهادة ، فينفصل لكم الحجاب بين القدس وقُدس الأقداس ، وتجعل الغطاء على تابوت الشهادة فى قدس الأقداس ، وتضع المائدة خارج الحجاب ، والمنارة مقابل المائدة ، على جانب المسكن نحو التيمن ، وتجعل المائدة نحو الشمال .

(وتصنع سجفاً للدخل الخيمة من أسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص ميروم صنعة الطراز ، وتصنع للسجف خمسة أعمدة من سنت ، وتغشيتها بذهب ، رززا من ذهب ، وتسبك لها خمس قواعد من نحاس .

(وتصنع المذبح من خشب السنت ، طوله خمس أذرع ، وعرضه خمس أذرع ، وارتفاعه ثلاث أذرع ، وتصنع قرونه على زواياه الأربع ، منه تكون قرون ، وتغشيه بنحاس ، وتصنع قدوره لرفع رماده ورفوشه ، ومراكبه

ومناشله ومجارمه ، وجميع آنيته تصنعها من نحاس ، وتصنع له شباكه ، صنعة الشبكة من نحاس ، وتصنع على الشبكة أربع حلقات من نحاس على أربعة أطرافه ، وتجعلها تحت حاجب المذبح من أسفل ، وتكون الشبكة إلى نصف المذبح ، وتصنع عصوين للمذبح ، عصوين من خشب السنت ، وتغشيهما بنحاس ، وتدخل عصواه فى الحلقات .

(وتصنع دار المسكن إلى جهة الجنوب ، نحو التيمن ، للدار أستار من بوص ميروم ، مائة ذراع طولاً إلى الجهة الواحدة ، وأعمدتها عشرون وقواعدها عشرون من نحاس ، رزز الأعمدة وقضبانها من فضة ، وفى عرض الدار إلى جهة الغرب ، وإلى جهة الشرق ، أستار خمسون ذراعاً ، أعمدتها عشرة ، وقواعدها عشر .. وخمس عشرة ذراعاً من الأستار للجانب الواحد ، أعمدتها ثلاثة ، وقواعدها ثلاث ، ولباب الدار سجف عشرون ذراعاً . من أسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص ميروم صنعة الطراز ، أعمدتها أربعة ، وقواعدها أربع ، لكل أعمدة الدار حواليتها قضبان من فضة ، رززا من فضة ، وقواعدها من نحاس ، طول الدار مائة ذراع ، وعرضها خمسون فخمسون ، وارتفاعها خمس أذرع من بوص ميروم ، وقواعدها من نحاس ، جميع أواني المسكن فى خدمته ، وجميع أوتاده وجميع أوتاد الدار من نحاس) - (خروج ٢٥ / ٢٦ و ٢٧ - مع اختصار محدود) .

إلى هذا الحد بلغ اهتمام (الرب) بشعبه ، أو قل ببيته ، وسط هذا (الشعب) ، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وحدد مقاييسها ومادتها وطريقة صنعها ، وارتباطها بغيرها .. ولم يكتف بهذا ، بل صنع بيتاً فى الجيل ، لينقل موسى صورة على مثاله ، (كما ظهر لك فى الجبل هكذا يصنعونه) .

وزاد (الرب) ، فدعا (بصلئيل بن أوري بن حور من سبط يهوذا باسمه ، وملائته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ، لا اختراع مخترعات ، ليعمل في الذهب والفضة والنحاس ، ونقش حجارة للترصيع ونجارة الخشب ، ليعمل في كل صنعة ، وهأنأ جعلت معه أهوليا بن أخيسا ماك من سبط دان ، وفي قلب كل حكيم القلب جعلت حكمة ليصنعوا كل ما أمرتك) - (خروج / ٣١) .

تحت قيادة مهندس إنشائي وآخر تنفيذي تشكلت هيئة من (الحكماء) الفنيين لصناعة بيت يمكن نقله مع (الشعب) الذي لم يستقر به المقام بعد ، وتبعاً للأحداث المريرة والحروب الكثيرة التي خاضها لم يكن يستطيع أن يحدد البناء .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : جاء في الخبر الصادق أن داود فكر في إقامة معبد ليهوه في عاصمة ملكه ، وعاصمة أسرته ، أورشليم ، حتى يكون هذا المعبد عاملاً من عوامل اتحاد الأمة ، وجمع شمل البلاد ، إلا أن معارضة بعض المحافظين من رجال الدين - وعلى رأسهم النبي ناثان - عرقلت تنفيذ الفكرة (١) .

فلما كان عهد سليمان ، حيث (لا يوجد خصم ، ولا حادثة شر) ، واتسعت إمكانيات (الشعب) بأموال غنموها ، ومزارع أبادوا أصحابها - نهياً سليمان لبناء البيت ، فسخر ثلاثين ألف رجل يساعدون عبيد (حيرام) ملك (صور) في قطع أخشاب الأرز والسرور ، وثمانين ألفاً يقطعون حجارة كريمة مرّعة في الجبل ، وسبعين ألفاً يحملون الأخشاب والحجارة ، (ما عدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين على العمل ثلاثة آلاف ، وثلاثمائة المتسلطين على الشعب العاملين العمل) ، واجتمع بناءو حيرام وبناءو سليمان والجبليون (وهيئوا الأخشاب والحجارة لبناء

(١) اليهودية واليهودية المسيحية - ص ٦٠ .

البيت ، وعلى صورة بيت الرب الذي أشرف على تنفيذه (موسى) أعاد سليمان بناء البيت .

(ومضت سبع سنوات ، والعمل في تشييده على قدم وساق ، ليكون مقراً فخماً ليهوه ، مدى أربعة قرون ، ثم واصل مهرة الصنائع والفعلة - العمل ثلاثة عشر عاماً أخرى ، ليشيدوا صروحاً أكبر من الهيكل ، يسكن فيها سليمان ونساؤه) (١) .

وبسبب هذه التكاليف الباهظة ، ومقابل خدمات (حيرام) قدم سليمان كثيراً من الجيوب والزيت لصور ، كما تنازل عن جزء من مملكته لصور كذلك (٢) .

ووصف المعبد - كما جاء في العهد القديم - يذكر بوصف المعبد المصري ، خاصة ذلك النوع الذي وجد في تل العمارنة بصعيد مصر ، أي في الوقت الذي لليهود فيه شأن ، إذا صح أن موسى كان على ديانة أختاتون ، وإن كانت أطوال المعبد - كما يقول ويلز (Wells) - تمكّن من (وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي) ، وكما يقول جوستاف لويون : إنه (بناء أقيم على الطراز الآشوري المصري) ، ويزيد أن (قصور سليمان لم تكن غير نسخ رديئة للقصور المصرية أو الآشورية (٣)) ويضيف ول ديورانت : أنه كان في نصف طول البارثنون ، وكان العبرانيون يعتقدون أنه إحدى عجائب العالم ، لأنهم لم يروا هياكل طيبة وبابل ونيوى التي لا يعد هيكلهم إلى جانبها شيئاً مذكوراً .. ومن هنا كانت مبالغات (الكاتب) في أرقامه التي تنهض ببناء مدينة لا مجيد .

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ح ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) يقول ول ديورانت : (هذا الصرح الضخم لم يبق منه حجر واحد ، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق) - قصة الحضارة - مج ١ - ح ٢ ص ٣٣٦ - وهذا يسقط دعوى حائط المبكى .

(٣) اليهودية - ٨١ .

وإلى هذا الوقت (لم يكن في الثابوت إلا لوحا الحجر اللذان وضعهما موسى هناك في حوريب ، حين عاهد الرب بنى إسرائيل عند خروجهم من أرض مصر) - (الملوك الأول ٨ / ٥) .

خرب نبوخذ نصر ما بنى سليمان ، وقضى على وجود إسرائيل في أرض كنعان سنة ٥٨٦ ق . م ثم استولى قورش ملك فارس على بابل ، وفك أسر بنى إسرائيل ، فأخذ الرب (حزقيال) ، وصعد به على جبل عال جداً ، و (إذا برجل منظره كمنظر النحاس ، وبیده خيط كتان وقصبة القياس ، وهو واقف بالباب ، فقال لى الرجل : يا بن آدم ، انظر بعينيك ، واسمع بأذنيك ، واجعل قلبك إلى كل ما أريكه ، لأنه لأجل إرادتك أتى بك إلى هنا ، أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى) .

ومضى به الرجل يقيس السور خارج البيت ، ويرسم أبواب ورواق الباب وغرفات الباب ، ثم أتى إلى الدار الخارجية ومخادعها وأبوابها وغرفها وكواها وقببها ونخيلها ، ثم الدار الداخلية وغرفاتها وأروقة أبوابها وموائدها ومخادعها ، والهيكل وعضائده وقوائمه ، والبيت وغرفاته ومخادعه وكواه وعتباته وأساطينه وكروبيمه ونخيله ، والمذبح بكل تفصيلاته ، واشترط أن تكون (المخادع العليا أقصر ، لأن الأساطين أكلت من هذه ، من أسافل البناء ومن أواسطه ، لأنها ثلاث طبقات ، ولم يكن لها أعمدة كأعمدة الدور ، لذلك تضيق من الأسافل ومن الأواسط من الأرض) .

وبلاحظ أن بيت حزقيال أكبر كثيراً من البيت الذى بناه سليمان ، فبيت سليمان (طوله ستون ذراعاً ، وعرضه عشرون ذراعاً) ، على حين أن سور بيت حزقيال بلغ خمسمائة قصبة طولاً وعرضاً ، و (قصبة القياس ست أذرع طولاً بالذراع وشبر) .

كما يبدو اهتمام الرب ببيت حزقيال ، إذ اتخذ له من البيت مقاماً :

(يا بن آدم ، هذا مكان كرسي ومكان باطن قدمي ، حيث أسكن وسط بنى إسرائيل إلى الأبد) - (حزقيال ٤٠ / ٤٣) .

وإذا كان الرب قد اهتم ببيته هذا الاهتمام ، فإن عنايته بالقوامين على هذا البيت وبخدامه تبدو واضحة من خلال الأوصاف التى تتمثل فيهم ، والملابس التى يتحلون بها ، والحقوق التى كفلها لهم .

وفى هذا يقول الرب لهارون :

(إذا كان رجل من نسلك ، فى أجيالهم ، فيه عيب ، فلا يتقدم ليقرّب خبز إلهه ، لا رجل أعمى ، ولا أعرج ، ولا أفطس ، ولا زوائد ، ولا رجل فيه كسر رجل ، أو كسر يد ، ولا أحدث ، ولا أكثم ، ولا فى عينه بياض ، ولا أجرب ، ولا أكلف ، ولا مرضوض الخصى ، لئلا يدنس مقدسى) - (لاويين ٢١ / ٢١) .

وأوصى الرب موسى : أن (اصنع ثياباً مقدسة لهارون أخيك ، للمجد والبهاء) ، وهذه الثياب التى يصنعها (حكماء القلوب الذين ملأتهم روح حكمة .. صدره ورداء وجبة وقميص مخرم وعمامة ومنطقة) .

(فيصنعون الرداء من ذهب وأسماء نجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم ، صنعة حائك حاذق ، يكون له كتفان موصولان فى طرفيه ليتصل ، وزنار شدة الذى عليه يكون منه كصنعتة ، من ذهب وأسماء نجونى وقرمز وبوص مبروم ، وتأخذ حجرى جزع ، وتنقش عليها أسماء بنى إسرائيل ، مشة من أسمائهم على الحجر الواحد .. حسب مواليدهم .. محاطين بطوقين من ذهب .. وتضع الحجرين على كتفى الرداء ، حجرى تذكار لبنى إسرائيل ، فيحول هارون أسماءهم أمام الرب على كتفيه للتذكار ، وتضع طوقين من ذهب ، وسلسلتين من ذهب نقى ، مجدولين

تصنعهما صنعة الضفائر ، وتجعل سلسلتى الضفائر فى الطوقين) .

(وتصنع صدره قضاء ، صنعة حائك حاذق كصناعة الرداء تصنعها ، من ذهب وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص مبروم تصنعها ، تكون مربعة مثنية ، طولها شبر ، وعرضها شبر ، وترصع فيها ترصيع حجر ، أربعة صفوف حجارة ، صف عقيق أحمر وياقوت أصفر وزمرد ، الصف الأول ، والصف الثانى بهرمان وياقوت أزرق وعقيق أبيض ، والصف الثالث عين الهر ويشم وجمشث ، والصف الرابع زبرجد وجزع ويشب ، تكون مطوقة بذهب فى ترصيعها ، وتكون الحجارة على أسماء بنى إسرائيل ، اثنى عشر على أسمائهم ، كنقش الخاتم ، كل واحد على اسمه) .

(وتصنع على الصدر سلاسل مجدولة ، صنعة الضفائر من ذهب نقى ، وتصنع على الصدر حلقنتين من ذهب وتجعل الحلقنتين على طرفى الصدر ، وتجعل طرفى الضفيرتين الآخرين فى الطوقين ، وتجعلهما على كتفى الرداء إلى قدامه ، وتصنع حلقنتين من ذهب ، وتضعهما على طرفى الصدر ، على حاشيتها التى إلى جهة الرداء من داخل ، وتصنع حلقنتين من ذهب ، وتجعلها على كتفى الرداء من أسفل من قدامه ، عند وصله من فوق زنار الرداء ، ويربطون الصدر بحلقتيها إلى حلقتى الرداء بخيط من أسمانجونى ، لتكون على زنار الرداء ، ولا تنزع الصدر عن الرداء ، فيحمل هارون أسماء بنى إسرائيل فى صدره القضاء على قلبه عند الدخول إلى القدس ، للتذكارة أمام الرب دائماً ، وتجعل فى صدره القضاء الأوريم والتيميم ، لتكون على قلب هارون عند دخوله أمام الرب) .

(وتصنع جبة الرداء كلها من أسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ، ويكون لفتحتها حاشية حواليتها صنعة الحائك ، كفتحة الدرع يكون لها ، لا تشق ، وتصنع على أذيالها رمانات من أسمانجونى وأرجوان وقرمز ، على أذيالها حواليتها ، وجلالجل من ذهب بينها حواليتها ، جلجل

ذهب ، ورمانة جلجل ذهب ، ورمانة على أذيال الجبة حواليتها ، فتكون على هارون للخدمة ، لسمع صوتها عند دخوله إلى القدس أمام الرب ، وعند خروجه ، لكلا يموت) .

(وتصنع صفيحة من ذهب نقى ، وتنقش عليها نقش خاتم قدس للرب ، وتضعها على خيط أسمانجونى ، لتكون على العمامة ، إلى قدام العمامة تكون ، فتكون على جبهة هارون ، فيحمل هارون إثم الأقداس التى يقدها بنو إسرائيل ، جميع عطايا أقداسهم ، وتكون على جبهته دائماً للرضى عنهم أمام الرب ، وتحزم القميص من بوص ، وتصنع العمامة من بوص ، والمنطقة تصنعها صنعة الطراز) .

ولم ينس الرب الأعظم ما ينبغى أن يليه بنو هارون :

(لبنى هارون تصنع أقمصه ، وتصنع لهم مناطق ، وتصنع لهم قلانس ، للمجد والبهاء) .

وسكت عن وصف هذه الملابس ، لتأخذ نفس أوصاف ملابس أيهم ، وبخاصة أنه أتبع ذكر ملابس الأبناء بقوله : (وتليس هارون أخاك إياها ، وبنيه معه ، وتمسحهم ، وتملاً أياديهم ، وتقدمهم ليكهنوا لى ، وتصنع لهم سراويل من كتان لستر العورة ، من الحقوين إلى الفخذين تكون ، فتكون على هارون وبنيه عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع ، أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة فى القدس ، لكلا يحملوا إثمهم ويموتوا ، فريضة أبدية له ولنسله من بعده) - (خروج ٢٨ / ٢٨) .

يَحَارُّ الْمَرْءُ - دُونَ شَيْءٍ - فَيُتَكَالِفُ هَذِهِ الثِّيَابَ أَكْثَرَ مِنْ حَيْرَتِهِ فَيُؤْصَفُهَا .

هذا الذهب ، وهذه الحجارة الكريمة كلها ، ممن ١٩ من شعب ضائع

فى الصحراء ١٩ من أجل المثل بين يدى الرب ١٩ أى رب هذا الذى يستولى على كل ما يملك شعبه ، ليصنع ثياب أسرة لا شرف لها إلا الانتساب إلى موسى الرسول ، وإلى أخيه هارون ، ويجعل هذا كله فى بيتها ومائل ترف وخداع ، بحسبان أن البيت بيت الرب ، ولا بد أن يتناسب المكان مع جلاله وعزته وكبريائه ، هذا الرب الذى يحتاج إلى أن يلبس من يدخل عليه رمانات وجلال تجلج صوئاً ، حتى لا يفاجأ متلبساً بما لا ينبغى ، فيغضب ، وتكون النتيجة موت من انكشف له مالا ينبغى أن يرى ١١ .

لكن جيمس فريزر يرى أن صليل الأجراس المقدسة كان - فى اعتقادهم - يطرد الأرواح الشريرة الحاسدة التى تقبع عند باب المكان المقدس^(١) ، على أن استخدام الأجراس والطبول بقصد طرد الأرواح الشريرة كان مألوفاً عند كثير من الشعوب^(٢) ، ومن أهم ما يميز الكهنة والأنبياء والأطباء فى أفريقييا حملهم للأجراس ، أو ارتداؤهم لها فى أثناء احتفالاتهم المقدسة التى تهدف إلى طرد الشياطين ، أو الشفاء من الأمراض ، أو استقبال الوحي الإلهي^(٣) ، بل إن بعض الشعوب كانت تعتقد فى أن صليل الأجراس كان يهدف إلى اجتذاب الأرواح الطيبة ، وليس إلى طرد الأرواح الشريرة فحسب^(٤) .

وهذا التعليل لا ينطبق على الحالة الواردة فى (العهد القديم) ، لأن ما أورده فريزر إنما هو من وحي الانفعالات الشعبية ، كالزار اليوم ، وليس (أمر إلهي) لا مجال معه إلى تأويل .

ثم إننا نمضى فى تساؤلنا : هل يكفي أن تسجل أسماء الأسباط على حجارة الصدر لينساق الجميع وراء هذا الشرف العظيم ١٩ . هل يظل هذا

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) الفرلكلور فى العهد القديم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٢ - ج ١ ص ٢٢٨ و ٢٤٤ و ٢٥٥ و ٢٥٦ بالترتيب .

الشعب أسير هذه الترهات أبد الدهر ، من أجل مغفرة آثامه ، ونيل مرضاة الرب ١٩ .

أليس هذا الشعب لا يؤمن بالآخرة ، والشرعة المدونة فى لوحى التابوت لا تحمل إشارة إلى ثواب أو عقاب بعد الموت ١٩ .

ماذا يدفع (الشعب) . إذا إلى أن يجوع ويعرى من أجل أن يأكل الكهنة والقادة فى صحائف من ذهب ١٩ أهو ذلك الوهم الكاذب الذى ربط بين الشعب والرب ، والدجل الطويل الذى ألقى فى قلوب هؤلاء القوم الرعب والفزع من المجهول ، والسخط والحقد على كل الشعوب ، والأمل الخادع فى مملكة الرب التى تسيطر على العالم فى يوم ، أى يوم ١٩ .

ألا يكون هذا مجرد انعكاس لماضي عريق انغرست جذوره فى نفوس هؤلاء القوم شوقاً وحنيناً ، بعد ما ضربتهم سنوات التيه بالحرمان واليأس والانطلاق خلف السراب ١٩ .

حين نقرأ عن دور (الذهب) فى حياة المعابد المصرية القديمة لا يسهل علينا أن نفعل أثر حياة كهنة مصر فى كهنة أورشليم . يقول أدولف إرمان فى كتابه (ديانة مصر القديمة) ص ٢٢٠ وما بعدها :

كانت أعمدة المعابد وإطارات الأبواب تلمع بالذهب ، بل إن الأرض كانت تكفّت فى بعض الجهات المقدسة بالذهب أو الفضة .. وكانت اللوحات الكبيرة من الحجر تزين كذلك بالذهب ، وتزخرف علاوة على ذلك بحلى الذهب السورى ، وهى تستقر فوق قواعد مكفّنة بالفضة وحلى ذهبية ، حتى لتكاد الأرض تنطوى تحتها .. ويتألق داخل المعبد كذلك بكل الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة (التى يغمر مصر ضوئها ، كما تفعل النجوم تحت بطن السماء) .

ويضع رمسيس الثانى فى الحوش الخارجى لمعبد أمون حاملاً كبيراً لجرة مزينة بالذهب والأحجار الكريمة ، وأما الأواني فمصنوعة من الذهب ،

وهي تحوى النيذ والجمعة لتقدمة الصباح .

ويقدم نفس الملك هدية إلى المعبد مائدة قربان من الفضة ، وإناء كبيراً من الفضة مغطى بغطاء من الفضة ، له حافة ذهبية .

كما يقدم إلى أمون لوحات ذهبية صغيرة تحوى أدعية ، وأخرى من الفضة خاصة بأوامر المعبد ، وعدداً كبيراً من اللوحات الفضية بها مراسيم وكشوف محتويات المعبد .

وكانت المعابد فى مدينة هابو مزينة فى عهده بتمائيل تتألق بأحجار كريمة ، وكانت تماثيل آلهة منفيس وتاسوع آلهة السماء والأرض مصنوعة من الذهب الخالص ، ومحلاة بالأحجار الكريمة ، وأعيد صنع تماثيل موت وخونسو من جديد فى بيوت الذهب ، ثم حُلِيت بالأحجار الكريمة ، وألبست عقوداً من الذهب تتدلى من أمام ومن خلف بدلايات من الذهب السورى .

وكان قارب أمون من خشب الأرز ، وطوله ١٣٠ ذراعاً ، وكان مغطى بالذهب الخالص ، وكان محرابه من الذهب النقى ، مزيناً بكل أنواع الحجارة الثمينة .

وكان ما يقدم للإله وما يأكله المشتركون فى الحفل يتضمن وجبات حقيقية من الخبز الجيد واللحم والكعك والرقاق ، ويكون ذلك مكمّواً فى سلال مختلفة الأشكال تتفق ومقام المختلفين ، وكانوا يحتاجون كل عام إلى خمس عشرة سلة احتفالية ، وأكثر من خمس وثلاثين سلة ذهبية ، وحوالى ٣٦٥ سلة طعام ، علاوة على ١٢٠ كأساً للأمرء .

كان هذا البذخ والإسراف الذهبى فى عصر (الخروج) اليهودى من مصر ، فى عصر الانتصارات المصرية فى آسيا وأفريقيا ، فلا عجب أن تنطبع نفوس (الخارجيين) المطاريد بوهم استعادة الوجود المصرى فى حيثما يجتدون القدرة على الابتزاز والنهب ، وفرض سلطان مستبد بغيض .

وحين نعرف أن فترة الأسر ببابل كانت فترة نشاط كتيبة التوراة والتلمود ، صح أن نقول إن هؤلاء الكتيبة تأثروا كذلك بما كان عليه كهنة بابل ، إذ كان الملوك والأثرياء - والدولة مزهوة بانتصاراتها وغنائمها - يعبرون للآلهة عن شعور بالامتنان والحمد ، ويطلبون مزيداً من الانتصارات والغنائم ، ومن ثم شادوا الهياكل ، وأمدوها بالأثاث والطعام والعبيد ، ووقفوا عليها مساحات واسعة من الأرض ، وخصبوها بقسط وافر من إيرادات الدولة فى كل عام ، كما كان أول سهم من غنائم الحرب للآلهة ، وإذا أصاب الملك مغنماً قدمت الهدايا العظيمة قرابين ، وكان يفرض على بعض الأراضى الزراعية ضريبة سنوية من التمر والحبوب والفاكهة ، فإذا لم تؤدها نزع ملكيتها لصالح الهياكل ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يخصصون الهياكل بقدر من أرباحهم .. وبهذا تكسب فى خزائن الهياكل الذهب والفضة والنحاس واللازورد والجواهر والأخشاب النفيسة ، وأصبح الكهنة أعظم القوامين على الشؤون الزراعية والصناعية والمالية ، وكانوا يملكون مساحات واسعة من الأرض وأعداداً غفيرة من العبيد ، كما كان الكهنة أعظم تجار بابل ، وقد عهد إليهم الكثيرون استثمار أموالهم لتفوقهم فى الحصول على أرباح كبيرة ^(١) .

* * *

لننظر فى هذه الالتزامات التى فرضها الكهنة على هؤلاء (الأشقياء) باسم الرب ، وتكررت بصورة أو بأخرى فى معظم الأسفار ، حتى تنغرس فى قلوبهم ، وتسرى فى دمايهم مسرى إله الذهب الذى سقاهاهم موسى ترابه .

يتحدث سفر لاويين (الكهنة) عن القرابين من الفطير والرقاق ، وما هو على الصاج ، وفى الطاجن ، والفريك المشوى بالنار ، والذبايح من البقر

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ من ٢١١ / ٢١٢ .

والغنم والماعز ، ومن أخطأ فعليه ثور صحيح (للرب ذبيحة خطية) ، ومن أخطأ بسهو ، ثم أعلم بخطيته (يأتي قربان تيساً من المعز ذكراً صحيحاً) ، فإن كان من عامة الأرض (يأتي قربان عنزاً من المعز أنثى صحيحة) - (لاويين / ٤ / ١) - وبهذا يكفر عنه الكاهن ، ويصفح الرب . و (ذبيحة الإثم كذبيحة الخطية ، لهما شريعة واحدة ، الكاهن الذى يكفر بها تكون له ، والكاهن الذى يقرب محرقة إنسان فجلد المحرقة التى يقربها يكون له ، وكل تقدمه خبزت فى التنور ، وكل ما عمل فى طاجن أو على صاج يكون للكاهن الذى يقرب ، وكل تقدمه ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بنى هارون ، كل إنسان كأخيه) .

وهذه شريعة ذبائح السلامة التى يقربها للرب :

إن قربها لأجل الشكر يقرب على ذبيحة الشكر أقراص فطير ملتوتة بزيت ورقاق وفطير مدهونة بزيت ، ودقيقاً مربوكاً أقراصاً ملتوتة بزيت ، مع أقراص خبز خمير يقرب قربانه على ذبيحة شكر سلامته ، ويقرب منه واحداً من كل قربان رفيعة للرب ، يكون للكاهن الذى يرش دم ذبيحة السلامة ، ولحم ذبيحة شكر سلامته ، يؤكل كل يوم قربانه ، ولا يبقى منه شيئاً إلى الصباح .

وإن كانت ذبيحة قربانه نذراً أو نافلة ففى يوم تقريبه ذبيحته تؤكل ، وفى الغد يؤكل ما فضل منها ، وأما الفاضل من لحم الذبيحة فى اليوم الثالث فيحرق بالنار - إذ لم تكن الشلاجات اخترعت ، وحتى لا يذوق الفقراء طعمها فتتسع أفواههم - ويكون الصدر لهارون وبنيه .. فريضة دهرية من بنى إسرائيل - (لاويين / ٧) .

(وكل إنسان من بيت إسرائيل يذبح بقرراً أو غنماً أو معزى فى المحلة ، أو يذبح خارج المحلة ، وإلى باب خيمة الاجتماع لا يأتي به ليقرب قرباناً للرب ، أمام مسكن الرب - يحسب على ذلك الإنسان دم ، قد سفك دماً

فيقطع ذلك الإنسان من شعبه .. فريضة دهرية تكون هذه لهم فى أجيالهم) - (لاويين / ١٧) .

ولم يكتف رب موسى بهذا ، بل أوصى بنى إسرائيل بأن (قربانى طعامى مع وقائدى رائحة سرور ، تحرصون أن تقدموه فى وقته .. وقل لهم : هذا الوقود الذى تقربون للرب خروفاً حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة .. وفى يوم السبت خروفاً حوليان صحيحان وعشران من دقيق ملتوت بزيت ، تقدمه مع سكبیه .. وفى رءوس شهوركم تقربون محرقة للرب ثورين ابني بقر ، وكبشاً واحداً ، وسبعة خراف حولية صحيحة ، وثلاثة أعشار من دقيق ملتوت بزيت تقدمه لكل ثور ، وعشرين من دقيق ملتوت بزيت تقدمه لكل كبش الواحد ، وعشرأ واحداً من دقيق ملتوت بزيت تقدمه لكل خروف ، وسكائبهن تكون نصف الهين للثور ، وثلاث الهين للكبش ، وربع الهين للخروف ، من خمر .. وفى الشهر الأول فى اليوم الرابع عشر من الشهر فصح للرب ، وفى اليوم الخامس عشر من هذا الشهر عيد ، سبعة أيام يؤكل فطير) - (عدد / ٢٨) .

وتستمر المحافل المقدسة والقربان فى أيام محددة واجبة الالتزام على مر العام ، فريضة دهرية - (عدد / ٢٨ / ٢٩) .

يذكر الباحثون أن تقديم القربان كان مرحلة من مراحل الرقى عند اليهود ، فقد كانوا من قبل يلجئون للسحرة والعرافين ، لكن الكهنة قاوموا هذا الاتجاه فيهم ، ودعوا الناس ألا يعتمدوا إلا على قوة واحدة ، هى قوة القربان والصلوات والتبرعات ، وكان المعتقد أن القربان تكفر ذنوب الناس وتمحو خطاياهم إذا باركتها يد الكاهن .

ولعل التقاليد المصرية والبابلية فى تقديم القربان كانت ذات أثر كبير على الفكر اليهودى ، فقد كان (تقرب القربان من الطقوس المعقدة التى

تتطلب خدمات كاهن خبير بشعونها ، وكانت التقاليد المتوارثة تقرر كل عمل يعمل ، وكل لفظ يقال .. وكان الدين عند البابليين يعنى بالمراسيم الصحيحة أكثر مما يعنى بالحياة الصالحة (١) ، وهو ما صار إليه طابع الحياة الدينية اليهودية إلى اليوم ، ولم تكن التقاليد البابلية بدعاً فى هذا الأمر ، بل كان الشرق كله خاضعاً لهؤلاء (المهرة) الذين استغلوا - ولا يزالون - الطاقة الروحية فى الإنسان استغلالاً مادياً ، حتى صارت المؤسسات الدينية أغنى المؤسسات ، وما أخبار دولة (الفاتيكان) ببعيدة .

ورد فى الأساطير الأوجارتية بعد ما بنى بيت بعل :

وعندئذ نادى بعل البناء الإلهى .
بعد أن وصل كوثرار وخاسيس .
وضع ثوراً بين يديه .
وذبح سميناً وسط المحضرة .
وأقيم عرس ليجلس .
على يمين إيلان بعل .
حتى أكل وشرب (٢) .

ونقرأ فى أعمال هوميروس أنه عندما عقد الإغريق والطرواديون هدنة فيما بينهم ذبحت الأغنام ، وسكب أجاممنون عليها الخمر ، وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة ، بينما كان الفريقان يدعوان على من ينقض الهدنة أن يهشم رأسه ، ويسيل مخه ، كما تسيل هذه الخمر على الأرض .

(١) قصة الحضارة مج ١ - ج ٢ ص ٢٢٢ / ٢٢٣ .

(٢) أساطير العالم القديم - ص ١٨٢ .

وهذا يؤكد العلاقة القديمة بين القوى المادية والقوى الروحية ، واستغلال القوى الروحية من أجل مكاسب مادية .

ولم يكتف الكهنة بهذه القرابين ، ففرضوا (كل عشر الأرض من حبوب الأرض وأثمار الشجر فهو للرب ، قدس للرب ، وإن فك إنسان بعض عشره يزيد خمسه عليه ، وأما كل عشر للبقر والغنم فكل ما يعبر تحت العصا يكون العاشر قدساً للرب ، ولا يفحص أجيد هو أم ردىء ، ولا يبدله ، وإن أبدله يكون هو وبديله قدساً لا يفك) - (لاوين ٢٧ /) .

ومن الغنائم يوجد واحد فى المائة زكاة للرب ، من البقر والغنم والحمير ، غير ربيعة الرب نفس من كل خمسمائة من الناس والبقر والحمير والغنم ، فضلاً عن كل ما يوجد من أمتعة ذهب (حجولاً وأساور وخواتم وأقراطاً وقلائد) وغيرها - (عدد ٣١) .

ويؤكد الرب حقوق هارون وأتباعه فى هذا كله بتقسيمه بينهم على أساس أن لهارون (من قدس الأقداس ، من النار ، كل قرابينهم ، مع كل تقدماتهم ، وكل ذبائح خطاياهم ، وكل ذبائح آثامهم التى يردونها لى ، قدس أقداس هى لك ولبنيك ، فى قدس الأقداس تأكلها ، كل ذكر يأكلها) .

(الربيعة من عطاياهم لك أعطيتها ولبنيك وبناتك فريضة دهرية) .

(كل دسم الزيت وكل دسم المسطار والحنطة ، أبكارهن التى يعطونها للرب لك أعطيتها) .

(أبكار كل ما فى أرضهم التى يقدمونها للرب لك تكون .. كل طاهر فى بيتك يأكلها) .

(كل محرّم فى إسرائيل يكون لك) .

(كل فاتح رحم من كل جسد - البكر - يقدمونه للرب ، من الناس ومن البهائم ، يكون لك .. غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكر البهيمة النجسة) .

(جميع رقائق الأقداس أعطيتها لك ، ولبنيك وبناتك معك ، حقاً دهرى) .

(وأما بنو لاوى فإنى قد أعطيتهم كل عشر فى إسرائيل ميراثاً ، عوض خدمتهم التى يخدمونها ، خدمة خيمة الاجتماع) .

لكن على بنى لاوى أن يرفعوا عشر ما يحصلون عليه لهارون الكاهن - (عدد / ١٨) .

ثم تكون واجبات تدشين المذبح :

(قال الرب لموسى : رئيساً رئيساً فى كل يوم يقربون قربانهم لتدشين المذبح .. أطباق فضة اثنا عشر ، ومناضج فضة اثنا عشر ، كل طبق مائة وثلاثون شاقلاً فضة ، وكل منضحة سبعون ، جميع فضة الأنية ألفان وأربعمائة على شاقلاً القدس ، وصحون الذهب اثنا عشر مملوءة بخوراً ، كل صحن عشرة على شاقلاً القدس ، جميع ذهب الصحون مائة وعشرون شاقلاً ، كل الثيران للمحرقة اثنا عشر ثوراً ، والكباش اثنا عشر ، والخراف الحولية اثنا عشر ، مع تقدمتها ، وتبوس المعز اثنا عشر للذبيحة الخطية ، وكل الثيران للذبيحة السلامة أربعة وعشرون ثوراً ، والكباش ستون ، والسيوس ستون ، والخراف الحولية ستون هذا تدشين المذبح بعد مسحه) - (عدد / ٧) .

جاء فى بردى (هريس) بالمتحف البريطانى أن ممتلكات معابد كهنة مصر القديمة بلغت ١٠٣١٧٥ خادماً ، و ٤٩٠٣٨٦ رأساً من الماشية ، و ٤١٣ حديقة ، و ١٠٧٤٤١٨ فداناً ، و ٨٨ مركباً ، و ٥١ حوضاً للسفن ، ١٦٩ بلدة ، بعضها فى وادى النيل وبعضها خارجه .

وانتهى الأمر بالمعابد وكهنتها إلى كراسى الحكم ، لتصبح فى مصر حكومة دينية تصطبغ قراراتها بالقداسة الإلهية ، مما عجل بوقوع مصر فى أيدي الغزاة ، وهو ما حدث للشعب اليهودى .

وينبغى الرجوع إلى الآداب التى كان يتخذها كهنة مصر ، وهم يؤدون شعائرتهم ، للتعرف على مدى العلاقة القوية التى تربط بين هؤلاء الكهنة وحاخامات اليهود^(١) الذين لا تقف مطالبهم عند حد ، لدرجة أنهم استغلوا كل الوسائل الممكنة للاستيلاء على ما يملكه الآخرون ، دون تقدير للظروف القاسية التى كان (الشعب) يمر بها .

ولقد حدث أن (قورح بن بصهار بن قهات بن لاوى ، ودانان وأبيرام ابنا ألياب ، وأوان بن فالت ، بنو راويين) أخذوا (يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل ، مائتين وخمسين رؤساء الجماعة) ، غير راضين عن هذه الامتيازات التى فرضت عليهم لهارون وبنيه .. (كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفى وسطها الرب ، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) ١٢ .

ثورة على وضع شاذ .. وحتى لا تكون فتنة ، وسابقة خطيرة فى حياة الجماعة المقدمة ، كان لا بد من ضربة قاصمة تردع كل من توسوس له نفسه بأن يفكر فيما فرض الرب .. فقال موسى لشيوخ إسرائيل : (اعتزلوا عن نخيام هؤلاء القوم البغاة ، ولا تمسوا شيئاً مما لهم ، لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم) .. ثم أعلن (إن مات هؤلاء كموت كل إنسان ،

(١) انظر ديانة مصر القديمة - ص ١٩٤ وما بعدها ، و ص ٣٧٥ .

وأصابتهم مصيبة كل إنسان ، فليس الرب قد أرسلنى ، ولكن إن ابتدع الرب بدعة ، وفتحت الأرض فاهها وابتلعتهم ، وكل مالهم ، فهبطوا أحياء إلى الهاوية ، تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا على الرب) .

(فلما فرغ من التكلم بهذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم ، وفتحت الأرض فاهها وابتلعتهم وبيوتهم ، وكل ما كان لقورح من كل الأموال ، فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية ، وانطبقت عليهم الأرض ، فبادوا من بين الجماعة .. وخرجت نار من عند الرب ، وأكلت المائتين والخمسين رجلاً الذين قربوا البخور) - (عدد ١٦) . مع أن تقديم البخور كان بأمر موسى ، وفى الطاعة نوع من التوبة والاستغفار ، فإن الرب قد قضى ، ولا راد لقضائه ، (لكيلا يقترب رجل أجنبى من نسل هارون ليبخر بخوراً أمام الرب) - (عدد ١٦) .

ومن ثم سارت الجماعة فى أسر الكهنة والقضاة والأنبياء والأدعياء (أمة متمردة) مغلوله بقيود لا قبل لها بها .

فلما كان أول تجمع إسرائيلى فى أورشليم بعد السبى ، تزعم نحemia وصدقيا وسرايا وعزريا وبرميا وفشحور وأمريا وملكيا وغيرهم من الكهنة - جموع الشعب (فى قسم وحلف) أن يسيروا فى شريعة الله ، وأن يلتزموا - ولم تستقر الحياة بهم بعد - بهذه الفرائض الجائرة :

(أقمنا على أنفسنا فرائض أن نجعل على أنفسنا ثلث شاقل كل سنة لخدمة بيت إلهنا لخبز الوجوه ، والتقدمة الدائمة ، والمحرقه الدائمة ، والسبوت ، والأهله ، والمواسم ، والأقداس ، وذبائح الخطية للتكفير عن إسرائيل ، ولكل عمل بيت إلهنا ، وألقينا قرعاً على قربان الحطب بين الكهنة واللاويين والشعب ، لإدخاله إلى بيت إلهنا ، حسب بيوت آبائنا ، فى أوقات معينة ، سنة فسنة ، لأجل إحراقه على مذبح الرب إلهنا ، كما هو مكتوب فى الشريعة ، ولإدخال باكورات أرضنا وباكورات ثمر كل

شجرة ، سنة فسنة ، إلى بيت الرب ، وأبكار بنينا وبهائمنا ، كما هو مكتوب فى الشريعة ، وأبكار بقرنا وغنمنا ، لإحضارها إلى بيت إلهنا ، إلى الكهنة الخادمين فى بيت إلهنا ، وأن تأتى بأرائل عجبتنا ورفائنا وأثمار كل شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة ، إلى مخدع بيت إلهنا ، ويعشر أرضنا إلى اللاويين ، واللاويون هم الذين يعشرون فى جميع مدن فلاحتنا) - (نحemia / ١٠) .

وتستمر هذه الأوضاع الشاذة ، فينهض بعض الأنبياء والمتنبئين ثائرين منددين بالخداع الكهنوتى ، واستغلال التجار والمرايين ، فيقف (عاموس) ملوحاً بما يشبه الثورة على الكهنة والأغنياء ، فيقول :

(من أجل أنكم تدوسون المسكين ، وتأخذون منه هدية قمح ، بنيتم بيوتاً من حجارة منحوة ، ولا تسكنون فيها ، وغرستم كروماً شهية ولا تشربون خمرها ، لأنى علمت أن ذنوبكم كثيرة ، وخطاياكم وافرة ، أيها المضايقون البار ، الأخدون الرشوة ، الصادون البائسين فى الباب) - (عاموس / ٥) .

ويتهدد بزوال ملك إسرائيل وبهوذا ، بسبب هذا الفساد الاجتماعى والدينى ، فيقول :

(هكذا قال الرب : كما ينزع الراعى من فم الأسد كراعين أو قطعة أذن ، هكذا ينتزع بنو إسرائيل الجالسون فى السامرة ، فى زاوية السرير ، وعلى دمشق الفراش .. إئننى يوم معاقبتى إسرائيل على ذنوبه أعاقب مذابح بيت أيل ، فتقطع قرون المذبح ، وتسقط إلى الأرض ، وأضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف ، فتبيد بيوت العاج^(١) ، وتضمحل البيوت العظيمة) - (عاموس / ٣) .

* * *

(١) يقصد بيت العاج الحجرة التى يبيت كلها من العاج فى قصر السامرة الذى كان يقيم فيه الملك أشحاب مع زوجته إزابل ، حوالى ٨٧٥ - ٨٥٠ ق م .

لو أن أولئك المتخصصين فى الدراسات الدينية عنوا بدراسة هذه
الالتزامات الجائرة :

هل هى حقاً فى الشريعة ؟ أو بمعنى أقرب إلى الحقيقة : ما مدى
ارتباطها بما جاء فى الشريعة ؟ .

وفى عهد من أدخلت على الكتاب المقدس ؟ .

وما الدواعى التى دعت إليها ؟ .

وهل كانت هناك استجابة فعلية لها ، طوعاً أو قسراً ؟ .

ما علاقة هذه الالتزامات بالمجتمع اليهودى ؟ .

هل لها دور فى تطوير الفهم الدينى ؟ .

هل للتطور الفكرى دور فى تطويرها ؟ .

هل لها وجود اليوم فى المجتمع الصهيونى ؟ .

هل يمكن تناولها على أساس من الفهم السياسى المعاصر ؟ أو على
أساس الأهداف السياسية العربية ؟ .

لقد كان لهذه الدراسة إشارات ، لكنها ليست إجابات كافية لكثير من
التساؤلات .

٥ - تشريعات سماوية .. ولكن !!

الشريعة قيمة وسلوك ، أو سلوك تحدده قيمة ، والقيمة المثلى ترتبط
بخير الإنسان ، دون قيود زمانية أو مكانية أو جنسية ، ومن ثم لا تكون من
صنع الإنسان الذى هو صنعة الزمان والمكان .. وهذا لا يعنى أن الإنسان
غير قادر على أن يصنع قدره ، أو أن يطور مجتمعه ، لكنه - دون شك -
غير قادر على أن يجنب مجتمعه توترات واضطرابات لا تعوق النمو السليم
فحسب ، بل كثيراً ما تحدث ردة ، تذهب بكل ما بذله الإنسان فى تاريخه
الطويل .. فكما أن المجتمع البشرى تعمل العقول على تطويره - على وجه
ما - إذ لا تملك العقول القدرة على الكمال ، فإن الغرائز تدفع المجتمع فى
مجالات متضاربة متصارعة تلبس الحق بالباطل ، والخير بالشر .

وكانت حكمة الله أن يرسم للإنسان طريقه ، وأن يصره بجوانب القوة
والضعف فيه ، وأن يرسل إليه رسالاً مبشرين ومنذرين ، هداة معلمين
بالكلمة وبالسلوك .

ومنذ التقى الإنسان بالإنسان وشريعة السماء تصنع المناهج ، وتحدد
الغايات .

وليس من الحق فى شىء أن الفلاسفة والحكماء كانت لهم المبادأة
بالحق والخير والجمال ، وإن كانت لهم القدرة على أن يكشفوا عن بعض
ما طمس المجتمع من معالم السماء فى الأرض .

استرشد الفلاسفة والحكماء بما خلف الرسل والأنبياء ، واستلهموا -
بطبيعة الخير فيهم - تفصيلات وتطبيقات مرهونة باحتياجات مجتمعهم ،
واحتياجات المجتمع تتحكم فيها إمكانيات مادية ، وتطلعات طائفية ، وتمرس
الحاكمين بالترغيب والترهيب .

لهذا اختلفت الفلسفات ، وتصارعت ، ومن اليسير تحديد مسار كل فلسفة ، والعوامل التي ساعدت على ظهورها ، أو على إيقاف نموها ، أو استمرار فاعليتها .

لكن الشرائع السماوية لا تختلف ، وإن كانت تنمو بنمو الاحتياجات البشرية : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصىنا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١) .

وإذا كانت الفلسفات تخدم الخير والحق والجمال ، فإن هذه القيم ليست خارج حدود المكان والزمان - كما سبق القول - ومن ثم يمكن التمييز بينها وبين ما جاءت به السماء ، بمجرد تعريتها عن شوائب الزمان والمكان .

وهذا ما يحدث للتعاليم السماوية ، حين تنزو بالإنسان أهواؤه ومطامعه ، فيحرف هذه التعاليم أو يزيّف ، أو يسوّء تفسيرها .

ولعل ما سجلته أسفار العهد القديم من شريعة موسى - عليه السلام - أوضح دليل على أن ما ارتضاه الله لخلق من تعاليم سيظل - برغم الأساليب الكهنوتية والشعوبية والاستعمارية - أصفى وأنقى ، لأنه الحق المطلق ، والخير العام ، والجمال الذى لا يتحكم فيه ذوق العصر ، ولا عوامل البيئة .

ولا يضير أن يكون هناك شبه بين ما جاءت به التوراة وبين تشريع حمورابى المكون من ٢٨٢ بنداً ، وإن كان شبيها يتناول اللحمة والسدى واللب والجوهر ، لأن حمورابى ليس أول من شرع ، ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (٢) .

وإن كان تشريعه من أقدم التشريعات تدويناً ، فهذا لا يمنع أن يكون صدى تشريع أغفله التاريخ ، ثم إنه مسبق بتشريعات مصر القديمة ، وهى الأخرى مسبوقة بتشريعات سماوية .. ومن هنا جاءت المشابهة بين التشريع الوضعى والتشريع السماوى .

والملاحظ على تشريع حمورابى القسوة ، لكنها القسوة التى تمضى مع المسائل التفصيلية ، لا فى القواعد الكلية . كما هو الشأن مع الشريعة اليهودية ، فمبدأ قانون القصاص هو : (النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص) .

فإذا كسر رجل من رجل (شريف) ، أو فقراً عينه ، أو هشم طرفاً من أطرافه - حلّ به نفس الأذى الذى سببه لغيره ، وإذا انهيار بيت وقتل من اشتراه حكم بالموت على مهندس بنائه أو بانيه ، لكنه يتجاوز (إذا تسبب عن سقوط البيت موت ابن الشارى ، إذ يحكم بالموت على ابن البائع أو البانى ، وإذا ضرب إنسان بنتاً وماتت حكم بالموت على ابنته) .

مسائل كثيرة تأخذ هذا المأخذ ، وإن كنا نجد التشريع يلجأ فى كثير من الأحيان إلى الغرامة ، حتى فيما يستوجب القصاص ، ثم يغلو فيما (إذا اتهم رجل آخر بجريمة ، يعاقب عليها بالإعدام ، ثم عجز عن إثباتها ، حكم على المدعى نفسه بالإعدام) .

وليس فى شريعة بابل ما يفيد وجود حق قبل الدولة ، لأنها كانت دولة دينية (خاضعة لأمر الكهنة) من أيام الملوك السومريين إلى تنبوخذ نصر (١) .

وكذلك الحال بالنسبة للشرائع الفارسية التى كانت تعاقب بالقتل فى جرائم الزنا واللواط والسحاق ، (لأنهم أحق بالقتل من الأفاعى الزاحفة

(١) قصة الحضارة - ج ٢ من ٢٠٨ / ٢١١ .

(١) الشورى / ١٣ .

(٢) قاطر / ٢٤ .

والذئاب العادية) ، على حين (يرى الفرس أن خطف النساء قوة وانتداباً عمل لا يأتيه إلا الأشرار ، ولكن اشتغال الإنسان بالثأر لهن إذا اختطفن يعد من أعمال الحمقى ، أما إهمالهن إذا اختطفن فمن أعمال الحكماء) (١) كأنهم يشجعون على الزنا بالقوة في مجتمع يكثر فيه التسرى إلى حد أن أصبحت العادة ألا يضاجع الملك امرأة مرتين ، إلا إذا كانت رائعة الجمال .

* * *

ولارب في أن التشريع اليهودي المذون في (العهد القديم) تربى في حضارة التشريع البابلي والفارسي ، وإن كان ميلاده على يد موسى عليه السلام .

وإذ نحن بصدد عرض هذا التشريع فإنني حريص على ألا أقدم إلا ما أوردته التوراة ، أي الوصايا (الفرائض والأحكام والشرائع التي وضعها الرب بينه وبين بني إسرائيل في جبل سيناء ، بيد موسى) - (لاويين / ٢٦) .

وإن كان - حتى عهد سليمان - لم يوجد في التابوت إلا لوحا الشهادة ، وقد كانا (لوحى حجر مكتوبين بإصبع الله) - (خروج / ٣١) - مما يفيد أنهما - دون غيرهما - قد احتفظا بالطابع السماوي ، إلى ما قبل تخريب أورشليم ، وهدم بيت الرب ، وتشتيت بني إسرائيل .

لكن - مع هذا - فقد (كتب موسى التوراة وسلمها للكهنة ، بني لاوى ، حاملي تابوت عهد الرب ، ولجميع شيوخ إسرائيل) - (تثنية / ٣١) .

وطبعاً كان على الكهنة - وفي يدهم التابوت - أن يضعوا التوراة مع اللوحين ، لكنهم لم يفعلوا ، لسبب أو لآخر ، وتوارثوا التوراة ، وسجلوا كتباً أخرى أضعاف ما جاء في التوراة ، ونسبوها إلى الله ، أوحى بها إلى

أنبياء ، أو إلى كهان ، وألصقوا التوراة ملابس تاريخية ، فسجلوا تاريخ العالم من خلال تاريخ بني إسرائيل .. وحتى يكون بنو إسرائيل (شعب الله المختار) ، يزعمهم فقد أباحوا لأنفسهم حرية التعديل والتبديل والإضافة والحذف .

ومع هذا ، فما بقى من توراة موسى ما يزال مطبوعاً بطابعه السماوي (١) ، وإن كان لم يمس العالم الآخر من قريب أو بعيد ، كما فعل أختائون معاصر موسى ، لكن لأختائون عذره ، إذ كان إغفاله العالم الآخر ضرورة أملت عليها محاربه الديانة الشعبية والتقليدية ، حيث يحتل إله الأبدية أوزوريس مكاناً رئيسياً ، وربما كان يلعب دوراً أنشط من أى إله آخر (٢) ، فهل كان هذا الإغفال أثراً من آثار الديانة المصرية الأختاتونية التي كان موسى من رجالها ، كما يزعم بعض المؤرخين ، وبخاصة أن الموسوية اهتمت بالعقوبات اهتماماً كبيراً ، كأنما تريد تصفية الحسابات في الدنيا ، بحيث لا يبقى مبرر لعقاب الآخرة ؟ أو كان هذا الإغفال صدقاً للشرعة البابلية التي كانت ديناً أرضياً عملياً ، إذ كان المتعب لا يطلب ثواب الجنة ، بل خير الدنيا ؟ .

يقول ول ديورانت : (فكرة البابليين عن الحياة الآخرة كانت في جملتها شبيهة بفكرة اليونان ، فكرة أموات ، فيهم قسيسون وأنذال ، وفيهم عباقرة وبلهاء ، يذهبون كلهم إلى مكان مظلم في جوف الأرض ، ولا يرى الضوء من بعد ذلك أحد منهم) (٣) .

وإذا كان دانيال قد أشار إلى يوم البعث ، وإلى الحساب والجزاء ، في قوله : (وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون ، هؤلاء إلى

(١) لا نجد في التوراة التي وصلتنا ، والتي هي بأيدينا ، دليلاً على أن موسى - عليه السلام - هو مؤلفها ، بل إن بها عبارات لا يمكن أن تصدر عن موسى - عليه السلام - التوراة الهيروغليفية - ص ٤١ .

(٢) موسى مصرياً - ص ٤٢ .

(٣) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٢٢١ .

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٤٤٠ .

الحياة الأبدية ، وهؤلاء إلى العار ، للازدراء الأبدى) - (دانيال / ١٢) -
فهذا دليل على ما أصاب التوراة من تحريف وتزييف ، أو أنه دليل على
الاتصال بالديانة الزرادشتية .. زمن الأسر الطويل ، وإبان الاتصال بدولة
الفرس فى عهد قورش ، فقول دانيال يشبه فى كثير منه ما جاء فى ديانة
زرادشت ، من أنه (تقوم مملكة أهورا مزدا ، ويهلك أهرمان هو وجميع قوى
الشر هلاكاً لا قيامة لها بعده ، ويومئذ تبدأ الأرواح الطيبة جميعها حياة
جديدة فى عالم خال من الشرور والظلام والآلام ، فيبعث الموتى ، وتعود
الحياة إلى الأجسام ، ويخلو العالم المادى كله إلى أبد الدهر من الشيخوخة
والموت والفساد والانحلال) (١) .

وهذا التحريف والتزييف يزكيه قول يوسفوس المؤرخ اليهودى
الفريسي : (إن الفريسيين قد سلموا الشعب وصايا وفرائض تسلموها من
الآباء ، وليست مما جاء فى شريعة موسى) (٢) .

ومن المثير حقاً ألا يجد القارئ فى شريعة موسى حديثاً عن الصلاة ،
إلا أن الضرورة إلى خدمة الكاهن - كما يقول السيد أمير على - قد مالت
لتجعل من الدعاء وسيلة ميكانيكية لا روح فيها ولا خشوع .

وقد خلت التوراة كذلك من الحديث عن الصوم ، وكان الأمينيون -
نتيجة اتصالهم الوثيق بالفيشاغوريين - هم الطائفة اليهودية الأولى التى
استطاعت أن تدرك العنصر الأخلاقى فى مبدأ الصوم (٣) .

لكن الدكتور فؤاد حسنين على يرى أنه كانت هناك صلاة ، كوسيلة
ملزمة لله لتأدية عمل من الأعمال ، فهى من بقايا عصور السحر والتعاويذ ،

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ - ص ٤٣٥ .

(٢) القس منسى يوحنا - شمس البر - مطبعة الأمانة بالقاهرة - ص ٤٢ .

(٣) أمير على - روح الإسلام - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦١ - ص ١٩٠ / ١٩٦ .

والنظر إلى الخالق نظرة الساحر ، ولهذا كان المصلى يضع رأسه بين ركبتيه ،
أو يرفع يديه إلى أعلى ، أو يرمى السهام فى اتجاه خاص ، أو يدقّ بالهاون
على الأرض ، أو يجرح نفسه ، ويدعو أدعية يتطلب تنفيذها قوى فوق قوى
البشر ، كأن يطلب مطر السماء ، وخصوبة الأرض ، ووفرة المحصول .

ثم تطور مفهوم الصلاة من خلال المزامير ، فامتازت بالتركيز على أن
الله لا يحده زمان أو مكان ، وهو إله جميع الشعوب ، لا إسرائيل فحسب ،
كما تميزت باعتراف المصلى بذنوبه وخطاياها .

ثم اختفت الطقوس القديمة ، وحلت محلها طقوس تقوم على تلاوة
بعض آيات العهد القديم ، مع العناية بترتيلها ، وتجويد النطق بها ، مع
تحديد لإقامة الصلاة فى الصباح والظهر والمساء (١) .

* * *

تقول الوصايا :

(أكرم أباك وأمك ، لكى تطول أيامك على الأرض التى يُعطيك
الرب إلهك .

لا تقتل ، لا تزنى ، لا تسرق

لا تشهد على قريبك شهادة زور

لا تشته بيت قريبك

لا تشته امرأة قريبك ، ولا عبده ، ولا أمته ، ولا ثوره ، ولا حماره ،

ولا شيئاً مما لقريبك .

أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك ، لا تصنع عملاً ما
أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك)
- (خروج / ٢٠) .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية - ص ٧٢ وما بعدها .

نلاحظ جانب الخير فى هذه الوصايا ، لكنه ليس الخير المطلق ، لأن ربط النهى بالقراءة يوحى بإباحة المنهى عنه مع غير الأقرباء .. ثم إن التوقف عن العمل فى يوم السبت مردّه إلى أن الله خلق الخلق فى ستة أيام ، ثم استراح فى اليوم السابع ، ولكن أى أيام هذه ؟ .

هل كان زمان الإنسان قبل أن يكون الإنسان ؟ .

هل ثمة دليل على أن يوم السبت هو السابع ؟ .

هل كلمة (سبت) فى غير العبرية والعربية ، ولم يكن موسى يعرف إحداهما ؟ .

وأين السبت فى أيام (الأسبوع) العشرة عند الصينيين ؟ .

وأين السبت فى بلاد نهارها ستة أشهر ؟ .

ثم ما علة (الاستراحة) فى اليوم السابع ؟ .

إن الله جل شأنه - لا يمكن أن يوصف بالتعب ، وهو القائل فى قرآنه : ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وما مسنا من لغوب ﴾ (١) .

أليس اللغوب من صفات المخلوق وحده ؟ .

ثم إن أيام الله تختلف عن أيامنا المحددة بطلوع الشمس وغروبها ، إنها مراحل زمنية طويلة تتفق مع مراحل التخلق الكونى الذى اقتضى ملايين السنين ، ومن ثم لا يكون ليوم السبت دلالة إلا على غباء من أخذوا به .

إن الله سبحانه يقول فى قرآنه : ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ (٢)

ولعله تشبيه تقريبى قصد به اختلاف التقدير الزمنى فى حساب الله ، فأين أيام الأسبوع من هذا التقدير ؟ .

يقول موريس بوكاى : إن النص اليهودى للتوراة - وهو يسبق النص الكهنوتى بعنة قرون - لا يشير إلى راحة الله الذى تعب من عمله طيلة الأسبوع (١) .

ومع هذا نجد نصاً يقول : (ولما كان بنو إسرائيل فى البرية وجدوا رجلاً يحتطب حطباً فى يوم السبت ، فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهارون وكل الجماعة ، فوضعوه فى المحرس ، لأنه لم يعلم ماذا يفعل به ، فقال الرب لموسى : قتلاً يقتل الرجل ، يرحم بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ، فأخرجوه كل الجماعة إلى خارج المحلة ، ورجموه بحجارة ، فمات ، كما أمر الرب موسى) - (عدد / ١٥) .

أهكذا تكون عقوبة رجل فقير يحتطب ليجد قوت يومه ، أو ليصطلى بناره فى الشتاء ، لأنه من شدة الخوف - وقد هجم عليه الحرس وساقوه إلى المحرس - ذهل وحار ولم يحسن ذكر سبب الاحتطاب ، مع أن حاله تكفى دلالة ؟ .

(لو) أن دعوى يوم السبت صحيحة ، من أجل راحة الرب ، كان الأحرى أن تكون فيه راحة خلقه ، وكيف يرتاح الفقير الجائع دون أن يجد ما يمسك ريقه ؟ وإذا صح أن هذا الفقير رضى لنفسه ألا يستريح ، أيمكن عقابه الرجم حتى الموت ؟ .

الحقيقة أن عقوبة (القتل) هى أيسر الوسائل عند المشرع اليهودى ، كأنه يريد أن (يستريح) من التفكير فى وسائل أخرى .

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - دار المعارف ١٩٧٩ - ص ٤٥ .

(١) ق / ٣٨ .

(٢) الحج / ٤٧ .

ولما كانت التشريعات بعامة تحمل فى طواياها بعض عناصر الخير ، فإن تعاليم (موسى) تحمل إلى اليوم قيمةً إنسانية راقية ، أثبتتها بترتيب ورودها :

(لا تسيء إلى أرملة ولا يتيم) - (خروج / ٢٢) .

(لا تقبل خبراً كاذباً ، ولا تضع يدك مع المنافق ، لتكون شاهداً ظلم ، لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر ، ولا تجب فى دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف ، ولا تخاب مع المسكين فى دعواه ، إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شاردًا ترده إليه ، إذا رأيت حمار مغمضك واقعاً تحت حملة وعدلت عن حله فلا بد أن تحل معه) - (خروج / ٢٣) .

(لا تبت أجره أجيرك عندك إلى الغد) - (لاويين / ١٩) .

(لا تشتم الأصم ، وقدام الأعمى لا تجعل معثرة) - (لاويين / ١٩) .

(لا ترتكبوا جوراً فى القضاء ، ولا تأخذوا بوجه مسكين ، ولا تحترم وجه كبير ، بالعدل تحكم لقريبك ، لا تسع فى الوشاية بين شعبك ، لا تبغض أخاك فى قلبك ، لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك) - (لاويين / ١٩) .

(من أمام الأشيب تقوم ، وتحترم وجه الشيخ) - (لاويين / ١٩) .

(لا يكن متاع رجل على امرأة ، ولا يلبس رجل ثوب امرأة) - (تثنية / ٢٢) .

(لا تحرق على ثور وحمار معاً) - (تثنية / ٢٢) .

(لا تكتم الشور فى دراسة) - (تثنية / ٢٥) .

وتضع (التوراة) أسساً صالحة للتعامل الإنسانى ، بحيث تساعد على تحقيق العدل ، وعلى أن تستل الأحقاد والضغائن :

(لا يقوم شاهد واحد على إنسان فى ذنب ما ، أو خطية ما من جميع الخطايا التى يخطئ بها ، على فم شاهدين ، أو على فم ثلاثة شهود ، يقوم الأمر) - (تثنية / ١٩) .

(إن فحص القضاة جيداً ، وإذا الشاهد شاهد كاذب ، فافعلوا به كما نوى أن يفعل بأخيه) - (تثنية / ٢٣) .

(إذا أقرضت صاحبك قرضاً ما ، فلا تدخل بيته لكي ترتهن رهناً منه ، فى الخارج تقف ، والرجل الذى تقرضه يخرج إليك الرهن إلى الخارج) - (تثنية / ٢٤) .

(إذا ارتهنت ثوب صاحبك ، فإلى غروب الشمس ترده إليه ، لأنه وحده غطاؤه) - (خروج / ٢٢) .

(لا تأخذ رشوة ، لأن الرشوة تعمي المبصرين ، وتعوّج كلام الأبرار) - (خروج / ٢٣) .

(لا يكن لك فى كيسك أوزان مختلفة ، كبيرة وصغيرة ، ولا يكن لك فى بيتك مكيال مختلفة ، كبيرة وصغيرة) - (تثنية / ٢٤) .

(إذا حصدت حصيدك فى حقلك ، ونسيت حزمة فى الحقل ، فلا ترجع لتأخذها ، للغريب واليتيم والأرملة تكون) - (تثنية / ٥) .

(إذا خلت كرم صاحبك فكلّ عنباً ، حسب شهوة نفسك ، شبعتك ، ولكن فى وعاء لا تأخذ ، إذا دخلت زرع صاحبك فاقطف منابل ييدك ، ولكن منجلًا لا ترفع على زرع صاحبك) - (تثنية / ٢٣) .

** لكن ، مع هذه المثالية ، فإن بعض التعليمات - وبخاصة فيما يتصل بالنجاسة والطهارة - تثير أكثر من تساؤل ، فمثلاً :

(المرأة التى يضطجع معها رجل اضطجاع زرع يستحمان بماء ، ويكونان نجسين إلى المساء) - (لاويين / ١٥) .

(إذا مات إنسان فى خيمة ، فكل من دخل الخيمة ، وكل من كان فى الخيمة ، يكون نجساً سبعة أيام) .

(وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة فإنه يتنجس) .

(وكل من مسّ على وجه الصحراء قتيلًا بالسيف ، أو ميتاً ، أو عظم إنسان ، أو قبراً ، يكون نجساً سبعة أيام) .

(فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيح الخطية ، ويجعل عليه ماء حياً فى إناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفاً ، ويغمسها فى الماء ، وينضح على الخيمة ، وعلى جميع الأمتعة ، وعلى الأنفس الذين كانوا هناك ، وعلى الذى مسّ العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ، ينضح الطاهر على النجس فى اليوم الثالث واليوم السابع ، ويظهره فى اليوم السابع ، فيغسل ثيابه ، يرحض بماء ، فيكون طاهراً فى المساء ، وأما الإنسان الذى يتنجس ولا يتطهر ، فتباد تلك النفس من بين الجماعة ، وكل ما مسّه النجس ينجس ، والنفس التى تمس تكون نجسة إلى المساء) - (عدد / ١٩) .

(كل فراش يضطجع الذى له السيل يكون نجساً ، وكل متاع يجلس عليه يكون نجساً ، ومن مسّ فراشه يغسل ثيابه ويستحم بماء ، ويكون نجساً إلى المساء .

(وإذا طهر ذو السيل من سيله يحسب له سبعة أيام لطهره ، ويغسل ثيابه ، ويرحض جسده بماء فيطهره ، وفى اليوم الثامن يأخذ لنفسه يمامتين أو فرخى حمام ، ويأتى إلى أمام الرب ، إلى باب خيمة الاجتماع ،

ويعظيها للكاهن ، فيعملها الكاهن الواحد ذبيحة خطية ، والآخَر محرقة ، ويكفر عنه الكاهن أمام الرب من سيّله) - (لاويين / ١٥) .

أما الأبرص فيأمر (الكاهن أن يؤخذ للتطهير عصفران حيّان طاهران وخشب أرز وقرمز وزوفاً ، ويأمر الكاهن أن يذبح العصفور الواحد فى إناء خنزف على ماء حى ، أما العصفور الحى فيأخذه مع خشب الأرز والقرمز والزوفاء ويغمسه مع العصفور الحى فى دم العصفور المذبح على الماء الحى ، وينضح على المتطهر من البرص سبع مرات فيطهره ، ثم يطلق العصفور الحى على وجه الصحراء ، فيغسل المتطهر ثيابه ، ويحلق كل شعره ، ويستحم بماء فيطهره ، ثم يدخل المحلة ، لكى يقيم خارج خيمته سبعة أيام ، وفى اليوم السابع يحلق كل شعر رأسه ولحيته وحواجب عينيه ، وجميع شعره يحلق ، ويغسل ثيابه ، ويرحض جسده بماء فيطهره ، ثم فى اليوم الثامن يأخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة ، حولية صحيحة ، وثلاثة أعشار دقيق تقدمة ملتونة بزيت ... إلخ) - (لاويين / ١٤) .

ما الهدف من هذا العبث الذى لا تجده إلا وسيلة الدجالين الذين يدعون العلاقة بالجن ، أو يزعمون السحر ، ليستولوا على أموال الخدوعين ؟ وإن كان هؤلاء الدجالون لا يجرعون على نسبة هذا العبث إلى الله ، فكيف بالكهنة - يصدقهم ملايين اليهود والمسيحيين فى عصر الفضاء والعلاج بالذرة وأشعة الليزر - يجعلونه شريعة سماوية ، وأوامر من الرب !؟

ومن الغريب أن موضوع البرص يشغل من شريعة الله ثلاثة أصحاباحات فى سبع صفحات ، وأدعوا أن هناك برصاً فى الثياب ، يستدعى حرق مكانه من الثوب - (لاويين / ١٣) - وبرصاً فى الجدران يستدعى هدم البيت ، خجارتة وأخشابه وكل تراب البيت ، ويخرجها إلى خارج المدينة ، إلى مكان نجس - (لاويين / ١٤) - أى إلى مقبرة ، أو إلى حيث الشعوب

الأخرى ، كما يفعل اليوم بالنفايات السامة ١١ .

ولم يقتصر الأمر على الموتى والمرضى ، بل الأحياء الأصحاء أيضاً ١١ .
فكل من مسّ جثة حيوان لا يؤكل - والحيوانات التي لا تؤكل هي
كل ما لا يجمع بين الاجترار وشق الظلف ، ومن ذلك الجمل والحصان
والحمار والأرنب^(١) ، مع أن الحمار كان وسيلتهم الرئيسية في الانتقال ، ثم
عرفوا الجمل - (يكون نجساً إلى المساء ، ومن حمل جثتها يغسل ثيابه ،
ويكون نجساً إلى المساء) - (لاوين / ١١) .

(وكل قاع خزف وقع فيه منها ، فكل ما فيه يتنجس ، وأما هو
فتكسرونه) .

(التنور والموقد يهدمان) - (لاوين / ١١) .

وتسأل : لماذا تظل النجاسة حتى المساء ؟ .

ولماذا يكسر الوعاء الخزفي ، ولا يكفى معه الغسيل ؟ . مع أن جودة
صنعه قد تختفى معها المسام ، فضلاً على أنه يطلى بطلاء أملس من قبل
العصر الموسوى ، ثم ألا تطهر النار التنور والموقد ؟ .

وما سبب نجاسة الحيوان الذي لا يؤكل ؟ .

ألا تكون الحكمة في النهي عن أكله صعوبة هضمه ، أو التقزز من
شكله ، أو الخوف منه ، أو الاستفادة بقوته فيما هو أنفع من أكله ، أو أن
في تكوين خلاياه أو بعضها ما يسبب أمراضاً ، أو ما يزيد في خطورتها ؟ .

ومن ثم لا تكون النجاسة سبب الامتناع عن أكله ١١ .

(١) نقول الآية الكريمة . ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا
عليهم شحرمهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزئناهم ببعضهم إنا
نصادقون ﴾ . [الأسف : ١٤٦] .

ولماذا يفرق بين الذكر والأنثى فيما (إذا حبلت المرأة وولدت ذكراً ،
تكون نجسة سبعة أيام ، كما في أيام طمئنت علقها تكون نجسة ، ثم تقيم
ثلاثة وثلاثين يوماً في دم تطهيرها .. وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين ،
كما في طمئنتها ، ثم تقيم ستة وستين يوماً في دم تطهيرها) - (لاوين
١٢١) .

هل تختلف أيام الطمئنت مع المرأة الواحدة باختلاف ما تلد ١٢ .

وقد قدمت (التوراة) صوراً من العقوبات المادية يمكن أن تكون
وسيلة إلى حماية الحقوق :

(إذا رعى إنسان حقلاً أو كرماً ، وسرح مواشيه فرغت في حقيل
غيره ، فمن أجود حقله وأكرمه يعوض) .

(إذا خرجت نار وأصابت شوكاً فاحترقت أكداش أو زرع أو حقيل ،
فالذى أوقد الوقيد يعوض) .

(إذا أعطى إنسان صاحبه فضة أو أمتعة للحفظ ، فسرق من بيت
الإنسان ، فإن وجد السارق يعوض بائنين ، وإن لم يوجد السارق يقدم
صاحب البيت إلى الله ليحكم ، هل لم يمد يده إلى ملك صاحبه) ؟ .

(في كل دعوى جنائية - من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو
مفقود ، يقال إن هذا هو - تقدم إلى الله دعاوهما ، فالذى يحكم الله بذنبه
يعوض صاحبه بائنين) .

(إذا أعطى إنسان صاحبه حماراً أو ثوراً أو شاة أو بهيمة ما للحفظ ،
فمات أو انكسر أو نهب ، وليس ناظر ، فيمين الرب تكون بينهما ، هل لم
يمد يده إلى ملك صاحبه ، فيقبل صاحبه ، فلا يعوض .. وإن سرق من
عنده يعوض صاحبه) .

(وإذا استعار إنسان من صاحبه شيئاً فأنكسر أو مات ، وصاحبه ليس معه ، يعرض ، وإن كان صاحبه معه لا يعرض) - (خروج / ٢٢) .

(إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه ، أو باعه ، يعرض عن الثور بخمسة ثيران ، وعن الشاة بأربعة من الغنم) .

(إن وجد السارق وهو ينقب ، فضرب ومات ، فليس له دم ، ولكن إن أشرقت عليه الشمس فله دم ، إنه يعرض ، إن لم يكن يبيع بسرقة ، إن وجدت السرقة في يده حية ، ثوراً كانت أم حماراً أو شاة ، يعرض باثنين) - (خروج / ٢٢) .

يؤخذ على هذه العقوبات أنها تتحدث عن التعويض ، دون بيان ما إذا كان المتعدى لا يملك ما يعرض به ، كما أن التعويض لا يلتزم قاعدة مطردة ، فهو تارة المثل ، وتارة الضعف ، وقد يصل إلى خمسة أضعاف ، مع أن (التكييف القانوني) متشابه ، ومع أن هذه الأحكام جميعاً واردة في مكان واحد (خروج / ٢٢) ، هذا إلى أن الأحكام ترتبط بحالات لا بكل الحالات .

وهناك عقوبات على حالات يعوزها (التكييف القانوني) ، كما إذا (لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه) - الذي مات - زوجة له ، لأنه كره عشرتها لأخيه ، أو أنفت نفسه أن يبيت في فراش أخيه ، أو لم تكن بحيث تحقق رغبته في المرأة .. فما جريمته حتى (نتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله ، وتبصق في وجهه ، وتصرخ وتقول : هكنا يفعل بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه) - (تثنية / ٢٥) - أليس - إذا جرؤت على فعل هذا - تكون قد برهنت على صواب رأيه فيها ١٩ .

أما بالنسبة لجريمة القتل ، فالأصل (لا تقتل البريء والبار) -

(تثنية / ١٩) - وإذا حدث العدوان ف (لا تشفق عينك ، نفس بنفس ، عين بعين ، سنّ بسنّ ، يد بيد ، رجل برجل) - (تثنية / ١٩) .

قصاص عادل ، : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾^(١) . وإن كنا نجد في قصة (قايين) أن الله عفا عنه بعد أن قتل أخاه هابيل ، وجعل له (علامة ، لكيلا يقتله كل من وجده) - (تكوين / ٤) .

لعله لون من التطور في التشريع ، أو لعلها حالة خاصة بأول جريمة قتل .

(كل من قتل نفساً فعلى فم شهود يقتل القاتل ، وشاهد واحد لا يشهد على نفس للموت ، ولا تأخذوا فدية عن نفس القاتل المذنب للموت ، بل إنه يقتل) - (عدد / ٣٥) .

حكم صارم ، لا يشوبه إلا أن (ولى الدم يقتل القاتل ، حين يصادفه) - (عدد / ٣٥) - مما يساعد على مزيد من القتلى ، لأنه يأخذ طابع الثأر ، لا عدالة القصاص ، وإن كنا نجد في سفر (خروج) أن الكهنة هم الذين يتولون القصاص ، (فمن عند مذبحي تأخذه للموت) - (خروج / ٢٠) - مما يفيد أن ثمة من حرّف الكلم عن مواضعه ، دون إدراك لخطورة التحريف .

وفي حالة الخطأ : (إن دفعه بغتة بلا عداوة ، أو ألقى عليه أداة ما دون تعمّد ، أو حجراً مما يقتل به ، بلا رؤية ، أسقطه عليه فمات ، وهو ليس عدواً له ، ولا طالباً أذنته ، تقضى الجماعة بين القاتل وبين ولى الدم ، وتنقل الجماعة القاتل من ولى الدم ، وترده الجماعة إلى مدينة ملجئه التي هرب إليها ، فيقيم هناك إلى موت الكاهن العظيم الذي مسح بالدهن المقدس ، لكن .. إن وجده ولى الدم خارج حدود مدينة ملجئه ، وقتل ولى

(١) البقرة / ١٧٩ .

الدم القاتل ، فليس له دم) - (عدد / ٣٥) .

الحكم هنا اختلط فيه العدل بالجور ، فقضاء الجماعة بين القاتل وولى الدم قد يصل إلى دية مرضية ، وإبعاد القاتل علاج نفسى يدعمه الحزن العظيم على الكاهن العظيم ، أما أن يلتقى ولى الدم بعد ذلك بالقاتل فيقتله دون عقاب فأمر بعيد من العدالة ، لا يعين على وقف إراقة الدماء .

(وإذا تخاصم رجلان ، فضرب أحدهما الآخر بحجر ، أو بلكمة ، ولم يقتل ، بل سقط فى الفراش ، فإن قام وتمشى خارجاً على عكازه يكون الضارب بريئاً ، إلا أنه يعوض عطلته ، وينفق على شفائه) .

(وإذا تخاصم رجال ، وصدموا امرأة حبلى ، فسقط ولدها ، ولم تحصل أذية ، يغرم ، كما يضع عليه زوج المرأة ، ويدفع عن يد القضاة ، وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس) - (خروج / ٢١) .

ولا يشوب العدالة هنا إلا أن زوج المعتدى عليها هو الذى يقدر الغرامة ، ثم كيف وقد حصلت الأذية خطأ تعطى نفس بنفس ، وأى نفس ، وقد اشتركت الجماعة فى الخطأ ؟ .

(وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرحم الثور ولا يؤكل ، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً ، ولكن إن كان ثور نطاحاً من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ، ولم يضبطه ، فقتل رجلاً أو امرأة ، فالثور يرحم ، وصاحبه أيضاً يقتل) .

(وإذا فتح إنسان بئراً ، أو حفر إنسان بئراً ، ولم يغطه ، فوقع فيه ثور أو حمار ، فصاحب البئر يعوض ، ويرد فضة لصاحبه ، والميت يكون له) .

(وإذا نطح ثور إنسان ثور صاحبه فمات ، يبيعان الثور الحى ، ويقتسمان ثمنه ، والميت أيضاً يقتسمانه ، لكن إذا علم أنه ثور نطاح من قبل ، ولم يضبطه صاحبه يعوض عن الثور بثور ، والميت يكون له) - (خروج / ٢١) .

المشروع هنا أدخل العامل النفسى فى الحسبان ، فأمر يرحم الثور القاتل ، دون ذبحه والانتفاع بلحمه ، لكنه نسى ما جاء فى التجاسات عن (الميت) ، فأجاز امتلاكه واقتسامه ، ولا يكون هذا إلا فى حالة الانتفاع بجبلده وقرونيه وذيله ، واتخاذ لحمه طعاماً لكلايه ، أو سماداً لبستانه ١١ .

وتجاوز فى (من سرق إنساناً وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلاً) - (خروج / ٢١) .

على فرض أن سرقة الإنسان قتل معنوى ، فإن العقاب بالقتل مغالى فيه ، وبخاصة أن المسروق قد يرد إلى أهله بعد تنفيذ العقاب ، ثم إن الاتهام بسرقة إنسان يخضع لاعتبارات كثيرة ، كما هو الحال مع الجان والتابعة ، فأى مرض نفسى سيكون علاجه الرجم حتى الموت ، كما أن ارتحال إنسان مع آخر - لسبب ما غير السرقة - قد يعدّ سرقة ، لهذا ينبغى (تكييف) وتوصيف مفهوم السرقة ، والهدف من وراثتها ، فالسرقة للتبنى غير السرقة للتسخير ، غير السرقة لطلب فدية ، أو للانتقام .

ثم إن هذا التشدد فى العقاب يورد تساؤلاً :

إذا كان (كل إنسان بخطيته يقتل) - (تثنية / ٢٤) - فما الحكم فيما أورد (سفر صموئيل الثانى) عن داود عليه السلام ، الذى تأمر على أوريا الحثى وقتله حتى يظفر بزوجته ؟ وداود فى ذلك الحين هو الملك الحاكم الذى يحق الحق ويبطل الباطل .. وكيف يقتل أبشالوم بن داود أخاه أمنون ، ويكون للملك الحاكم حق العفو عن القاتل ، وإبطال أحكام الشرع ؟ (صموئيل الثانى / ١١ / ١٤) .

ثم كيف تقول الشريعة : (لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل

الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيته يقتل) - (تثنية / ٢٤) - مع أن الرب (إله غيور) يقول : (أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء ، فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى) - (خروج / ٢٠) .

أنصدّق التوراة أم نصدّق حزقيال الذى يقول : (الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون) - (حزقيال / ١٨) .

إن تاريخ بنى إسرائيل حافل بالقتل الجماعى ، رجالاً ونساءً وأطفالاً وبهائم وكل نسمة حية ، إذا حمى غضب الرب ، أو حمى غضب أحد أنبيائه ، أو قائد من قادته ، فأين هذا من التشريع ١٩ .

يستتبع القول فى القتل الإشارة إلى ما قالته (التوراة) فى الرق ، إذ إن الرق قتل معنوى . ومما قاله إن الاستعباد جائز حتى للأحرار ، فمن الممكن أن يبيع الرجل ابنته أمة - (خروج ٢١) - وإذا افتقر المرء يمكن أن يبيع نفسه - (لاويين / ٢٥) - لكن أحكام العبيد بعامة تجنح إلى السرفق والخير .

(إذا افتقر أخوك عندك ، وبيع لك ، فلا تستعبده استعباد عبد ، كأجير ، كزئيل ، يكون عندك) - (لاويين / ٢٥) .

(إذا ضرب إنسان عين عبده أو عين أمته ، فأتلفها ، يطلقه حراً عوضاً عن عينه ، وإن أسقط سن عبده أو سن أمته ، يطلقه حراً عوضاً عن سنه) - (خروج / ٢١) .

(إن نطح الثور عبداً أو أمة يعطى سيده ثلاثين شاقل فضة ، والثور يرجم) - (خروج / ٢١) .

(عبداً أبق إليك من مولاه لا تسلم إلى مولاه ، عندك يقيم فى

وسطك ، فى المكان الذى يختاره ، فى أحد أبوابك ، حيث يطيب له ، لا تظلمه) - (تثنية / ٢٣) .

قد يجزى الحكم الأخير متاعب كثيرة ، وإن كانت انطباعة الخير فيه قوية ، لكنه عدوان على (المال) الخاص .

(إذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد ، إن قبحت فى عين سيدها الذى خطبها لنفسه يدعها تفك ، وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب ، لغدره بها ، وإن خطبها لابنه فيحسب حق البنات يفعل لها ، إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها ، وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج بلا ثمن) - (خروج / ٢١) .

نقص الطعام والكسوة والمعاشرة أمر نسبي ، لا تسهل إقامة الحجة فيه على الإدانة .

ولمة أكثر من مأخذ فيما إذا أعطى السيد عبده (امرأة ، وولدت له بنين أو بنات ، فالمرأة وأولادها يكونون لسيده ، وهو يخرج وحده) ، بعد سبع سنين خادمة - (خروج / ٢١) .

*** وعيب هذه التشريعات جميعاً أنها خاصة بالعبراني ، أما غير العبراني فلا حقوق له ، لأنه إما أن يقتل أو يطرد ، ومن استبقى فهو عبد إلى الأبد :

(وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك ، فمن الشعب الذى حولكم ، منهم تقتنون عبيداً وإماء ، وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم ، منهم تقتنون ، ومن عشائهم الذين عندكم الذين يلدونهم فى أرضكم ، فيكونون ملكاً لكم ، وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك) - (لاويين / ٢٥) .

** وكان اهتمام (التوراة) بالأعراض شديداً :

من يقرأ الأصحاح الثامن عشر من سفر (لاويين) يجد صورة تكاد تكون مطابقة لما أورد القرآن الكريم في سورة النساء عن المحارم ، وإن كانت لم تجعل الرضاة من أسباب التحريم ، كما أنها تحرم الزواج من زوجة الأخ إذا أنجبت منه ، ومن زوجة العم ، ولم تحدد عدد الزوجات .

أما ما جاء في سورة النور من عقاب المعتدين على المحارم فإن روح التشريع واحدة ، متمثلة في :

(لا تدنس ابتك بتعريضها للزنى ، لثلا تزنى الأرض ، وتمتلى الأرض رذيلة) - (لاويين / ١٩) .

(إذا اضطجع رجل مع امرأة طامث ، وكشف عورتها ، عرى يبنوعها ، وكشفت هى يبنوع دمها ، يقطعان كلاهما من شعبهما) - (لاويين / ٢٠) .

(إذا راود رجل عذراء لم تخطب ، فاضطجع معها : يمهرها لنفسه زوجة .. إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر عذراء) - (خروج / ٢٢) - وزاد فى مكان آخر أنه إذا تزوجها (لا يقدر أن يطلقها كل أيامه) - (تثنية / ٢٢) .

(إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل ، فوجدها رجل فى المدينة ، واضطجع معها ، فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة ، وارجموهما بالحجارة ، حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه .. ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة فى الحقل ، وأمسكها الرجل واضطجع معها ، يموت الرجل الذى اضطجع معها وحده) ، لأنه (لم يكن من يخلصها) - (تثنية / ٢٢) .

(وإذا اتخذ رجل امرأة زوجاً ، وحين دخل عليها أبغضها ، ونسب

إليها أسباب كلام ، وقال : هذه المرأة اتخذتها ولما دنوت منها لم أجد لها عذرة ، يأخذ الفتاة أبوها وأمها ، ويخرجان علامة عذرتها إلى شيوخ المدينة ، فيأخذ شيوخ تلك المدينة الرجل ويؤدبونه ، ويغرمونه بمائة من الفضة يعطونها لأبى الفتاة ، وتكون له زوجة ، لا يقدر أن يطلقها كل أيامه .. ولكن إذا كان هذا الأمر صحيحاً ، لم توجد عذرة للفتاة ، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها وأمها ، ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت) - (تثنية / ٢٢) .

(إذا اضطجع رجل مع امرأة اضطجاع زرع ، وهى أمة مخطوبة لرجل ، ولم تفد فداء ، ولا أعطيت حريتها ، فليكن تأديب ، ولا يقتل ، لأنها لم تمتق ، ويأتى إلى الرب بذبحة لإثمه ، كبشا ذبيحة إثم ، فيصفح له عن خطيئته التى أخطأ) - (لاويين / ١٩) .

وفى هذه المسألة نظر ، لأن العقاب يقتصر على فائدة الكهنة ، دون مراعاة صاحب الأمة المخطوبة ، ومصير هذه الأمة بعد فعلتها ، وما إذا كانت هذه الفعلة ستعقب حملاً .

وفى الحاليتين الآتيتين نجد مغالاة فى العقاب :

(إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً ، إنهما يقتلان) .

(إذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميمونها) - (لاويين / ٢٠) .

** وإذا كان مردّ هذه المغالاة إلى الغيرة الشديدة على العرض ، لدرجة أن المرأة لا ينبغى أن تقف (أمام بهيمة لنزائها ، إنه فاحشة) - (لاويين / ١٨) - فإن هذه الغيرة تستدعى مساءلة أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى تاريخهم ، فجعلوا إبراهيم يتزوج سارة أخته ، (بالحقيقة أيضاً

هى أختى ، ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى) - (تكوين / ٢٠) -
فكانه زنى بها على وفق ما جاء فى الأصحاح الثامن عشر من سفر لاويين ،
إلا إذا كانت شريعة إبراهيم تختلف عن شريعة موسى ، ثم عرضها للزنا ،
حين أنكر أنها زوجته ، حماية لنفسه ، وطمعاً فى الخير ، فكادت تقع تحت
أيمالك ملك جرار تارة - (تكوين / ٢٠) - وتحت فرعون أخرى -
(تكوين / ١٢) .

وجعلوا لوطاً يستولد بنتيه الموابيين والعمونيين جميعاً - (تكوين
/ ١٩) .

وزنى رأوبين بن يعقوب البكر ببلهة زوجة أبيه وأم أخويه دان وفتالى ،
وشاع هذا الخبر حتى سمعه يعقوب - (تكوين / ٣٥) .
واستولد يهوذا بن يعقوب ثامار زوجة ابنه البكر ولديها : فارص وزارح -
(تكوين / ٣٨) .

ونسبوا إلى داود أنه اضطجع مع بششيع بنت أليعام ، امرأة أوريسا
الحثى ، وهى مطهرة من طمثانها ، فحبلت - (صموئيل الثانى / ١١) .
وجعلوا أمنون بن داود يعشق أخته ثامار ، ويحتال حتى يخلو بها ،
ويضطجع معها - (صموئيل الثانى / ١٣) .

ثم يورد هوشع أمراً من الله : (اذهب خذ لنفسك امرأة زنا وأولاد زنا)
(هوشع / ١) .

أما كان ينبغى ألا يجرؤ (شرير) على الأنبياء ، وأبنائهم بهذا
العيب ١٩ .

أما كان ينبغى أن يبرأ كهنة (الكتاب المقدس) وقراءه من هذا
العيب ، فيحذف منه ، بدلاً من أن يظل يحمل طابع القداسة ، ويتعبد
بتلاوته ١٩ .

وقد يقول قائل : إنها وسيلة تخفيف وزر ما انتشر من آثام فى المجتمع
اليهودى ، نتيجة الاحتكاك بالمجتمع الكنعانى والفينيقي الذى نشأت فيه
ممارسة البغاء المقدس مع عبادة الإلهة عشتار ، فكانت (بغايا المعبود) ، كما
جاء فى (حزقيال / ٨ / ١٤) - (وميخا / ٧ / ١) .

لكن هذه المحاولة لاتبين ما إذا كان الهدف توسيع دائرة البغاء ، أو
تيسير السبيل أمام التوبة ، والعودة إلى الجادة والصراط القويم .

وإن كان هناك من يربط بين البغاء والأسر الطويل ، حتى اختلط الزرع
المقدس بغيره ، أو قل إنه فسد ، فإن وسيلة الخلاص والتطهير لاتكون بالنيل
من الأنبياء ، على أى اعتبار !! .

ولو أنه قيل إن الشدة فى حماية الأعراض لون من احترام المرأة
وصيانتها ، تلك المرأة التى خلقها الله من جزء من جسم آدم ، لتكون
(تابعة) له ، ولتكون مسبب تعاسته ، فتخرجه من الحنة - فإن التشريع الوارد
فى (التوراة) يحرم المرأة من ميراث زوجها ، وكل مالها بعد موته هو مؤخر
الصداق ، على حين كل مالها يشول إلى زوجها ، ومنه إلى ورثته .

قد نرى التاريخ اليهودى يبجل المرأة فى صورة سارة وراحيل ومريم
وأستير وراعوث ، وكانت (دبورة) من قضاة إسرائيل ، كما يعترف التاريخ
اليهودى بعدد من التنبّيات ، وكانت التنبية (خلدة) هى التى استشارها
يوشيا فى أمر الكتاب الذى وجده الكهنة فى الهيكل .. ويحدثنا الأصحاح
الأخير من سفر الأمثال عن المرأة المثالية بقوله :

(امرأة فاضلة من يجدها ، لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب
زوجها فلا يحتاج إلى غنيمة ، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ،
تطلب صوماً وكتاناً وتشتغل بيدين راضيتين ، هى كسفن التاجر تجلب
طعامها من بعيد ، وتقزم إذ الليل بعد وتعطى أكلاً لأهل بيتها وفريضة

لفتياتها ، تتأمل حقلاً فتأخذه ، وبشمر يديها تغرس كرماً ، ثمناطق حقوبها بالقوة ، وتشدّد ذراعها ، تشعر أن تجارتها جيدة ، سراجها لا ينطقى ، فى الليل ، تمد يديها إلى المغزل ، وتمسك كفها بالفلكة ، تبسط كفها للفقير ، وتمد يديها إلى المسكين ، لا تخش على بيتها من الثلج ، لأن كل أهل بيتها لا يسون حلاً ، تعمل لنفسها موشيات ، لبسها بوص وأرجوان ، زوجها معروف فى الأبواب حين يجلس بين مشايخ الأرض ، تصنع قمصاناً وتبيعه ، وتعرض مناطق على الكتعاني ، العز والبهاء لباسها ، وتضحك على الزمن الآتى ، تفتح فمها بالحكمة ، وفى لسانها منة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ، ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطوبونها ، ويقوم زوجها أيضاً ليمدحها) .

قطعة أدبية رائعة ، لكنها تمثل الشوق إلى المجهول ، والرغبة فى تحقيق مالىس بواقع ، بدليل قوله فى بداية الأصحاح :

(لاتعط حبلك للنساء ، ولا طرقت لمهلكات الملوك) ، ويقول صاحب الجامعة : (أمر من الموت المرأة التى هى شباك ، وقلبها أشواك ، ويدها قيود) - (الجامعة ٧) .

ثم إن ظهور شخصيات نسائية معدودة على مدى تاريخ طويل لا يعنى احترام المرأة ، والتاريخ العربى الجاهلى شاهد على ذلك .

ولما كان القانون لم يحرم الاتصال بالعاهرات الأجنبية اللاتى تضاعف عددهن فى أورشليم ، حتى كان الهيكل نفسه - فى أيام المكابيين - ماخوراً للفسق والفجور ، فإن الزنا من أخطر الأمراض سريعة الانتشار ، ومن هنا التقت المغالاة (القانونية) فى العقوبة مع الاتهام الشنيع للأنبياء ، حتى تتحقق المعادلة ، وتكون المصالحة النفسية مع شعب أرهقته العلل والأمراض الاجتماعية .

يقول ول ديورانت فى الوصايا العشر : (من واجبتنا أن نذكر أنها كانت (طوبى كهنوتية) ، ولم تكن وصفاً صادقاً للحياة اليهودية ، وكانت ككل القوانين تعظم فى عين أصحابها حين يخرقونها ، ويمتدحونها كلما اعتدوا عليها) (١) .

*** وأخيراً .. فصاحب هذه الشريعة المثلى لا بد أن يكون وحده المختص بالعبادة .

(لا يكن لك آلهة أخرى أمامى) .

لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض .
لا تسجد لهم ، ولا تعبدن .

لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً) - (خروج / ٢٠) .

(من جدّف على اسم الرب فإنه يقتل ، يرجمه كل الجماعة رجماً) (لاوينا / ٢٤) .

وماذا فى هذا العبث المنسوب إلى الرب ؟ أليس إقرار العبث المنسوب إلى الرب تجديفاً ١٩ .

أليس العبث المنسوب إلى رمل الرب تجديفاً ١٩ .

أليس البيت (الإلهى) المصنوع من الذهب وثنية وتجديفاً ١٩ .

وماذا فى تجسيد الرب ووصفه بصفات البشر ١٩ .

إذا كان الكتاب المقدس ما يزال إلى يومنا هذا يدعى أن سليمان

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ من ٣٨٣ / ٣٨٤ .

الحكيم تزوج سبعمئة امرأة غير السرارى ، وعبد آلهة نسائه ، فماذا تنتظر من البسطاء والخدوعين ١٩ .

إن اليهود لم يكتفوا بهذا ، بل تجاوزوا فارتفعوا بموسى فوق البشرية ، ومن بعده عزرا .

يقول يوسيفوس المؤرخ اليهودى المعروف : (إن تقديس اليهود لموسى بلغ حداً بعيداً للغاية ، وقد حولوا هذا الترقير فيما بعد إلى عزرا الذى استرد الحياة القومية لليهود فى عهد أسرة كيانيان) (١) .

وهذا ما تستنكره الآية القرآنية : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن الجماهير اليهودية لم تترك عبادة التيرافيم ، وهى عبارة عن آلهة كانوا يحتفظون بها فى بيوتهم ، قد صنعوها على شكل بنى البشر ، وكانوا يستشيرون هذه الآلهة فى كل المناسبات ، على اعتبار أنها آلهتهم الخاصة التى تتلقى الوحي من الله ، وربما اعتبروا هذه التيرافيم أكثر من ذلك ، فيصفونها بأنها حارسه المعابد - (عزرا / ٧) .

ولا عجب ، فاليهود كانوا بدواً رَحَلًا يخافون شياطين الهواء ، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال ، ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل ، وكانت الأفعى حيواناً مقدساً ، لأنها رمز الذكورة والخصوبة ، وظلت المعتقدات السحرية إلى عهود متأخرة رغم احتجاج الأنبياء والكهنة .

وبمجرد تسلمهم إلى أرض كنعان أقبلوا بكل جوارحهم على العقائد الكنعانية ، واكتسب (يهوه) صفات (بعل) ، وظل البكاء على

(١) روح الإسلام - ص ١٦١ .

(٢) التوبة / ٣٠ .

(تموز) يتردد فى جوانب الهيكل حتى عهد حزقيال ، فلما تركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم أمسى (يهوه) إله اليهود الذى يعلو على آلهة غيرهم من الشعوب ، ولكن فى إطار سياسى فقط ، أما فى واقع الشعب فقد كانت كثير من المعتقدات القديمة تتحرك حتى فى بيت سليمان النبى وفى بيوت ورثته .

فلما كان السبى البابلى اكتسبت العقيدة اليهودية الكثير من الديانة الفارسية .

ثم لما كان الاتصال بالفلسفة اليونانية طوّعوا ديانتهم للفلسفة ، مما يفيد أن عقيدتهم تتطور بتطور احتياجاتهم ، مع المحافظة الأساسية على مفهوم أنهم يمثلون (مملكة الله) التى ستكون لها السيادة العالمية فى يوم ما .

ومع ازدياد نمو سلطان الكهنة وانتشار التربية الدينية ، فإن عقول العبرانيين لم تتحرر من الخرافات والأوهام ، ومن عبادة الأوثان ، (بل ظلت قُلل التلال والحراج مأوى للآلهة الأجنبية ، ومشهداً للطقوس الخفية ، وظلت أقلية من الشعب تسجد للحجارة المقدسة ، أو تعبد بعل وعشترت ، أو تنتبأ بالغيب على الطريقة البابلية أو تقيم الأنصاب وتحرق البخور ، أو تركع أمام الحية النحاسية أو العجل الذهبى ، أو تملأ الهيكل بضجيج الحفلات الوثنية) (١) .

وفى سفر هوشع ما يفيد أن العبريين القدماء كانوا يقدسون شجرة البلوط ، فهو ينكر عليهم أنهم (يذبحون على رعوس الجبال ، وينحرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم ، لأن ظلها حسن) - (أصحاب ٤ / ٤) .

والنبى حزقيال يعلن على لسان الرب : (إذا كانت قتلهم وسط

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٣٤٦ .

أصنامهم حول مذابحهم على كل أكمة عالية ، وفي رؤوس كل الجبال ،
وتحت كل شجرة خضراء ، وتحت كل بلوطة غيباء الموضع الذى قربوا فيه
رائحة سرور لكل أصنامهم) - (أصحاب / ٦) .

ومع هذا الإنكار فإن أول ظهور (يهوه) لإبراهيم كان عند شجرة
بلوط ، أو عند شجرة الترينتين ، كانت تنمو عند (شكيم) ، وتعد مكاناً
للنبوة ، وهناك ابتنى إبراهيم معبداً - (تكوين / ٢ - ٣) .

وهناك فى هذا المكان بجانب شجرة البلوط أو الترينتين التى كانت
تنمو فى (ممرا) ظهر له الرب فى شكل ثلاثة رجال ، بينما كان يجلس فى
خيمته وقت الظهيرة - (تكوين / ١٨) .

وفى ظل هذه الشجرة أكل الرب من اللحم وشرب من اللبن الذى
قدمه له الشيخ الجليل .

وكذلك ظهر الرب لجدهون ، وجلس تحت هذه الشجرة التى كانت
تنمو فى (عفرة) ، وأكل لحم جدى ، وشرب حساءه مع فطير غير
مخممر ، ثم اختفى الضيف السماوى ، فبنى جدعون معبداً عند هذا
المكان ، كما فعل إبراهيم - (القضاة / ٦) وبنى يشوع تحت شجرة
البلوط (حجراً) ليكون شاهداً على قومه ، عندما قال لهم : (إن هذا
الحجر يكون شاهداً علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به ،
فيكون شاهداً عليكم ، فلا تتحدوا إلهكم) - (يشوع / ٢٤) .

وقد دفنت عظام الملك شاول وعظام أولاده تحت شجرة بلوط ،
وعندما توفيت ديورا وصيفة رفقة دفنت تحت شجرة بلوط فى (بيت أيل) ،
من ثم سميت (شجرة البلوط الباكية) (١) .

(١) القولكلور فى العهد القديم - ج ٢ ص ١٠٣ .

من نافذة القول أن نكرر أن أحكام (الشريعة) جميعها خاصة بالمجتمع
اليهودى ، فإذا كانت العلاقة بين يهودى وغيره من الأممين الأرجاس ،
فالأمر يختلف - كما جاء فى التلمود - وعلى سبيل المثال :

إذا ضرب أعمى إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية .

الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو بقدر الفرق بين اليهود وغير
اليهود .

لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب ، وليس له أن يطعم غير
اليهود .

يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين ، ودنسا مع الدنسين .

لليهودى أن يسرق مال غير اليهودى ، لأنه يسترد أموال اليهود من
ساليها .

على الأممين أن يعملوا ، ولليهود أن يأخذوا نتائج هذا العمل .

مُصْرَح لليهودى أن يغش غير اليهودى ، ويحلف له أيما كاذبة .
لا يغفر الله ذنباً لليهودى يرُدُّ للأُمى ماله المفقود .

إذا رأى اليهودى أحد الأممين يقع فى حفرة فليسدها بحجر .

من العدل أن يقتل اليهودى كل أُمى ، لأنه بذلك يقرب قربانا
إلى الله .

إتيان زوجات الأجانب جائز .

الهدف من خلق غير اليهود خدمة اليهود ، وقد منحوا الصورة البشرية
ليسهل التعامل معهم (١) .

(١) اليهودية - ص ٢٧٢ / ٢٧٩ .

وَيُلَخِّصُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْمَوْقِفَ كُلَّهُ بِقَوْلِهِ عَلَى لِسَانِ الْيَهُودِ :
﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمِينِ سَبِيلٌ ﴾ (١).

هذه هي (الدولة الروحية) التي لا تراها العين إلا من خلال الآثام ،
ولا تلمسها اليد إلا متهيئة للانتقام ، جمعت شمل اليهود - رغم تشنتهم -
بالحق والضعيفة والقدرة على ارتكاب كل الموبقات .

ومع هذا ، فالرسول محمد - ﷺ - يقول في معاملتهم هم
والمسيحيين : [ألا من ظلم معاهداً ، أو انتقصه من حقه ، أو كلفه فوق
طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس ، فأنا حجيجه يوم القيامة] - رواه
أبو داود .

٦ - أسطورة .. بل لا معقول !!

بعد الطوفان ، حدث الرب نوحاً - عليه السلام - بقوله :

(وضعت قوسي في السحاب ، فتكون علامة ميثاق بيني وبين
الأرض ، ويكون متى أنشر سحاباً على الأرض ، وتظهر القوس في السحاب ،
أتى أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد ،
فلا تكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد) - (تكوين / ٩) .

التاريخ يحدث بأكثر من طوفان غير طوفان نوح ، ومع أن قوس قزح
كثيراً ما يظهر عقب المطر ، فإن المطر في أحيان كثيرة يستمر مع ظهوره
وبعد ظهوره ، لكن ، مع هذا ، يمكن فهم العبارة على أساس أن ظهور هذا
القوس مؤذن بانقطاع المطر ، وتكون الصورة جرت في إطار رمزي ، أو على
سبيل (حسن التعليل) ، أو يقصر المطر على الطوفان الذي قد يتسع مدلوله
لهذا الذي يتكرر حدوثه في شرق آسيا ، وفي أنحاء مختلفة من العالم التي
تفيض فيها مياه البحار والأنهار مع شدة العواصف فتحتاج أقطاراً ودولاً
كبيرة .

وقد لا يكون اعتراض على العبارة في إطار الواقع الفني .. لكن أن
يظهر الرب قائداً لبنى إسرائيل في صورة من الصور المرئية ، فيتحركون
بحركته : (قد ظهرت لهم عيناً لعين ، وسحابتك واقفة عليهم ، وأنت
سائر أمامهم بعمود سحاب نهاراً ، وعمود نار ليلاً) - (عدد / ١٤) -
فهذا ليس من الخيال البياني في شيء ، مجازاً أو استعارة أو كناية ، ولعله
أدخل في حساب الأسطورة ، إذا كانت الأسطورة صورة الحقيقة في إطار
خيال فطري يأخذ طابع الرمز ، أو الانطباع الداخلي ، في بساطة ، أو بدائية
لم تهذبها المدنية (١) .

(١) هناك من يرى أن الأسطورة (قصة خيالية ، قوامها الخوارق والأعاجيب التي لم تقع في =

ومثل هذا الحكم ينطبق على ماورد فى سفر (تكوين) (١) ، مما يتصل بقصة الخلق ، وقصة الطوفان ، وأسطورة بابل ، وغيرها من قصص الآباء الأولين ، إذ يرى كثير من المؤرخين أن معظمها يستمد أصوله من الأساطير المصرية القديمة أو البابلية أو الآشورية (٢) .

يذكر بارنز أن الباحثين المحدثين مثل دليتزس وونكلر وروجرز قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد الدينية فى الديانة اليهودية ، وبخاصة فى اقتباس قصة الخليقة وبرج بابل والطوفان ، وما إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية ، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية فى اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح (٣) .

ولو أننا رجعنا إلى كتاب (الفولكلور فى العهد القديم) لجيمس فريزر نجد أن قصة حواء من ضلع آدم تشبه الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى التى تخكى أن آدم لما استغرق فى نومه انتزع منه الإله (تاروا) عظمة من عظامه ، صنع منها امرأة ليتخذها زوجة له .

والتار وسكان سيبيريا يطوِّرون القصة تأثراً بفهمهم للمرأة ، فينسبون إلى الشيطان أنه لمس صدر الرجل فبرزت عظمة من بين ضلوعه ، وحينما سقطت على الأرض أخذت تنمو فصارت المرأة .

= التاريخ ، ولا يقبلها العقل) ، لكن هذه القصة الخيالية - مهما سط الخيال بمولفها - لا بد أن يكون لها واقع نفسى ، عبر عنه بهذه الصورة التى تجاوزت حد المقول ، أو المتاد من حياة الناس .

(١) يقول القس مشرقى عما جاء فى هذا السفر : إنه (إعلانات ورؤى وأقوال شفوية ما بين آدم وموسى حين بدأ الرضى المكتوب) - مصادر الكتاب المقدس - ص ١١ - ويقول الدكتور صبرى جرجس : (إنها أساطير كتبت بعد عدة قرون ، ونقلت عن ذاكرة أفراد من العبرانيين ، تناقلوها جيلاً بعد جيل) - التراث اليهودى الصهيونى - ص ٥٣ - عالم الكتب بالقاهرة - ١٩٧٠ .

(٢) التوراة الهيروغليفية - ص ٥ .

(٣) على أدهم - تاريخ التاريخ - كتابك عدد ٦ - دار المعارف ١٩٧٧ - ص ٢٠ .

وفكرة خداع الحية للإنسان ، وسلبها منه الخلود تتمثل فى ملحمة جلجامش .

أما عن قايين الذى جعل الله له علامة (لكيلا يقتله كل من وجده) ، فإن هذه العلامة - مع التجاوز عن عدم وجود من يقتله فى ذلك الحين - لا تعدو أن تكون علامة القبيلة التى هى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، ولا تزال القبائل إلى اليوم تتخذ صورا من هذا الشعار للأفراد وللماشية .

وما يشير الدهشة أن يصدر الله قراراً بعدم قتل القاتل بعد أن يحكم عليه باللعنة : (ملعون أنت فى الأرض التى فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك) ، فكيف تجتمع اللعنة مع شعار الحماية هذا ، إلا إذا كان المقصود أن يتعذب ذاتياً بسبب عدوانه على من لم يمد إليه يداً بسوء ؟ .

لعله لون من القتل المعنوى عن طريق (العزل) ، كما يفعل بالقاتل إلى اليوم أهالى جزيرة (دويو) البدائيون جنوب شرق غينيا الجديدة ، وكما يفعل أبناء (الأكيكويو) فى شرق أفريقيا ، حتى لا تنتقل عدوى جريمة القتل إلى الآخرين .

إن سكان مراكش يرون القاتل شخصاً نجساً ، على نحو ما ، فالسم ينضح من تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يديه يصاب بداء وبيل ، والحيوان الذى يذبحه غير صالح للأكل ، تماماً كما جاء فى سفر لاويين : (لا تقلدكم الأرض بتنجيسكم إياها ، كما قذفت الشعوب التى قبلكم) ، وهذا التنجيس يتم بسبب الدماء التى تسيل عليها فتشربها ، كما فعل قايين ، مع أن تاريخ اليهود قائم على سفك الدماء ، لكنه تعبير عن الحالة النفسية التى تصيب القاتل ، وتصيب أهل القتل ، وتصيب المجتمع الذى تحدث فيه الجريمة ، فالخاميون ظل يطارده شبح أمه إيريقيلى ،

في التراث الإغريقي ، فلا يجد مكاناً يعويه إلا المكان الذي عرّاه البحر من بعد أن سفك دم أمه ، وأفلاطون يحدّثنا عن شيخ الرجل الذي قتل حديثاً يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات ، كما هو الحال بالنسبة للهامة العربية التي تظل تنادى : (اسقوني بدم قاتلي) ، وقد استغل شيكسبير هذا التصور في مسرحية هاملت ، وتحدّثت قصص عربية وأوربية كثيرة عن هذه الأشباح .

ومع ما في قصة الطوفان الذي أغرق العالم كله من تعارض مع مبادئ الجيولوجيا البسيطة ، فإنها تشبه طوفان (أكيسوثروس) الملك العاشر الذي حكم بابل ، وقد أخبر الإله (كرونوس) أن طوفاناً سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعاً ، وطلب منه أن يبنى فلماً يأوى إليه هو وأقرباؤه وأصحابه ، وأن يختزن فيه زاداً من اللحم والشراب ، كما يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع ، وقد استقر به الفلك عند جبال أرمينيا ، حيث لا يزال جزء منه مطروحاً على هذه الجبال حتى اليوم .

وقد تحدّث ملحمة جلجامش عن طوفان آخر ، بطله (أوتنا بشتيم) ، وهناك حكايات إغريقية قديمة عن الطوفان ، بطلها (نوى) ، وهو الاسم الإغريقي المرادف لكلمة (نوح) ، كما أن هناك حكايات هندية ، وفي الهند الصينية ، وفي الأرخبيل الهندي ، وإستراليا ، وفي أمريكا الجنوبية والوسطى ، مما يفيد أنه تصور إنساني عام ، لا يقوم على النقل والاقتراس من تراث الآخرين ، بل على الاستجابة البشرية لواقع ، يحدث رهبة ، تأخذ شكلاً أسطورياً .

(وقد افترض بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة في البحث أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية في فترة أسرههم في بابل ، وبناء على ذلك ، لا يرجع تاريخ الرواية العبرية إلى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد) (١) .

(١) الفولكلور في العهد القديم - ج ١ ص ١١٥ .

كما نجد في أسفار الأنبياء والمزامير إشارات كثيرة إلى هذا الأثر الأسطوري الأجنبي .

نجد مثلاً حرب (يهوه) مع التنين - (أشعيا / ٢٧ و ٥١) - كذلك الحيوان الخرافي القديم (تهوم) ، وهو يرتعد أمام (يهوه) ، وانتصر عليه (يهوه) وصرعه - (مزمور / ٧٧) - (وأشعيا / ١٤ و ٤٤ و ٥١) - (وزكريا / ١٠) - وكذلك الحيوان الذي يتسلع الآدميين ، ألا وهو (شاول) ، ولا يقدر عليه إلا (يهوه) فقط ، الذي أنقذ الإنسان منه - (مزمور / ٤٩) - (ومزمور / ٨٦ - وأشعيا / ٥ / والأمثال / ١ / وحقوق / ٢) - كذلك نجد حديثاً عن نجم الصبح الذي أراد أن يضع عرشه فوق عرش (يهوه) ، فهوى إلى الأعماق - (أشعيا / ١) - كما نجد حديثاً عن الإنسان الأول الذي خلق قبل الجبال ، واستمع إلى الله ، ومجلسه الحكمة والمعرفة - (أيوب / ١٥) .

وفي سفر (عدد) يروى أن (قورح بن بصهار بن قهات بن لاوى وداثام وأبيرام ابنا ألياب وأون بن فالت ، بنو راويع) ثاروا على موسى وأخيه هارون بسبب الامتيازات الجائرة التي أختص بها هارون وبنوه ونسل لاوى جميعاً ، وانضم إليهم من رؤساء الجماعة مائتان وخمسون رجلاً ، (فاجتمعوا على موسى وهارون ، وقالوا لهما : كفكما إن كل الجماعة بأسرها مقدسة ، وفي وسطها الرب ، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب) (١٤) .

(فلما سمع موسى سقط على وجهه ، ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً : غداً يعلن الرب من هو له ، ومن المقدس ، حتى يقربه إليه) .

واتفقوا على أن يقدموا للرب تقدمات ، ليتبين إلى جانب من سيقف الرب ، وقال موسى : (اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ، ولا تمسوا شيئاً

مما لهم ، لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم) ، ثم قال (إن مات هؤلاء كموت كل إنسان ، وأصابتهم مصيبة كل إنسان ، فليس الرب قد أرسلنى ، ولكن إن ابتدع الرب بدعة ، وفتحت الأرض فاهاً ، وابتلعتهم وكل ما لهم ، فهبطوا أحياء إلى الهاوية ، تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب) .

(فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم ، وفتحت الأرض فاهاً ، وابتلعتهم وبيوتهم) .

(وخرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين والخمسين رجلاً) الذين انضموا إليهم - (عدد / ١٦) .

هل من المعقول فى شيء أن تنطوى هذه الأحداث تحت إطار دينى ١٩ .

مجرد احتجاج على وضع شاذ يحتاج إلى تعليل ، فيكون متحدّ من الرسول وتهديد وعقاب تهتّر له السنن الكونية ١٩ .

وإذا كان بنو إسرائيل اعتزلوا النافرين ، أما كان هذا يكفى عقاباً لهم ١٩ .

أما كان يكفى برهاناً على تأييد الله لموسى ، وغضبه على النافرين الذى لم يرفعوا عصا ، ولم يهرفوا أو يجذفوا - أن تنزل نار السماء تلتهم قرايين الشعب من دون النافرين ١٩ .

أما كان فرعون أحق بهذا العقاب (الفريد) ، أو أما كان الأجدر أن يعامل موسى لهذه (الزوبعة) ، وهو فى حاجة إلى لَمّ شمل الجماعة ، حتى يخرج من (التيه) ١٩ .

لكن روح الاستبداد والتسلط الكهنوتى اتخذت من السماء وسيلة سيطرة ويطش وتنكيل ، حتى لا تنبت فى الأرض ثابتة تأخذ نصيبها من الحياة الحرة الكريمة .

لهذا لم يكتف موسى - فى زعمهم - بما حدث ، بل أعطى رؤساء بنى إسرائيل عصياً ، وأعطى هارون ، ثم وضع (موسى العصى أمام الرب فى خيمة الشهادة ، وفى الغد دخل موسى إلى خيمة الشهادة ، وإذا عصا هارون لبيت لاوى قد أفرخت ، أخرجت فروخاً ، وأزهرت زهراً ، وأنضجت لوزاً .. وقال الرب لموسى : ردّ عصا هارون لأجل الحفظ علامة لبنى التمرّد) - (عدد / ١٧) .

هذا التصوير الخيالى القائم على ادعاء الوقوع أجدر ألا يدخل فى حساب الأسطورة أو البيان الفنى ، بل فى حساب الإيهام والتغوير .

ومن هذا أن يتكرر انشقاق الماء من أجل نجاة بنى إسرائيل .

(عند إتيان حاملى التابوت إلى الأردن ، وانغماس أرجل الكهنة حاملى التابوت فى ضفة المياه ، والأردن تمتلئ إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد ، وقفت المياه المنحدرة من فوق ، وقامت نذاً واحداً بعيداً جداً عن أدام ، المدينة التى إلى جانب صرّتان ، والمنحدرة إلى بحر العربة ، بحر الملح ، انقطعت تماماً ، وعبر الشعب مقابل أريحاء ، فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الرب على اليابسة فى وسط الأردن راسخين ، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة ، حتى انتهى جميع الشعب من عبور الأردن) - (يشوع / ٣) .

صورة مهتزة من معجزة موسى ، لأن موسى - عليه السلام - حين ضرب البحر فانفلق كان مطارداً ، ولم يكن مهاجماً ، وكان (رسولاً) يحمل هداية ، أوفى سبيل حملها ، ولم يكن مجرد قائد يقيم دولة على حساب شعوب ارتبط وجودها بوطنها .

ومعجزة (بحر سوف) ارتبطت بإمكانيات مادية طوّعت (الحدث

لمنطق الواقع الإنسانى ، فقد أجمع ما وصل إليه العلم التاريخى والجغرافى أن (بحر سوف) جنوب شرق بحيرة المنزلة ، مجرد (مستنقعات) ضحلة ، تخضع مياهها لحركة الرياح ، ومن ثم (مدّ موسى يده إلى البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة ، وانشق الماء) - (خروج / ١٤) - ولما عبر بنو إسرائيل تغير مجرى الرياح ، فأطبق الماء على فرعون وقومه ، وفى حالة الانطباق لا يحتاج الإغراق إلى أعماق .. أما فى بحر (يشوع) الأردن ، فقد كان النهر ممتلئاً إلى جميع شطوطه ، لهذا خشى الرب عدم (تصديق) هذه (المعجزة) ، فكلّم يشوع أن يحضر اثنى عشر رجلاً ، (رجلاً واحداً من كل سبط) ، ويأمرهم أن يحملوا (من هنا من وسط الأردن ، من موقف أرجل الكهنة ، راسخة ، اثنى عشر حجراً) ، ويضعونها (فى البيت الذى تبيتون فيه الليلة) ، حتى (إذا سأل غداً بنوكم قائلين : ومالكم وهذه الحجارة ، تقولون : إن مياه الأردن قد انغلقت أمام تابوت عهد الرب ، فتكون هذه الحجارة تذكاراً لبني إسرائيل إلى الدهر) - (يشوع / ٤) .

وحتى يعظم أمر يشوع ، كما كان أمر موسى ، فإن (الكاتب) لا يفوته أن يجمع بين الحداثين الخارقين على لسان يشوع :

(إذا سأل بنوكم غداً آباءهم ، قائلين : ما هذه الحجارة ، تعلمون ببنكم قائلين : على اليابسة عبر إسرائيل هذا الأردن ، لأن الرب إلهكم قد يّسّ مياه الأردن من أمامكم ، حتى عبرتم ، كما فعل الرب إلهكم ببحر سوف الذى يّسه من أمامنا حتى عبرنا) - (يشوع / ٤) .

ويكاد يضع فى يدنا مفتاح هذا السر ، حين استمر قائلاً :

(لكى تعلم جميع شعوب الأرض يد الرب أنها قوية ، لكى تخافوا الرب إلهكم كل الأيام) - (يشوع / ٤) .

فكان الهدف من (المعجزة) بث روح الخوف فى نفوس الأعداء ، مع تقوية معنويات بنى إسرائيل ، وتأديبهم أيضاً .

ونلاحظ أن (كاتب) سفر يشوع جعل (الرب) يخاطب يشوع مباشرة ، كما فعل مع موسى ، مع أن الله تحدّث إلى هارون ومريم قائلاً : (إن كان منكم نبي للرب فالرؤيا ستعلن له ، فى الحلم أكلمه ، وأما عبدى موسى فليس هكذا ، بل هو أمين فى كل بيتى ، فما إلى فم ، وعياناً أكلمكم معه ، لا بالألغاز) - (عدد / ١٢) .

فمن ذا نصديق ؟ وإلى أى مدى تتسع قدرتنا على التصديق ؟

(حدث لما كان يشوع عند أريحا ، أنه رفع عينيه ونظر ، وإذا برجل واقف قبالة ، وسيفه مسلول بيده ، فسار يشوع إليه ، وقال له :

هل لنا أنت أو لأعدائنا ؟ فقال : كلا ، بل أنا رئيس جند الرب ، الآن أتيت) - (يشوع / ٥) .

اشترك الرب بجنود مدججين بالسلاح مع يشوع المنتصر ، ضد مدينة معتدى عليها ، فلما سقطت المدينة قال يشوع لجنوده : (احترزوا من الحرام ، لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام ، وتجعلوا محلة إسرائيل محرمة ، وتكذبوها) .

وكان مفهوم (الحرام) الذى تكرر فى هذا (الأمر اليومى) أربع مرات - ويعون من الرب - (حرموا كل ما فى المدينة ، من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ، يحد السيف ، وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب ، وتدخل فى خزانة الرب) ، ثم بعد ذلك : (أحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها) - (يشوع / ٥) .

ويمضي هذا الخيال الجامع بكاتب سفر (الملوك الأول) ، فيحكى أن (إيليا التشبى) رجل الله (كانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً ، وخبز ولحم مساء ، وكان يشرب من النهر) ، فلما يبس النهر ذهب إلى امرأة يطلب ماء وكسرة خبز ، ولم يكن عندها غير (كف من الدقيق فى الكوار ، وقليل من الزيت فى الكوز) ، فقال الرب إله إسرائيل : (إن كوار الدقيق لا يفرغ ، وكوز الزيت لا ينقص ، إلى اليوم الذى يعطى الرب مطراً على وجه الأرض) .. ولأن الغربان كان يوسعها أن تكفيه هذا العناء ، فكان المرأة هى المقصودة بهذا الخير ، أو هذه البركة .

ثم إن ابن المرأة مرض حتى الموت ، فشكت إلى إيليا حاله : (فصرخ إلى الرب ، وقال : أيها الرب إلهي ، أيضاً إلى الأرملة التى أنا نازل عندها قد أسأت بإماتتك ابنها ؟ يارب ، إلهي ، لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه ، فسمع الرب لصوت إيليا ، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش) - (الملوك الأول / ١٧) .

معجزات عيسى - عليه السلام - تجرى على يد إيليا ، فى صورة استنكار وقح لقضاء الرب ، وأمر جاف لا خشية معه ولا رجاء ، واستجابة من الرب غير وانية !! .

لهذا جرؤ إيليا ، فتحدى أربعمئة وخمسين نبياً للبعل ، أن يقدموا القربان إلى إلههم ، ويقدم هو القربان إلى إلهه ، دون إشعال نار الرب ، (فسقطت نار الرب ، وأكلت الخرقه والحطب والحجارة والتراب ، ولحست المياه التى فى القناة) - (الملوك الأول / ١٨) - وبهت الذين كفروا !! .

فلما أرسل إليه ملك السامرة (رجلاً على رأس خمسين) يطلبون إليه أن ينزل من الجبل ليخاطب الملك ، استكثر هذا ، وقال : (إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء ، وتأكلك أنت والخمسين لك ، فنزلت نار

الله من السماء ، وأكلته هو والخمسين الذين له) - (الملوك الثانى / ١) - ثم عاد الملك فأرسل رئيس خمسين ثانياً ، وثالثاً ، وتكررت المسألة !! .

تقول : ما ذنب هؤلاء الرسل ١٩ فيكون الجواب : وما ذنب المائتين والخمسين الذين أكلتهم النار على يد موسى ؟ والفارق بين النبي والرسول متمثل فى الفارق العددي بين المائة والخمسين والمائتين والخمسين .

ثم .. أراد إيليا عبور الأردن ، ولم تكن هناك مطاردة من عدو ، ولا سبب يحول دون أن يعبر راكباً سفينة أو قطعة خشب أو يمشى على الماء ، لكن .. لماذا لا يفعل ما يفعله موسى ، ومن بعده يشوع ١٩ أليس نبي الله ١٩ . لهذا أخذ رداءه ، (ولفه) ، وضرب البحر فانطلق إلى هنا وهناك ، فعبرا كلاهما - مع تابعه أليشع - فى اليبس) .

وفيما هو وأليشع (يسيران ويتكلمان ، إذا مركبة من نار ، وخيل من نار ، ففصلت بينهما ، وصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء ، وكان أليشع يرى وهو يصرخ : يآبى ، يآبى ، مركبة إسرائيل وفرسانها ، ولم يره بعد ، فأمسك بثيابه ، ومزقها قطعتين ، ورفع رداء إيليا الذى سقط عنه ، ورجع ووقف على شاطئ الأردن ، فانفلق إلى هنا وهناك ، فعبر أليشع) .. ثم صعد إلى بيت أيل ، (وفيما هو صاعد فى الطريق ، إذا صبيان صغار خرجوا من المدينة ، وسخروا منه ، وقالوا له : اصعد يا أقرع ، اصعد يا أقرع ، فالتفت إلى ورائه ، ونظر إليهم ، ولعنهم باسم الرب ، فخرجت دبتان من الوعر ، واقتستا منهم اثنين وأربعين ولداً) - (الملوك الثانى / ٢) .

إعدام بالجملة من أجل كلمة جرت بها ألسنة الصبية ، وكان يكفى أن تطارد الدبتان الصبية ، أو أن يصاب الصبية بالقراع ، إذا لم يكن سبيل إلى المغفرة والرحمة !! .

(وفى ذات يوم عبر أليشع إلى شوشم ، فأكرمه امرأة عاقر ، فطلب إليها

أن تتمنى ، فطلبت أن تنجب ، فقال : فى هذا الميعاد نحو زمان الحياة (تحتضن ابناً) ، وكبر الولد ، وأصابته ضربة شمس ، قضت عليه ، (ودخل أليشع البيت ، وإذا الصبى ميت ، ومضطجع فى سريره .. فاضطجع فوق الصبى ، ووضع فمه على فمه ، وعينيه على عينيه ، ويديه على يديه ، وتمدد عليه فسخن جسد الولد) ، وتكرر هذا ، فعطس الصبى سبع مرات ، ثم فتح عينيه - (الملوك الثانى / ٢) .

ثم أطعم أليشع مائة رجل من عشرين رغيفاً ، وفضل منهم - (الملوك الثانى / ٥) .

وشفى (نعمان) رئيس جيش ملك آرام من برصه - (الملوك الثانى / ٦) .

ودعا على عبيد ملك آرام الذين أرسلهم لياتوه بأليشع ، فضربهم الرب (بالعمى ، كما قال أليشع) - (الملوك الثانى / ٦) .

وحين مات ، طرحت جثة رجل فى قبره ، و (حين مسّ عظام أليشع عاش وقام على رجله) - (الملوك الثانى / ١٣) - وبقي أليشع ميتاً لا .

هكذا جمع (الكاتب) كل ما استطاع من معجزات ، وأقدر أليشع على أن يحيى العظام وهو ميت ، دون أن يسأل نفسه بشأن عظام أليشع ، لماذا بقيت فى قبر تطرح فيه جثث الآخرين ، ولم يصعد - كإيليا - فى العاصفة راكباً مركبة إسرائيل ، ليلقى الرب ١٢ .

إذا كانت عظمة النبی بكثرة معجزاته ، كأنها نياشين من الرب ، فقد كان أليشع أحقّ بالصعود إلى السماء من أستاذه إيليا ، لكن يبدو أن (الكاتب) ممن يرون أن المعجزات دليل عجز إنسانى بقدر ما هى دليل قدرة الله .

يلاحظ أن المعجزات تتلاصق ، وتزداد إينغاً فى الخيال ، كلما قلّ نصيب (الشعب) من النصر ، أو كلما ازداد حظّه من الكفر والفسوق والعصيان ، أو فى الوقت الذى يتمثل غضب الرب وسخطه فى هزائم وسبى وشتات .

أراد سنحاريب ملك آشور أن يدخل أورشليم ، فكان (أن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مائة ألف وخمسة وثمانين ألفاً ، فانصرف سنحاريب ملك آشور ، وذهب راجعاً ، وأقام فى نينوى) - (الملوك الثانى / ١٩) .

ولم يصب ملاك الرب سنحاريب بسوء ، مع أن موته وموت قاداته كان يكفى ، لكن (الكاتب) أراد أن يذيق سنحاريب عذاب الرعب والفزع والحسرة ، وأن يظل فى حياته عبدة لغيره ، وبخاصة أن (الكاتب) ضمن ألا يفكر سنحاريب فى العودة مرة ثانية ، لأنه لن يجد رجالاً بعد ذلك ، ثم إن بلاده ستقع فى أزمة اجتماعية حادة ، وقد أصبحت آشور مجتمعاً من النساء ١١ .

ونصل إلى سفر (حزقيال) فنجد خيال أديب خلاق ، له ثقافته الواسعة فى عالم الأساطير ، لكنه يخلق شيئاً تثار فى قيمته : (نظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال ، سحابة عظيمة ، ونار متواصلة ، وحولها لمعان ، ومن وسطها كمنظر النحاس الالامع من وسط النار ، ومن وسطها شبه أربعة حيوانات ، وهذا منظرها ، لها شبه إنسان ، ولكل واحد أربعة أوجه ، ولكل واحد أربعة أجنحة ، وأرجلها أرجل قائمة ، وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل ، وبارقة كمنظر النحاس المصقول ، وأبدى إنسان تحت أجنحتها ، على جوانبها الأربعة ، وجوهها وأجنحتها لجوانبها الأربعة ،

وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه ، لم تدر عند سيرها ، كل واحد يسير إلى جهة وجهه ، أما شبه وجوها فوجه إنسان ووجه أسد لليمين لأربعتها ، ووجه ثور من الشمال لأربعتها ، ووجه نسر لأربعتها ، فهذه أوجهها ، أما أجنحتها فمبسوطة من فوق ، لكل واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه ، واثنان يغطيان أجسامها ، وكل واحد كان يسير إلى جهة وجهه ، إلى حيث تكون الروح ، لتسير تسير ، لم تدر عند سيرها ، أما شبه الحيوانات فمظهرها كجمر نار متقدة ، كمنظر مصابيح هي سالكة بين الحيوانات ، وللنار لمعان ، ومن النار كان يخرج برق ، الحيوانات راکضة وراجعة كمنظر البرق .. فنظرت الحيوانات ، وإذا بكرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات ، بأرجعها الأربعة ، منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد ، وللأربع شكل واحد ، ومظهرها وصنعتها كأنها كانت بكرة وسط بكرة ، لما سارت سارت على جوانبها الأربعة ، لم تدر عند سيرها ، أما أطرها فعالية ومخيفة ، وأطرها ملائمة عيوناً حولها للأربع ، فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها ، وإذا ارتفعت الحيوانات من الأرض ارتفعت البكرات ، إلى حيث تكون الروح ، لتسير يسرون ، إلى حيث الروح لتسير ، والبكرات ترتفع معها ، لأن روح الحيوانات كانت في البكرات ، فإذا سارت تلك سارت هذه ، وإذا وقفت تلك وقفت ، وإذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت البكرات معها ، لأن روح الحيوانات كانت في البكرات ، وعلى رءوس الحيوانات شبه مقبب ، كمنظر البللور الهائل منتشراً على رءوسها من فوق ، وتحت المقبب أجنحتها مستقيمة الواحد نحو أخيه ، لكل واحد اثنان يغطيان من هنا ، ولكل واحد اثنان يغطيان من هناك أجسامها ، فلما سارت سمعت صوت أجنحتها كخريف مياه كثيرة ، كصوت القدير ، صوت ضجة ، كصوت جيش ، ولما وقفت أرخت أجنحتها ، فكان صوت من فوق المقبب الذي على رءوسها ، وفوق المقبب الذي على رءوسها شبه عرش ، كمنظر حجر

العقيق الأزرق ، وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق ، ورأيت مثل منظر النحاس اللامع ، كمنظر نار داخلة ، من حوله ، من منظر حقويه إلى فوق ، ومن منظر حقويه إلى تحت رأيت مثل منظر نار ، ولها لمعان من حولها كمنظر القوس التي في السحاب يوم المطر هكذا منظر اللمعان من حوله ، هذا منظر شبه مجد الرب) - (حزقيال ١) .

وكان مجد الرب حقاً ، جاء في هذا الإطار الحيواني الغريب الذي يذكر بالحيوانات الخرافية في الأوديسة اليونانية ، وخاورنامة الفارسية ، بل برءوس لوبيانان في الأساطير الأوجاريتية - من أجل أن تنبعث في نفس حزقيال روح النبوة !! .

ويتكرر هذا الوصف بصورة أخرى ، كلما التقى حزقيال بالرب ، ليجد من يقول في نهاية القرن العشرين إنه صورة (طبق الأصل) من الأطياف الطائرة التي تحمل مخلوقات كونية ، ومن ثم يمكن القول أنها في زمن حزقيال كانت تحمل بشائر السماء إلى حزقيال النبي !! ولعل أحد هذه (الأطياف) هو الذي حمل (إيليا) !! .

** وقد تتجلى النزعة الأدبية - دون الإغراب الجامح - في تصوير عودة الحياة والقوة إلى إسرائيل ، بعد أن امتصتها سنوات النفي الطويل .

فالرب أخذ حزقيال ، ومر به على بقعة ملأى عظاماً (يابسة جداً ، فقال له : بابن آدم ، أحيا هذه العظام ؟ فقلت : يا سيد ، أنت تعلم ، فقال لي : تنبأ على هذه العظام ، وقل لها : أيتها العظام اليابسة ، اسمعي كلمة الرب ، هكذا قال السيد لهذه العظام ، هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون ، وأضع عليكم عصباً ، وأكسيكم لحماً ، وأبسط عليكم جلداً ، وأجعل فيكم روحاً ، فتحيون ، وتعلمون أني أنا الرب .. ففتبأت كما أمرت ، وبينما أنا أنبأ كان صوت ، وإذا رعى ، فتقاربت العظام ، كل عظمة إلى عظمة ،

وتنظرت ، وإذا بالعصب واللحم كساها ، وسط الجلد عليها من فوق ، وليس فيها روح ، فقال : تنبأ للروح ، تنبأ يابن آدم ، وقل للروح : هكذا قال السيد الرب ، هلم ياروح من الرياح الأربعة ، وهب على هؤلاء القتلى ، ليحيوا ، فتنبأت كما أمرنى ، فدخل فيهم الروح ، فحيوا ، وقاموا على أقدامهم ، جيش عظيم جداً جداً .. ثم قال : يابن آدم ، هذه العظام هى كل بيت إسرائيل) - (حزقيال / ٣٧) .

قد يشم القارئ فى هذه القصة صورة الإحياء الواردة فى سورة البقرة (٢٥٨ / ٢٥٩) من القرآن الكريم ، ومع هذا فقد عمل خيال (الكاتب) عملاً فنياً ، وإن أخذ عليه أن تتجمع العظام ، ويكرب العصب واللحم والجلد ، بلا روح ، كأنه يقيس على خلق آدم من الطين ، ثم يكون الروح من الرياح الأربع ، واجتماع الرياح الأربعة فى الرمز قد يوحى بالإعصار الذى لا در له فى القصة ، إلا إذا كان القصد الإشارة إلى طبيعة التمرد الإسرائيلى ، ولا يتسع السياق له ، وبخاصة أنه بعد ذلك مباشرة يتحدث عن توحيد أسباط بنى إسرائيل ، مما يرجح أنه فكر فى التمزق الذى منى به الشعب ، فالرياح الأربع تجمع الشتات ، وفى هذا التجمع يقول الرب : (وأنت يابن آدم ، خذ لنفسك عصا واحدة ، واكتب عليها ليهودا ولبنى إسرائيل ورفقائه ، وخذ عصا أخرى ، واكتب عليها ليوسف عصا أفرام ، وكل بيت إسرائيل ورفقائه ، واقرنهما الواحدة بالأخرى ، كمعصا واحدة ، قصير واحدة فى يدك) - (حزقيال / ٣٧) .

ويلاحظ أن جيش العظام العظيم جداً كان عارياً ، كأنما يوحى بأن العرى سيظل حطّ بنى إسرائيل فريضة دهرية !! .

*** وبعد عودة الحياة إلى إسرائيل ووحدها - مما تدعو إليه بعد السبي عوامل نفسية ، لتقوية عزم حزقيال على الكفاح ، وبث روح الأمل والتفاعل

فى الشعب - كان اهتمام الرب ببناء الهيكل ، فيتناول أدق التفاصيل :

(أتى بى إلى أرض إسرائيل ، ووضعنى على جبل عال جداً ، عليه مدينة من جهة الجنوب ، ولما أتى بى إلى هناك ، إذا برجل منظره كمنظر النحاس ، وبيده خيط كتان ، وقضبة القياس ، وهو واقف بالباب ، فقال لى الرجل : يابن آدم انظر بعينيك ، واسمع بأذنيك ، واجعل قلبك إلى كل ما أريكه ، لأنه لأجل إرائتك أتى بك إلى هنا ، أخير بيت إسرائيل بكل ما ترى .. وإذا بسور) - (حزقيال / ٤٠ - ٤٨) .

ويستمر فى وصف كل ما لا يخطر ببال ، مما لا يمكن استيعابه مرة واحدة ، وكان الأولى أن يقدم الرب بهذا رسماً إيضاحياً على لوح كلوحى شريعة موسى ، أو أن يكتب هذه التفاصيل ، أو أن تكون هذه (الإراءة) للبناء الذى سينهض بالبناء .. لكن حزقيال ليس أقل شأنًا من موسى ، فليكن تعامل الرب على أساس من المساواة !! .

ويلاحظ أيضاً أن هذا الرجل النحاس الذى هو أشبه برجال (المركبة) السابقة يمكن أن يكون قد حطّ على الجبل العالى جداً عن طريق الطبق الطائر ، وبهذا تصدق المقولة التى تزعم أن الأهرامات بناها رجال هبطوا من السماء !! .

أما سفر (دانيال) فإنه يقوم على كثير من الرؤى التى لا تكاد تخرج عن أن تكون تقليداً لما ورد فى قصص الأنبياء السابقين .

حلم فرعون الذى فسّره يوسف ، فانتقل به من السجن إلى أن يصير قيماً على خزائن مصر - تكرر فى حلم نبوخذ نصر الذى فسّره دانيال ، فانتقل من حكم بالإعدام إلى (رئيس الشحن على جميع حكماء بابل) ،

فى موقع اقتصادى قريب من موقع يوسف .

وإبراهيم - كما ورد فى القرآن ، وأغفلت التوراة - كاد له الكفار ،
﴿ قالوا : حرّقه ، وانصروا آلهمكم ، إن كنتم فاعلين ﴾ (١) ، فنجاه الله
من كيدهم : ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ (٢) - أبو
الأنبياء هذا أصبح (شدرخ وميشخ وعبدنغو) الذين رفضوا السجود لتمثال
نبوخذ نصر ، فأمر (بأن يحموا الأتون سبعة أضعاف ، أكثر مما كان معتاداً
أن يحمى ، وأمر جبابرة القوة فى جيشه بأن يوثقوا شدرخ وميشخ وعبدنغو ،
ويلقروهم فى أتون النار المتقدة ، ومن حيث إن كلمة الله شديدة ، والأتون قد
حمى جداً ، قتل لهيب النار الرجال الذين رفعوا شدرخ وميشخ وعبدنغو) ،
أما هؤلاء الثلاثة فكانوا (يتمشون وسط النار ، وما بهم ضرر) ، ومعهم
رابع (شبيه بابن الإله) - (دانيال / ٣) .

قد يقال هذا الخيال مستمد من أسطورة هندية تقول إن راماً تزوج من
سيتا بنت الملك جناقا ، ولكن رافنا الشرير اختطفها ، فلما استعادها راماً
بعد قتل رافنا ، اتهمها بأن رافنا قد طوقها بذرعيه ، فدنسها بذلك إلى
الأبد ، وفى سبيل إثبات عفتها ألقت بنفسها فى النار ، لكن الإله براهما
حسرها عنها اللهب ، وخرجت بغير سوء ، يقودها أجنى إله النار ، الذى
أعادها إلى راماً (٣) ، فأصبحت النار وسيلة تبرير أو تبرئة أو تطهير .

مع احتمال وصول الفكر اليهودى إلى الأسطورة الهندية ، فإن قصة
إبراهيم أقرب وألصق وأبسط .

وتكرر الحدث مع دانيال الذى فكر داريوس (أن يوليه على المملكة

(١) الأنبياء / ٦٨ .

(٢) الأنبياء / ٦٩ .

(٣) التوراة الهيروغليفية - ص ١٧٦ / ١٧٧ .

كلها) ، لثقته به ، ولكفاءته ، فنقم عليه الوزراء والمرازبة ، وكادوا له عند
الملك ، فألقى به (فى جبّ الأسود ، وأتى بحجر ووضع على فم الجب ،
وختمه الملك بخاتمه وخاتم عظمائه ، لئلا يتغير القصد فى دانيال) .

وأصيب الملك ليلته بالأرق ، فذهب فى الصباح الباكر ليرى من أمر
دانيال ، فقال له دانيال : (إلهى أرسل ملاكاً وسد أفواه الأسود ، فلم
تضرنى ، لأننى وجدت بريئاً قدامه) .

ففرح الملك ، وآمن برب دانيال (الإله الحى القيوم إلى الأبد ،
وملكوته لن يزول ، وسلطانه إلى المتهى) .

ثم طرح فى جبّ الأسود الذين كادوا لدانيال (وأولادهم ونساءهم ،
ولم يصلوا إلى أسفل الجب حتى بطشت بهم الأسود ، وسحقت عظامهم)
(دانيال / ٦) .

هذه الصور الخيالية الواردة فى هذا الفصل ، لو أنها وردت فى قلم
أديب ، لاتهمناه بالسرقة والخلط والإحالة والتزييف والادعاء ، والاضطراب
النفسى أيضاً ، لأنها تخلو من الابتكار والصدق والتناسق ، ولأن الهدف
الذى ترمى إليه لا يكاد يتحقق إلا فى رءوس مختلطة ، أضرت بها
الخرافات ، واستنزفتها الأباطيل .

ومما يؤيد اختلاق الكثير من الأحداث الواردة أن التاريخ لا يؤيد ما جاء
فى سفر دانيال ، من أن (بلشاصر) كان ملكاً وابناً خليفة لنبوخذ نصر ،
كما أن الذى غزا بابل ، وحكم المملكة ، لم يكن داريوس الميذى ، بل
قورش ملك الفرس ، وغير تاريخى هذا الجنون الذى أصاب نبوخذ نصر ،
ولازمه سبعة أعوام ، كما أن فى هذا السفر تميز كل قصة عن الأخرى ،

فتلك التي تتحدث عن الرجال الثلاثة لا تذكر شيئاً عن دانيال ، بينما يقحم هؤلاء الرجال في الرؤية التي تتحدث عن الدول العالمية الأربع ، وفي وليمة بلشاصر يذكر دانيال كما لو أنه نكرة من النكرات^(١).

ومن هنا لا نجد الدكتور صبرى جرجس متجافاً بالصواب بقوله عن التوراة :

(إنها لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة من الخرافات والقصص التي صيغت في جو أسطوري حافل بالإثارة ، مجاف للعقل والمنطق ، غاص بالمتناقضات ، مشبع بالسخف ، مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدماء)^(٢).

ولم يكن الدكتور صبرى وحده فيما جهر به .

٧ - قيم أدبية جديدة في العهد القديم

العبارة الركيكة المهلهلة التي صيغ بها (الكتاب المقدس) قد تغطي على كثير من الومضات المضيئة التي قد تصل إلى درجة التألق في أقلام بعض من دونوا هذه الأسفار .

كما أن الاجتهادات المتنوعة لهذه الأقلام ، والتنافس على الإضافة والنقل والابتداع قد طمس أو شوه كثيراً من المحاولات الإبداعية ، وبخاصة فيما جاء بالأسفار المنسوبة إلى أيوب وداود وسليمان .

وإذا كان الفصل السابق قد اهتم بالمؤثرات الأسطورية التي كانت تشيع في المنطقة التي شهدت أحداث التجمع والشتات الإسرائيلي ، أو اهتم بإبراز الاتهامات والادعاءات التي رسمتها أمراض نفسية شاعت بين الإسرائيليين ، من آثار مطاردة فرعون ، بعد قرون من الأمن والنعيم ، وجفاف سيناء الرهيب الذي ألصق في حلوقهم مرارة الصبار ، والضياع على أيدي نبوخذ نصر بين شعوب أقوى وأرقى ، فولد في وجدانهم مشاعر المنبوذين ، وعمق في كيانهم ضرورة الانعزال .. إذا كان الفصل السابق قد عالج هذا الجانب فإن تأخر تدوين بعض الأسفار ، وإعادة كتابتها في ظل الثقافة الإسلامية ، قد مزج المداد اليهودي بقدر من نور هذه الثقافة .. ومن ثم نجد أفكاراً وقصصاً وعبارات قرآنية ، أو من التراث الإسلامى بعامه .

حين بلغت السن بصموئيل ، قال (لكل إسرائيل) :
(هاأنذا فاشهدوا علىّ قدام الرب وقدام مسيحه ، ثور من أخذت

(١) التوراة الهيروغليفية - ص ١٧٦ / ١٧٧ .

(٢) التراث اليهودى الصهيونى - ص ٥١ .

وحمار من أخذت ، ومن ظلمت ، ومن سحقت ، ومن يد من أخذت
فدية ، لأغض عيني عنه ، فأرده لكم) - (صموئيل الأول ١١) .

هذا القول يُذكر بقول الرسول محمد - ﷺ - في خطبة له قبيل
وفاته : (أيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئاً فهذا عرضي فليقتص ،
وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئاً فهذا بشرى فليقتص ، وأيما رجل
كنت أصبت من ماله شيئاً فهذا مالي فليأخذ) (١) .

والمزمور ١١٥ يقول : (أصنامهم فضة وذذهب ، عمل أيدي الناس ،
لها أفواه ولا تتكلم ، لها أعين ولا تبصر ، لها آذان ولا تسمع ، لها مناخر
ولا تشم ، لها أيدي ولا تلمس ، لها أرجل ولا تمشي) .

أشبه بقول الله سبحانه في قرآنه عن الأصنام : ﴿ ألهم أرجل يمشون
بها ، أم لهم أيدي يطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان
يسمعون بها ﴾ (٢) .

وأشياء يصف يوم القيامة بقوله : (إن السموات كالدخان تضحجل ،
والأرض كالثوب تبلى ، وسكانها كالبعوض يموتون) - (أشعيا ٥١) .
وهذا يذكر بما جاء في القرآن الكريم ، في نفس المعنى : ﴿ فارتقب
يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ (٣) .

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن
المنفوش ﴾ (٤) .

وفي المزمور ١٣٦ تقليد ساذج لخاصة من خواص الفاصلة القرآنية :

(١) طبقات ابن سعد - ص ٧٢ .

(٢) الأعراف / ١٩٥ .

(٣) الدخان / ١٠ .

(٤) القارعة / ٤ - ٥ .

(احمدا الرب ، لأنه صالح ، لأن إلى الأبد رحمته ، احمدا إلى
الآلهة ، لأن إلى الأبد رحمته ، احمدا رب الأرباب ، لأن إلى الأبد
رحمته ، الصانع العجائب العظام وحده ، لأن إلى الأبد رحمته ، الصانع
السموات بفهم ، لأن إلى الأبد رحمته ، الباسط الأرض على المياه ، لأن
إلى الأبد رحمته ، الصانع أنواراً عظيمة ، لأن إلى الأبد رحمته ، الشمس
لحكم النهار ، لأن إلى الأبد رحمته ، القمر والكواكب لحكم الليل ، لأن
إلى الأبد رحمته ... إلخ) .

ويرد في الأصحاح الثالث عشر من سفر القضاة صورة كاملة لما أورد
القرآن الكريم عن بشرى الله بإسحق ، بعد ما بلغ إبراهيم وزوجه من الكبير
عتيا ، إذ أتى رسول من السماء يبلغ امرأة منوح العاقر :

(هأنت عاقر لم تلدى ، ولكنك تحبلين ، وتلدن ابناً ، والآن
فاحذري ، ولا تشربي خمرأ ولا مسكراً ، ولا تأكلني شيئاً نجساً ، لأن
الصبي يكون نذيراً لله من البطن .. فصلى منوح إلى الرب ، وقال للملاك
الرب : دعنا نعوقك ، ونعمل لك جدى معزى .. فقال ملاك الرب لمنوح :
ولو عوقتني لا أكل من خبزك ، وإن عملت محرقة فللرب أصعدها .. فكان
عند صعود اللهب عن المذبح نحو السماء أن ملاك الرب صعد في لهيب
المذبح ، ومنوح وامرأته ينظران ، فسقطا على وجهيهما إلى الأرض ، فولدت
المرأة ابناً ، ودعت اسمه شمشون) (١) .

ونبحث عن الدور العظيم الذى قام به شمشون الذى اهتمت به السماء
هذا الاهتمام ، فلا نجد إلا بطلاً خرافياً يمسك بلحى حمار فيقتل ألفاً
ويمسك بالعمودين المتوسطين بالمعد فيسقط (البيت على الأقطاب وعلى
كل الشعب الذى فيه ، فكان الموتى الذين أماتهم فى موته أكثر من الذين
أماتهم فى حياته) - (القضاة / ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦) .

(١) انظر قصة إبراهيم فى سورة الذاريات .

كأن كاتب القصة أعجب بما جاء فى القرآن الكريم ، فنسبه إلى شمشون ، ثم استقى بقية قصته من المصادر البابلية التى تحكى قصة جلعامش الذى قتل الأمد على الطريقة التى نسبت إلى شمشون ١١ .

ويتحدث (سفر حزقيال) عن عودة الحياة إلى إسرائيل بعد الشتات ، حاكياً ما حدث به القرآن عن إبراهيم عليه السلام حين طلب إلى الله أن يريه كيف يحيى الموتى .

كما يحكى (سفر دانيال) قصة فرعون مع يوسف ، فى صورة جديدة مع نبوخذ نصر ، ويحكى قصة إبراهيم مع (النمرود) فى صورة شلرخ وميشخ وعبدنغو مع نبوخذ نصر .

وحاول أن يجدد محنة إبراهيم مع النمرود ، فكانت محنة دانيال مع داريوس فى جب الأسود ، بدلاً من النار . وقد سبق بيان هذا فى الفصل السابق .

ويحدث (سفر الملوك الأول) بقصة تتردد فى كتب الأدب العربى ، منسوبة إلى أحد ملوك القرس تارة ، وإلى أحد بنى العباس تارة .. ولعل نسبتها إلى بنى العباس أنشبه بنسبها إلى سفر الملوك .

نقول القصة : (كان ل نابوت البزريلى كرم فى بزرييل ، بجانب قصر أنخاب ملك السامرة ، فكلم أنخاب نابوت ، قائلاً : أعطني كرمك فيكون لك بستان بقول ، لأنه قريب بجانب بيتي ، فأعطيك عوضه كرماً أحسن منه ، أو إذا حسن فى عينك أعطيتك ثمنه فضة ، فقال نابوت لأنخاب : حاشا لى من قبل الرب أن أعطيك ميراث أبى ، فدخل أنخاب بيته مكتئباً مغموماً) .. وسألته فى هذا امرأته إيزابيل مستكرة : (أنت الآن تحكم على

إسرائيل ؟ قم كل خبزاً ، وليطبخ قلبك) .. واحتالت على نابوت حتى مات رجماً من شيوخ وأشرف المدينة ، ثم قالت لأنخاب : (قم ، رث كرم نابوت البزريلى) .

وزادت القصة الإسرائيلية على الحكاية العربية الفارسية أن الرب استنكر من أنخاب أن يقتل ويرث ، وتوعده : (فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت ، تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً) - (الملوك الأول / ٢١) .

ولم يكتف كاتب الأسفار بالأخذ عن القرآن الكريم ، أو بما تورده الثقافة الإسلامية ، بل أخذوا عن الثقافات المنتشرة فى البيئة العربية ، وفى البيئات القريبة منها .. ومن ذلك تصوير كاتب (حزقيال) لقاء الرب ، الذى يذكرنا بالوحش القوى ذى الرؤوس السبعة فى الأساطير الأوجاريتية ، وبصورة رافانا رأس أرغاد رامايانا فى الأساطير الهندية ، وبما جرى فى قلم ابن حسام الفارسي فى خاور نامه وهومير فى الأوديسة ، يعرضان صور الحيوانات الخرافية (١) .

ولقد أجاد كاتب حزقيال وصف نعم الرب على إسرائيل ، وسخطه حين كفرت بأنعم الله ، وتناولت أورشليم برجاساتها ، فأدانها ، وقضى عليها بالتخريب والمقروط فى أيدي الأعداء ، وفعل ما فعله أشعيا ، فأدان الأمم كلها ، دون تمييز بينها ، وشهر بخطأ موآب وصور ومصر وأشور ، وأنذرهما بالهلاك والسقوط ، وحتى أمة ماجوج العجيبة لم تنج من هذا التشهير فقال :

(مخرجك ومولدك من أرض كنعان ، أبوك أمورى ، وأهلك حثية ، أما ميلادك يوم ولدت فلم تقطع سرتك ، ولم تغسلى بالماء للتنظيف ، ولم

(١) انظر الفصل السابق .

تملحي تمليكاً ، ولم تغمطي تغميطاً ، لم تشفق عليك عين لتصنع لك واحدة من هذه لترق لك ، بل طرحت على وجه الحقل بكراهة نفسك يوم ولدت ، فمررت بك ، ورأيتك مدوسة بدمك ، فقلت لك : بدمك عيشي ، قلت لك : بدمك عيشي جعلتك ربوة كنبات الحقل ، فربوت وكبرت ، وبلغت زينة الأزيان ، نهدي ثدياك ، ونبت شعرك ، وقد كنت عريانة وعارية ، فمررت بك ورأيتك ، وإذا زمنك زمن الحب ، فبسطت ذيلي عليك ، وستررت عورتك ، وحلفت لك ، ودخلت معك في عهد ، يقول السيد الرب : فصرت لى ، فحمتك بالماء ، وغسلت عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت ، وألبستك مطرزة ، ونعلتك بالتخس ، وأزرتك بالكتان ، وكسوتك بزاً ، وحللتك بالحلى ، فوضعت إسورة فى يدك ، وطوقاً فى عنقك ، ووضعت خزامة فى أنفك ، وأقراطاً فى أذنيك ، وتاج جمال على رأسك ، فتحللت بالذهب والفضة ، ولباسك الكتان والبز والطرز ، وأكلت السميد والعسل والزيت ، وجملت جداً جداً ، فصلحت لمملكة ، وخرج لك اسم فى الأمم لجمالك ، لأنه كان كاملاً ببهائي الذى جعلته عليك ، يقول السيد الرب : فاتكلت على جمالك ، وزيت على اسمك ، وسكبت زناك على كل عابر) - (حزقيال / ١٦) .

لهذا (أهيج عليك عشاقك ، الذين لأجلهم استحمت ، وكحللت عينيك ، وتخللت بالحلى ، وجلست على سرير فاخر ، أمام مائدة مفضضة ، ووضعت عليها بخورى وزينتى ، وأجعل غيرتى عليك ، فيعاملونك بالسخط ، ويقطعون أنفك وأذنيك ، وبقيتك تسقط بالسيف ، يأخذون بنيك وبناتك ، وتؤكل بقيتك بالنار ، وينزعون عنك ثيابك ، ويأخذون أدوات زينتك ، ويتركونك عريانة وعارية ، تكونين للمضحك والسخرية ، تمتلئين سكراً وحزناً ، كأس التحير والخراب ، كأس أختك السامرة ، فتشريينها وتمتصينها ، وتقضين شقفها ، وتجتشين ثدييك) - (حزقيال / ٢٣) - مختارات أعيد ترتيبها .

كما أجاد بصورة مثيرة وصف بيت الرب فى أورشليم (حزقيال / ٤٠) - (٤٢) - وتصور قيام مدينة فاضلة ، للكهنة فيها الكلمة العليا ، يقيم فيها (يهوه) مع شعبه أبداً الدهر .

وليس فن الوصف هو الذى يستعلن بصورة لافتة ، فى إطار التمثيل الفنى ، بل هناك فن الهجاء ، أو قل فن الشتيمة والسباب واللعنات التى تفوق أحدث ما وصلت إليه المهارات السوقية فى الحارات والأزقة . يقول (الرب) فى شعب إسرائيل وقد مرد ، واستهواه بغيه وعدوانه وفجوره :

(ملعوناً تكون فى المدينة ، وملهوناً تكون فى الحقل ، ملعونة تكون سلتك ومعجنتك ، ملعونة تكون ثمرة بطنك ، وثمره أرضك .

يلصق بك الرب الربأ حتى يببذك عن الأرض التى أنت داخل إليها ، لكى تمتلكها ، يضربك الرب بالسُّل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول ، فتتبعك حتى تفنيك ، وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاساً ، والأرض التى تحتك حديداً ، ويجعل الرب مطر أرضك غباراً وتراباً ، وينزل عليك من السماء حتى تهلك ، يجعلك الرب منهزماً أمام أعدائك ، فى طريق واحدة تخرج عليهم ، وفى سبع طرق تهرب أمامهم ، وتكون قلقاً فى جميع ممالك الأرض ، وتكون جثتك طعاماً لجميع طيور السماء ووحوش الأرض ، وليس من يزعجها ، يضربك الرب بجنون وعمى وحيرة قلب ، فتتلمس فى الظُّهر كما يتلمس الأعمى فى الظلام ، ولا تنجح فى طرقك ، بل لا تكون إلا مظلوماً مغصوباً كل الأيام ، وليس من مخلص ، تخطب امرأة ورجل آخر بضطجع معها ، تبنى بيتاً ولا تسكن فيه ، تغرس كرماً ولا تستغله .. إلخ) - (تثنية / ٢٨) .

أما فنّ الرثاء ، فقد نبغ فيه كتابه الذين نسبوه إلى أرمياء ، وقد وقف على أطلال أورشليم ينعى من بناها ، ويتحدث حديثاً مرأ عما أصابها .
والدليل على أن مرثى أرمياء من عمل أفراد عديدين ، هذا الاختلاف الموجود بين ترتيب حروف الهجاء فى بعضها ، وأن كل قصيدة وحدة مستقلة (١) .

لكن ، مع هذا ، فقصاصد هذا السفر الذى يبلغ خمسة أصحابات - ترجم عن عمق الفجيعة فى وجدان هذا الشعب الممزق ، والأسى الذى يغيم فى العيون حتى تفقد طريق الأمل ، والحسرة المشوبة بالثوبة والرجاء فى الخلاص من تلك الأغلال التى أكلت صلابة أقيمتهم ، والمستنقعات الآسنة اللزجة التى طمرت روح التمرد فيهم .

(من العلاء أرسل ناراً إلى عظامى ، فسرت فيها ، بسط شبكة لرجلى ، ردتني إلى الوراء ، جعلنى خربة اليوم كله ، مغمورة ، شد نير ذنوبى بيده ، ضفرت ، صعدت على عنقى .
كلت من الدموع عيناي ، غلت أهشائى ، انسكبت على الأرض كبدى .

سبيح على ، ثقل سلسلتى ، قلت سبلى ، هولى دبّ كامن ، أسد فى مخابى ، ميل طرقى ومزقنى ، جعلنى خراباً ، مذ قومه ونصبنى كفرض للسهم .

انهالت حجارة القدس فى رأس كل شارع ، بنوصهيون الكرماء الموزونون بالذهب النقى كيف حسبوا أباريق خزف ، عمل يدى فخار ؟
بنات آوى أيضاً أخرجت أطباءها ، أرضعت أجراءها ، أما بنات شعبى فبنافية ، كالنعام فى البرية ، لصق لسان الراضع بحكه ، من العطش ، الأطفال

(١) التوازة الهيروغليفية - ص ١٧٠ .

يسألون خبزاً ، وليس من يكسره لهم ، لصق جلدهم بعضهم ، صار يابسا كالخشب ، كانت قتلى السيف خيراً من قتلى الجوع ، لأن هؤلاء يذوبون مطعوتين لعدم إثمار الحقل ، أياذى النساء الحائض طيخت أولادهن ، صاروا طعاماً لهم ، فى سحق بنت شعبى أتم الرب غيظه ، سكب حمو غضبه ، وأشعل ناراً فى صهيون ، فأكلت أسسها .

قد صار ميراثنا للغرباء ، بيوتاً للأجانب ، صرنا أيتاماً بلا أب ، أمهاتنا كالأرامل ، شربنا ماءنا بالفضة ، حطبنا بالثمن يأتى .
مضى فرح قلبنا ، صار رقصنا نوحاً ، سقط إكليل رأسنا ، ويل لنا ، لأننا قد أخطأنا) - عبارات متنوعة من مرثى أرمياء .

* * *

وفن الغزل يأخذ صورته الشعرية ، كما هى عادته ، لكنه شعر يأخذ على دعاة الشعر الحديث بداية التجربة .

كنا نسمع أن أول من خاض تجربة الشعر الحديث جبران أو الريحانى ، وأحياناً بشر فارس أو محمد عوض ، وأحياناً على باكثير أو بدر شاكر السياب .. وقيل .. وقيل ..

لكن الأمثلة التى بين أيدينا تبعد كثيراً ، لا أقول أكثر من ألفى عام ، بل مئات السنين .

فى (نشيد الإنشاد) لون من الشعر الرمزى ، يغلب عليه جانب الحوار النفسى ، فى صورة الإفضاء بما يتقل النفس ، والكشف عما يعتلج فيها ، أخذاً بتكرار بعض الجمل - زعم بعض دعاة الشعر الحديث أنهم ابتكروا فن التكرار - توليداً للانفعالات والمعانى ، وتكثيفاً لها وتعميقاً :

(فى الليل ، على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى

طلبته فما وجدته !!

إنى أقوم ، وأطوف فى المدينة ، فى الأسواق ، وفى الشوارع .

أطلب من تحبه نفسى .

طلبته فما وجدته !!

ووجدنى الحارس الطائف فى المدينة ، فقلت :

أرايتم من تحبه نفسى ؟

فما جاوزتهم إلا قليلاً ، حتى وجدت من تحبه نفسى

فأمسكته .

(ولم أرّخه ، حتى أدخلته بيت أمى ، وحجرة من حبلت بى) -

(أصحاب / ٣) .

وقد تتداعى الخواطر النفسية ، وتنسكب الانفعالات من إزاء كثير

الفتحات ، تنسكب كالدموع ، وتتألق كالندى تنعكس عليها أشعة الشمس

المتوهجة فى أعماق الذات ، متباينة المسارات والألوان :

(اجعلنى كخاتم على قلبك

كخاتم على ساعدك

لأن المحبة قوية كالدموت

الغيرة قاسية كالهواية

لهيبها لهيب نار لظى الرب

مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفى المحبة

والسيول لا تغمرها

إن أعطى الإنسان كل ثروته بدله المحبة تحتقر احتقاراً

لنا أخت صغيرة ، ليس لها ثديان ، فماذا نصنع لأختنا فى يوم

تخطب ١٩ .

إن تكن سوراً فبنى عليها برج فضة

وإن تكن باباً فتحصرها بالواح أرز

أنا سور وثدياى كبرجين

أيها الجالسة فى الجنات ، والأصحاب يسمعون صوتك فاسمعى

اهرب يا حبيبي ، وكن كالطبيب ، أو كعُقر الأيائل على جبال

الأطياب) - (أصحاب / ٨) - والعيوب اللغوية نصية .

وقد يستحضر الحبيب ، سابحين فى عالم الخيال ، يتناجيان ، معبرين

عما يجيش به نفساهما ، متطلعين إلى حيث تصبح الأحلام حقيقة ، ويعود

الطائر الغريب إلى عشه :

(هانت جميلة يا حبيبتى ، هانت جميلة !!

عيناك حمامتان !!

هانت جميل يا حبيبي ، وحلو !!

وسريرنا أخضر !!) - (أصحاب / ١) .

والمزاوجة بين الضمائر تعبيراً عن الاستغراق فى استحضار الصور ،

واختلاطها ، وتتابع الظلال والخواطر ، قد يشير إليها قوله :

(ليقبلنى بقبالات فمه

لأن حبك أطيب من الخمر !!) - (أصحاب / ١) .

والتعبير بالصورة من أغنى المذاهب الحديثة ، لأنه يلون الانفعال ، أو

يقدم الانفعال بألوانه ، ولأنه يجسد المعانى ، ويشغل الحواس الفنية المختلفة ،

ويؤلف ما بين المتكلم والمتلقى :

(أسندونى بأقراص الزبيب ، أنعشونى بالتفاح

فإني مريضة جداً !!

صوت حبيبي هو ذا أت ، ظافراً على الجبال
قافراً على التلال

شفتاك ياعروسي تقطران شهداً

تحت لسانك غسل ولبن) - (أصحاب / ٥) .

(حبيبي قصصه مسترسلة ، حالكة كالغراب

عيناه كالحمام على مجارى المياه ، مقسولتان باللبن ، جالستان في
وقتيهما

خداه كخميلة الطيب ، وأتلام رياحين ذكية

شفتاه سوسن تقطران مرّاً مانعاً

يداه حلقتان من ذهب ، مرصعتان بالزهرجد

بطنه عاج أبيض مغلف بالياقوت الأزرق

ساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز

طلعتة كلبان ، فتي كالأرز

حلقة حلالة ، وكله مشتبهات

هذا حبيبي ، وهذا خليلي ، يابنات أورشليم) - (أصحاب / ٥) .

(ما أجمل رجليلك بالعلين يابنت الكريم

دوائر فخذيك مثل الحلوى ، صنعة يدى صناع

سرتك كأس مدورة لا يعزها شراب ممزوج

بطنك صبرة حنطة مسيجة بالسوسن

ثدياك كخشفتين توأمتين طيبة

عنقك كبرج من عاج

قامتك هذه شبيهة بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد

قلت : إني أصعد إلى النخلة ، وأمسك بعذوقها ، وتكون ثدياك
كنعنايد الكرم ، ورائحة أنفاسك كالنفاح ، وحنكك كأجود الخمر) -
(أصحاب / ٧) .

وكثيراً ما يستوحى الشاعر أعماقه ، ويعيش في عالمه الخاص ، يحلم ،
ويغنى ، ويتخذ من نسيج القمر الفضى مركبة ناعمة ينزل بها على جليل
حياته التى خمدت نارها ، أو يطير بها فوق سحاب ، يجمع الفراشات
الذهبية العاشقة ، قبل أن تحرقها النار :

(أنا نائمة ، وقلبي مستيقظ

صوت حبيبي قارعاً :

افتح لى يا أختى ، يا حبيبتى ، يا حمامتى ، يا كاملتى

لأن رأسى امتلأ من الطل ، وقصصى من ندى الليل

قد لعلت ثوبى ، فكيف ألبسه ؟

قد غسلت رجلى ، فكيف أوسخهما ؟

حبيبي مدّ يده من الكسوة

فأنت عليه أحشائى

قمت لأفتح لحبيبي ، ويداي تقطران مرّاً

وأصابعي مرّاً قطر على مقبض القفل

فتحت لحبيبي ، لكن حبيبي تحول ، وعبر !!

نفسى خرجت عندما أدبر

طلبته فما وجدته

دعوته فما أجباني
وجدني الخرس الطائف في المدينة

ضربوني ، جرحوني
حَفَظَ الأسوار رفعوا إزارى عنى
أحلفكن يابنات اورشليم

إن وجدتن حبيبي ، أن تخبرنه أنى مريضة حبا) - (أصحاح ٥ / ٥).

وجد الباحثون المحدثون فى قصائد الغزل السومرية الخاصة بالزواج الإلهي مفتاحاً لحل اللغز المحيط بغزل (نشيد الإنشاد) ، على أساس أنه (مجرد شعر غزلى مشبع بالحب والشهوة) مما لا ينسجم مع الصفة العامة لأسفار التوراة ، على الرغم من التفسير الساذج الذى لجأ إليه أحبار اليهود من أن الحب فى تلك الأغاني هو الله ، وأن العشيق الممتزج بها شعب إسرائيل .. وكثرت التفسيرات والتوجيهات الأخرى من جانب المختصين بالدراسات التوراتية ، حتى اهتمدى الباحث المختص بالدراسات المسمارية والتوراتية (ميك Theophilemeek) إلى أن تلك الأشعار الغزلية المنسوبة إلى سليمان من تراث تلك القصائد الغزلية السومرية الخاصة بالزواج الإلهي : أى أنها من قبيل مجموعة (أغاني الأعراس) التى اقتبسها الكنعانيون ، من بين ما اقتبسوه ، من أدب حضارة وادى الرافدين ، وعنهم أخذ العبرانيون ^(١) .

ويرى ول ديورانت أنها (قد تكون من وضع جماعة من شعراء الغزل العبرانيين ، تأثروا بالروح الهيلينية التى دخلت البلاد اليهودية مع الإسكندر

الأكبر ، أو تكون زهرة يهودية ترعرعت فى الإسكندرية ، وقطفتها نفس محررة من ضفاف النيل ، لأن العاشقين يخاطب أحدهما الآخر بقوله : أنى وأنتى ، كما كان يفعل المصريون القدماء) ^(٢) .

ومع هذا فشعر التوراة يحمل خصائص الشعر المصرى القديم ، من تقسيم القصيدة إلى مقاطع ، والتعبير عن الفكرة الواحدة تعبيراً مزدوجاً ، ووجود عدد محدد ومنتظم من الضربات الإيقاعية ، وكثرة الجناس اللفظي ، وتكرار الحرف الواحد فى أوائل الكلمات من الجملة ، أو فى الكلمة الأولى من السطر ، وكثرة المجاز والاستعارة والكناية ^(٣) ، مما يرجح تأثير الشعر المصرى .

وهذا لا يجحد ما تتمتع به النماذج التى بين أيدينا من إحكام الصياغة ، ومن سمات الأصالة والابتكار .

وأدب الحكمة الذى يلخص التجربة ، ويقدمها فى أوجز صورة ، تحرك الفكر ، وتثريه ، وتهز الوجدان ، وتصبح مأسمة تدفع الحجة ، وتكشف البهتان ، وتضع الحلول السريعة .. هذا الأدب يكثر فى أسفار أيوب والأمثال والجامعة ، وينثر فى غيرها :

(حيث لا بقر فالمعلم فارغ

كثرة الغلة بقوة الثور

العبد الفطن يتسلط على الابن الخنزى ، ويقاسم الإخوة الميراث) -

(أمثال / ١٤ - ١٧)

(كل الأنهار تجري فى البحر ، والبحر ليس بملآن

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٣٨٨ .

(٢) هامش ص ٧٥ من التراث اليهودى الصهيونى .

(٣) طه باقر - مقدمة فى أدب العراق القديم - ص ١٩٤ / ١٩٥ .

العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع

ما كان فهو يكون ، فليس تحت الشمس جديد

الذى يزيد علماً يزيد حزناً

الغيط المثلوث لا ينقطع سريعاً

الكلب الحى خير من الأسد الميت

لتكن ثيابك فى كل حين بيضاء

إذا امتلأت السحب مطراً تريقه على الأرض

من يرصد الرياح لا يزرع ، ومن يراقب السحب لا يحصد) -

(الجامعة / ١ و ٤ و ٩ و ١١) .

(إنهم يزرعون الرياح ، ويحصلون الزوبعة) - (هوش / ٨) .

يلاحظ بعض الباحثين أن أثر الآداب المصرية القديمة فى هذا المجال كبير ، إذ يجدون لأكثرها أمثالا مصرية مضاهية^(١) .

لكن لا يعيب هذه الأمثال أن تكون من بقايا الحكمة المصرية أو الفارسية أو الهندية ، لأن التجارب الإنسانية مشتركة ، وإن جرت على لسان آمن أينوب أو زارادشت أو بوذا .

لهذا لا أجد حاجة إلى المقارنة بين ما جاء هنا أو هناك ، على أساس التقليد أو التبعية لكاتب ما ، لأن آمن أينوب سبقه جمع غفير من الأنبياء والرسل والحكماء والفلاسفة ، وتاريخ الشرق القديم لا يقف عند بتاح حطب أو إدريس أو كورنفيوس .

ومع هذا ، فلا سبيل إلى إنكار ما ذهب إليه (برستيد) من أن أسفار التثنية وصموئيل وأرميا والمزامير والأمثال ، بل والشرعة اليهودية ذاتها ،

(١) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - ج ٢ ص ١٢٨ .

استفادت كثيراً مما فى كتاب الحكمة المصرى ، ومن آمن أينوب بخاصة .

أما الأدب القصصى فهو فن متقدم أجاد فيه كتاب (الكتاب المقدس) ، إنه قصص هادف ، يأخذ طابع السرد تارة ، وطابع الحوار أخرى ، وقد يصل إلى مستوى العمل المسرحى .

يحكى سفر (راعوث) أنه حدثت مجاعة فى أيام حكم القضاة ، فغرب أليمالك وامرأته نعمى وابناه محلون وكليون .

مات أليمالك ، وتزوج ابناه من عرقة وراعوث الموابيتين ، ومالبثا أن ماتا .

فكرت نعمى فى العودة ، بعدما سمعت (أن الرب انتقد شعبه ليعطيهم خبزاً) ، وقالت لكنتيها : (اذهبا ، ارجعا ، كل واحدة إلى بيت أمها ، وليصنع الرب معكما إحساناً ، كما فعلتما بالموتى وبى) .

أصرتا على مرافقتها ، فقالت : (هل فى أحشائى بنون بعد ، حتى يكونوا لكما رجلاً ؟) .

انصرفت عرفة ، (وأما راعوث فلصقت بها) .

كان (بوعز) رجلاً جباراً بأس - وهو من عشيرة أليمالك - رأى راعوث فى حقله تلتقط سنابل وراء الحاصدين ، فأكرمها .

احتالت نعمى لتتزوج راعوث منه ، فقالت : (اغتسلى ، وتدهنى ، والبسى ثيابك ، ومتى اضطجع اكشفى ناحية رجله ، واضطجعى ، وهو يخبرك بما تعملين) .

وكان أن أعلن (بوعز) للشيوخ ولجميع الشعب : أنتم شهود اليوم أنى قد اشترت كل ما لأليمالك ، كل ما لكليسون ومحلون من يد نعمى ، وكذا راعوث الموابية ، امرأة محلون ، قد اشترتها لى امرأة ، لأقيم اسم الميت على ميراثه ، ولا ينقرض اسم الميت من بين إخوته ، ومن مكانه) .

وولدت راعوث عوبيدَ أبا يسى أبى داود عليه السلام .

وبهذا يكون القاص الماهر قد خدم هدفاً دينياً ، إذ بين أن دم داود لم يتنجس بدم الموابية ، ذات الخلق الطاهر ، والوفاء النادر .. وكان راعوث - وقد لصقت بنعمى وآثرت العودة معها - قد تنكرت لقومها ، وتطهرت من أرجاسها ، واكتزرت بإزار بنى إسرائيل .

ولم يبر القاص الماهر موقف راعوث من بوعز ، قبل (أن يشتريها له امرأة) ، وكأن شكاً لم يخالجه فى أن لقاءها الأول ببوعز قد أجنّ جنيناً ، ومن ثم يصبح داود سليل علاقة غير مشروعة II .

** لكن ، يبدو أن المشروعية وعدمها رهن الثمرة المرجوة .

هذا سفر (أستير) - الذى لم يتورع أحد ربانى اليهود فى القرن الرابع الميلادى أن يقول : إنه لا يقل أهمية عن تورا موسى ، وإنه أرفع من مزامير داود وأسفار الأنبياء^(١) - يصور الخلق الإسرائيلى الذى يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، وكأنه يقول لقومه : إن تعاليم الشعب المختار لا تحول دون ركوب مركب الشيطان فى سبيل حماية هذا الشعب والانتقام من أعدائه :

(وشئى) امرأة (أحشويرش) الذى ملك من الهند إلى كوش ، تأبى أن تكون صورة ملكية تعلق على جدار ، فيكيد لها الملك بالزواج من غيرها .

يتخذ (مردخاى) اليهودى من ابنة عمه (أستير) الجميلة وسيلة للتسلط على الملك ، ثم وسيلة للانتقام من أساءوا إلى بنى إسرائيل .

تنجح أستير ، فيصلب الوزير هامان وبنوه العشرة ، و (أعطى الملك اليهود فى مدينة فمدينه أن يجتمعوا ويقفوا لأجل أنفسهم ، ويهلكوا ويقتلوا ويبيدوا قوة كل شعب وكورة تضادهم ، حتى الأطفال والنساء ، وأن يسلبوا

(١) التوراة الهيروغليفية - ص ١٧١ .

غنيمتهم) . وحدث أن كثيرين (من شعوب الأرض تهودوا ، لأن رعب اليهود وقع عليهم) ، إذ قتلوا من مبغضيههم أكثر من خمسة وسبعين ألفاً .

هذه القصة - كما قيل - ليست عبرية الأصل ، إنما هى فى التراث البابلى ملحمة حربية بين الآلهة البابليين والعيلميين ، إذ إن أستير فى الواقع هى عشتار ، وهامان هو إله العيلميين ، ومردخاى عبارة عن مردوك .

لهذا عارض كثيرون إقامتها على العهد القديم .

ثم إن أحداث القصة تثير تساؤلات ، فالشاه يبدو موافقاً على ما اتخذته هامان من إجراءات ، وفى موضع آخر يبدو كارهاً أسفاً .. وكيف يجهل هامان العلاقة بين مردخاى وأستير وعيونه فى كل مكان ، وهو الوزير ذو الكلمة والسطوة ؟ ثم إن التاريخ الإيرانى لا يعرف ملكة باسم فشنى (وشنى) أو أستير^(٢) II .

ومع هذا ، فالأديب الإسرائيلى أجاد تهويد الأسطورة ، وجعل منها سفرأ مقدساً .

** أما سفر (أيوب) فقصة أو مسرحية منسوجة حول أيوب النبى نسجاً حمل ول ديورانت على أن يقول : (لا شئ فى التوراة ، أو فى غير التوراة ، يضارعه فى قيمته الأدبية)^(٣) .

والتلمود ينسب هذا السفر إلى موسى ، على حين يجمع كثير من الباحثين المحدثين على أنه قد يكون أدمياً أو مصرياً ، والرأى القائل بمصريته يعتمد على أن الأثر الثقافى المصرى يطل علينا من ثنايا السفر ، فى مواضع كثيرة ، فما هو فى الواقع إلا صورة صادقة لقصة المتشائم المصرى القديم

(١) التوراة الهيروغليفية - ص ١٧٢ / ١٧٤ .

(٢) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٣٩٦ .

الذى يرجع تاريخه إلى نحو ألف وخمسمائة عام ، قبل ظهور أيوب الكتاب المقدس^(١) .. وكما أورد بريستد فى (فجر الضمير ص ١٨٢) أن هذه القصة المصرية (موضوع يصف الحالة العقلية والتجارب الباطنة لنفس معذبة ، تتألم مما حاق بها من الظلم وسوء الطالع) ، ويعلق عليها بقوله : (وهى فى نظرنا تعد أقدم مقال يمثل لنا صورة مما ورد فى سفر نبى الله أيوب) ، بل (أول صرخة من متألم يرى وصل إلينا صداها من عصور ذلك العالم القديم) .. وقد أورد منها مقاطع تمثل الظلم الذى نزل به ، والفساد الذى أحاط بكل ما حوله ، ورغبته المخلصة فى تطهير العالم ، وأمله الصادق فى أن تكون (الآخرة) عدلاً وسلاماً وأماناً .

وينبغى أن يوضع فى الاعتبار أن الحضارة المصرية القديمة سبقت الحضارة البابلية بأكثر من ألف عام ، وأن زارادشت قد أفاد كثيراً من الديانة المصرية ، كما أخذ الفرس كثيراً من العمارة والفنون المصرية ، ثم جاءت العبرية لتأخذ عن بابل وأشور وفارس ، بحكم الأسر البابلى ، أو لتأخذ عن الكنعانيين الذين كانوا قد اجتازوا مرحلة من النمو الحضارى ، وكانوا على اتصال بحضارة مصر وبحضارة وادى الرافدين ، قبل أن يغزو العبرانيون بلادهم ، فلما جاء العبرانيون اتخذوا لغة الكنعانيين لغة لهم ، وثقافة الكنعانيين ثقافة لهم ، هذا إذا لم تكن ذاكرة اليهود قد احتفظت بالأصل المصرى مباشرة إبان الوجود فى مصر قبل (الخروج) .

وليس ما يحول دون الظن أن يذكر أدب وادى الرافدين - الذى كان معبراً للثقافة المصرية من جانب ، ورافداً معها من جانب آخر - بما بقى فى الوجدان اليهودى ، فيكون دافعاً إلى الانتقاء ، واستعادة وجود عزيز ، هم حريصون على الانتساب إليه ، والارتباط به ، وادعاء (ملكيته) .

(١) التوراة الهيروغليفية - ص ١٤٥ .

وثمة قطعة أدبية بابلية بعنوان (لأمجذن رب الحكمة) ، يمكن أن تكون دليلاً على صدق هذا (الظن) .

جاء على لسان (البطل) البابلى ، ذلك العبد الصالح الذى أطاع الآلهة ، وسار بموجب سننها وتعاليمها ، وأطاع السلطة المدنية وقوانينها ، فلم يذنب قط :

(لم أعرف سوى الصلاة والعبادة ، وكانت أفكارى مشغولة بالتضرع إلى الآلهة ، والتضحية لها ، وكانت أيام عبادة الآلهة أيام سرور قلبى ، والأيام التى أسير فيها فى مواكب الآلهة أيام نصرى وكسبى فى الحياة ، وكان تمجيد الملك سروراً لقلبى ، والموسيقا التى تعزف له مصدر حبورى وغيطى ، أوصيت أهلى وتبعى أن يراعوا رسوم الآلهة وشعائرها ، وعلمت الجند ليطيعوا القصر ، عارفاً بذلك أن هذه الأشياء مما تسر الآلهة .. إلخ) .

وعلى الرغم من صلاحه وتقواه وطاعة أولى الأمر يجد نفسه وقد حلت به ويساحته المصائب والشور ، فيقول :

(لقد أتى مرض « آنو » على جسمى وغطاه كالرداء ، وأصبح النوم كالشبكة التى تصطادنى ، أذنأى مفتوحتان ، ولكنهما لا تسمعان ، لقد استولى على جسمى الضعف ، وأصبح السوط الواقع على رُعْبى ويخيفنى ، بطاردنى معذبى فى النهار ، ولا يترك لى الراحة فى الليل ، لقد خذلنى الإله ، لم يأت إلىّ لمساعدتى ، ولم تعطف علىّ ألهتى ، فتخلصنى من مصائبى) .

ويستمر مؤلف هذه القطعة الأدبية الذى ينكر إمكان تطبيق مقاييس القيم البشرية على الآلهة ، فالإنسان ضئيل حقير قاصر النظر ، لا يستطيع استكناه الحكمة فى أعمال الآلهة وتصرفاتها ، فيحكم عليها بموجب مقاييسه وقيمه القاصرة .

جاء على لسان ذلك المعذب الصالح ، كأنه يعتذر عما بدر منه :
(إن ما يبدو صحيحاً فيستحق الثناء بعين المرء قد يكون محتقراً بأعين
الآلهة ، وما قد يتراءى للمرء من أنه قبيح ردىء قد يكون حسناً بعين إله
المرء ، فمن ذا الذى يستطيع أن يدرك فكر الآلهة وقصدها فى أعماق
السماء ؟ إن أفكار الآلهة كالمياه العميقة ، فمن يستطيع سبر غورها ؟
وكيف يستطيع البشر - وهم محفوفون بالظلام - أن يدركوا قصد الآلهة
وطرقها ؟) .

نفس الأفكار الواردة على لسان أصدقاء (أيوب) :

وتنتهى قصة البابلى ، كما جاء فى قصة أيوب النبى ، بأن ما أصابه إن
هو إلا بلوى وامتحان من جانب الآلهة ، التى ترفع عنه العذاب بعد حين ،
وتحرره من آلامه (١) .

* * * وتعرض قصيدة أخرى - وجدت ضمن مجموعة الآداب البابلية
التي خلفها آشور بانيبال - هذه المشكلة الإنسانية عرضاً أدق ، حين يتحدث
(تاي - أتول - أنليل) ، واصفاً مآلاه من صعب :

(طمس على مقلتي ، كأنما أغلقها بقفل

ووقر أذنى كأذنى الشخص الأصم

وكنت ملكاً فصرت عبداً

وأساء رفاقي معاملتي ، كأن بى جنة

ابعث إلى العون ، ونجنى من الوهدة التى احتفرت لى

بالنهار حشرات عميقة ، وبالليل بكاء

وطول الشهر صراخ ، وطول العام شقاء

* * *

كأنى لم أعط الإله نصيبه على الدوام
ولم أبتهل إليه وقت الطعام
كأنى إنسان لم يكن التضرع والدعاء دائمين على لسانه
لقد علمت بلدى الاحتفاظ باسم الإله
وعودت شعبى أن يعظم اسم الإله
وكنت أظن أن هذا كله مما يسرأى إله !!

* * *

لقد لفتى الهم كأنه شبكة

تتطلع عيناي ولا تبصران

أذناى مفتوحتان ولا تسمعان

سقط الدنس على عورتى

هاجم الغدد التى فى إحشائى

أظلم الموت جسمى كله

لقد تفككت أطرافى ، فلم تعد تمشى مؤتلفة

أقضى الليل بين أقدارى كما يقضيه النور !!

ثم يجهر بإيمانه كما فعل أيوب :

(لكنى أرى اليوم الذى تجف فيه دموعى

اليوم الذى يدركنى فيه لطف الأرواح الواقية

ويومئذ تكون الأرواح رحيمة بى) .

ثم تتقلب الأحوال كلها سعادة وهناء ، فيظهر أحد الأرواح الطيبة ،

(١) مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - ج ١ ص ٢٤٢ / ٢٤٤ .

ويشفى (تائب) من جميع أمراضه ، إذ تهب عاصفة تطرد شياطين المرض كلها من جسمه ، ويسبح بحمد (مردوك) ، ويقرب له القرابين النفيسة ، ويهيب بالناس جميعاً ألا يقتطوا من رحمة الله (١) .

* * * هذا العرض السريع لأيوب البابلي يؤكد أثر فكر وادى الرافدين في تدوين العهد القديم ، إبان الأسر الطويل . فإذا جاءت (مسرحية أيوب) بهذه القوة ، فلأنها جمعت بين روافد مختلفة ، وكان للعامل النفسى - فى ظل الأسر - المحرك الدرامى فى الصراع داخل نفس أيوب ، وبين أيوب وصاحبه .

* * *

ينعقد مجلس الرب مع أبنائه الملائكة ، ويحدث تحدّ بين الرب والشیطان .

الرب يرى أن أيوب (ليس مثله فى الأرض ، رجل كامل مستقيم ، يتقى الله ، ويحيد عن الشر .

والشیطان يرى أن مردّ هذا كله إلى نعم الله عليه : (بسط يدك الآن ، ومُسّ كل ما له فإنه فى وجهك - يجذّف عليك) .

وكان أن استولى السعيون والكلدانيون على الجمال والبقر والأثن وقتلوا الغلمان ، وسقطت نار من السماء فأحرقت الغنم ، وهبت ريح دفنت الأبناء والبنات والغلمان تحت أنقاض بيت أخيهم الأكبر .

قال أيوب : (عرياناً خرجت من بطن أمى ، وعرياناً أعود إلى هناك ، الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً) .

لم يئس الشيطان ، فالتحدى ما يزال قائماً ، لأن (كل مال الإنسان يعطيه لأجل نفسه) ، لهذا (ضرب أيوب بقرح ردىء ، من باطن قدمه

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٢٥٦ / ٢٥٨ .

إلى هامته) ، وساءت حاله ، حتى اجتمع إليه أصحابه يرثون له ويعزّون ، وأخذ الضعف يتسرب إلى نفسه ، حتى لأمه (أليفاز) قائلاً :

(الآن إذ جاء عليك ضجرت ١٩ إذ مسك ارتعت ١٩ الغيظ يقتل الغنى ، والغيرة تميمت الأحق ، إن البلية لا تخرج من التراب ، والشقاوة لا تثبت من الأرض ، ولكن الإنسان مولود للمشقة) .

ولأن مصيبة أيوب (أثقل من رمل البحر) ، قال متضرعاً إلى الله مسترحماً :

(الليل يطول وأصبح قلّماً ، حتى الصباح .. لبس لحى الدود مع ملبر التراب ، جلدى كرش وساخ .. إن قلت فراش يعزّينى تريعنى بالأحلام ، وترهبنى برؤى .. قد أذنبت .. حتى متى لا تلتفت عنى ، ولا ترعيني ، ريثما أبلغ ريقى ١٩) .

بلسدد : مستنكراً : (هل الله يعوّج القضاة ١٩ أو التقدير يعكس الحق ١٩ الله لا يرفض الكامل ، ولا يأخذ بيد فاعلى الشر) .

أيوب : بعد استغراق صوفية طويلة (لا أبالى بنفسى ، رذلت حياتى ، هى واحدة .. أنا مستلذب ، فلماذا أتعب عبثاً ١٩) .

صوفى : (إن الله يغرمك بأقل من ثمنك .. إلى عمق الله تصل ، أم إلى نهاية التقدير تنتهى ١٩) .

أيوب : (للمبتلى هوان فى أفكار المطمئن .. ما تعرفونه عرفته أنا أيضاً ، ولكنى أريد أن أحاكم إلى الله .. اسكنوا عنى فأتكلم أنا ، وليصبنى مهما أصاب ، لا أنتظر شيئاً ، فقط أركى طريقى أمامه .. كم لى من الآثام والخطايا ١٩ أعلمنى ذنبى وخطيئى !! لماذا تحجب وجهك ، تحسبنى عبداً لك ١٩ أترعب ورقة مندفعة ، وتطارد قسّاً يسا ١٩ من يخرج الطاهر من النجس ١٩) .

ألفاز : (هل تنصت فى مجلس الله ، أو قصرت الحكمة على نفسك ١٩) .

أيوب : (معززون متعبون كلكم .. لو كانت أنفسكم مكان نفسى !! روحى تلفت ، أيامى انطفأت ، إذا رجوت الهاوية بيتاً لى ، وفى الظلام مهدت فراشى ، وقلت للقبر أنت أبى ، وللدود أنت أمى وأختى ، فأين إذن آمالى ١٩! آمالى من يعاينها ١٩) .

بلدد : (إلى متى تصنعون أشراكاً للكلام ١٩ يأبىها المفترس نفسه فى غيظه ، هل لأجلك تخلق الأرض ، أو يزرح الصخر من مكانه ١٩) .

أيوب : (لماذا تطاردوننى كما الله ، ولا تشبعون من لحمى ١٩) .

صوفى : (تعبير توبيخ اسمع !! أما علمت أن هتاف الأشرار من قريب ، وفرح الفاجر إلى لحظة ١٩) .

أيوب : (احتملونى وأنا أتكلم ، وبعد ذلك استهزئوا .. لماذا تحيا الأشرار ويشيخون ، نعم ، ويتجبرون ١٩ نسلهم قائم أمامهم معهم ، وذريتهم فى أعينهم ، بيوثهم أمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله ، ثورهم يلقح ولا يخطئ ، بقرتهم تنتج ولا تسقط ، يقضون أيامهم بالخير .. فى لحظة يهبطون إلى الهاوية ، الله يخزن إثمهم لبنيه .. هوذا قد علمت أفكارهم ، فكيف تعزوتنى باطلاً ١٩) .

ألفاز : (هل ينفع الإنسان الله ؟ بل ينفع نفسه الفطن !!) .

أيوب : (حفظت طريقه ولم أجد ، من وصية شفتيه لم أبرح) .

بلدد : (السلطان والهيبة عنده) .

أيوب : (إنه مادامت نسمتى فى ، ونفحة الله فى أنفى ، لن تتكلم شفتائى إثماً ، ولا يلفظ لسانى بغش ، حتى أسلم الروح ، لا أعزل كمالى عنى) .

ويعترف أيوب بأن (مخافة الله هى الحكمة) ، لكنه بشر ، يقارن بين ماضيه : (كنت عيوناً للعمى ، وأرجلاً للعرج) ، وبين حاضره : (الليل ينخر عظامى فى) ، فيصرخ : (ليزننى فى ميزان الحق ، فيعرف الله كمالى .. من لى بمن يسمعى ١٩) .

(فكف هؤلاء الرجال الثلاثة عن مجاوبة أيوب ، لكونه باراً فى عينى نفسه) .

وحمى غضب أليهو بن برخثيل البوزى - الذى كان يسمع ولا يتكلم - لأنه فهم أن أيوب (حسب نفسه أبر من الله) ، فقال :

(أى إنسان كأيب يشرب الهزء كالماء ، ويسير متحداً مع فاعلى الإنثم ، وذاهباً مع أهل الشر ، لأنه قال : لا ينتفع الإنسان بكونه مرضياً عند الله ، إن كنت باراً ، فماذا أعطيته ؟ وماذا يأخذ من يدك ١٩) .

يسمع صوت الرب من العاصفة ، معاتباً أيوب الذى أضنته شقوته :

(أين كنت حين أسست الأرض ؟ عندما ترنمت كواكب الصباح معاً ؟ من حجز البحر بمصاريح حين اندفق فخرج من الرحم ؟ إذ جعلت السحاب لباسه ، والضباب قماطه ؟ أين الطريق إلى حيث يسكن النور ؟ والظلمة أين مقلها ؟ أدخلت إلى خزائن الثلج ؟ أم أبصرت مخازن البرد ؟ هل تربط أنت عقد الثريا ؟ هل عرفت سنن السموات ؟ أترفع صوتك إلى السحب ، فتعصيك فيض المياه ؟ أترسل البروق فتذهب لها وتقول ها نحن ؟ أمن فهمك يستقل الضباب ، وينشر جناحيه نحو الجنوب ؟ أو يأمرك يحلق النسر ويعلى ركبه ١٩) .

أيوب : (هأنأ صغير ، فماذا أجابك ؟) .

السرب : (لعلك تناقض حكمى ، تستذنبنى ، لكى تتبرر أنت ؟)

أيوب : (قد علمت أنك تستطيع كل شئ ، ولا يعسر عليك

أمر .. بسمع الأذن قد سمعت عنك ، والآن رأيتك عيني ، لذلك أرفض
وأندم في التراب والرماد .

ورضى الله عن أيوب ، وبارك أخره أكثر من أولاه .

** صورة مسرحية ، تتناول قضية فلسفية ، بأسلوب هو مزيج من
الشعر الصوفي المتغنى بقدرة الله ، والقلق النفسى الذى قد يصل إلى حد
الرفض والتمرد .. وما أكثر الحالات التى تتسع فيها النفوس المرهفة لنزعته
التصوف والتمرد ، حيث تكونان كالشيء وظله ، أو كالأصل والصورة ،
الظاهر والباطن .

أما (المزامير) فلم تخرج عما ورد فى سفر أيوب من معان ، وإن
صيغت فى شكل ابتهالات ، يكثُر فيها التنبؤ بظهور منقذ إسرائيل ، حلم
المعاناة الطويلة الذى يشبه (مئراس) فى الزارادشتية ، الذى يجى ليحكم
بين الناس ، ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين ، وهو الذى تحوّل فى لغة
(الشيعة) إلى (المهدي المنتظر) .

وهناك من يرى أن معظم المزامير ترجع إلى الأدب البابلى ، إذ كان
الأثر البابلى شائعاً فى فلسطين قبل السبي ، منذ عهد (أخذ) و (منشئ) ،
حيث انتقلت الديانة البابلية وقتذاك بمزاميرها وترانيمها الخاصة - وكانت
تغنى فى الأعياد - إلى أورشليم .

يقول نبوخذ نصر الفخور ، مخاطباً (مردوك) فى تذلل وخضوع :

(إذا لم تكن أنت يارب ، فماذا يكون للملك الذى تحبه وتنادى
باسمه ، وستبارك لقبه حسب مشيتك ، وتهديه صراطاً مستقيماً ؟

أنا الأمير الطائع لك ، باقى كما صنعتنى يدك

إنك أنت خالقى

وأنت الذى حكمتنى فى جيوش العباد

وبمقتضى رحمتك يامولاي بذل قوتك الرهيبه حباً ورحمة

وابعث فى قلبى الاحترام لربوبيتك

وهبنى ما ترى فيه الخير لى)

ومن أناشيد التوبة نجد البابلى يقول :

(أنا خادمك ، أضرع إليك ، وقلبي مفعم بالحسرات

إنك لتقبل الدعاء الحار الصادر ممن أثقلته الذنوب

إنك لتنظر إلى الرجل فيعيش ذلك الرجل

فانظر إلى بعطف حق ، وتقبل دعائى) .

ويقول آخر :

(أى إلهى ، لا تنبذ خادمك

لقد ألقى فى الوحل فخذ بيده

والدلب الذى أذنت بذله رحمة

والظلم الذى ارتكبته مرّ الريح أن تحمله

واخلع ذنوبى الكثيرة كما يخلع المرء الثياب)

ومن الترانيم التى ما تزال باقية فى الطقوس السامية :

(رب ، إن ذنوبى عظيمة ، وأفعالى السيئة كثيرة ، إني أرزح تحت

اثقال العذاب ، ولم يعد فى وسعى أن أرفع رأسى ، إني أتوجه إلى إلهى

الرحيم أناديه ، وأنا أتوجع وأتألم ، رب لا ترد عنك خادمك (١) .

** وقد اهتمت علماء المصريات إلى الصلة القوية بين المزامير العبرية

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٢٢٣ / ٢٢٦ .

وبعض فقرات نشيد أختانوت ، وبخاصة قصيدة الشمس ذات الأثر البارز فى المزموه الخامس والخمسين بعد المائة (١) .

وأغلب الظن - كما يقول ول ديورانت - أن طائفة من الشعراء قد كتبوا هذه المزامير بعد الأسر البابلى بزمن طويل يرجح أن يكون فى القرن الثالث قبل الميلاد (٢) .

ويمكن تصديق ول ديورانت فيما هو من المزامير التى صيغت على نسق أناشيد أختانوت ، إذ إن بعض لفائف البرديات تحوى نصوصاً كاملة من مزامير داود ، مدونة باللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفى ، وهى تسبق مزامير داود المدونة باللغة والخط العبرانى بأكثر من ثلاثمائة عام ، ويضم متحف برلين ثلاث صفحات من كتاب أختانوت ، مطابقة لمثيلاتها فى أسفار التوراة .

ورثة صلة قوية بين موسى عليه السلام وأختانوت ، إذ إن موسى - كما يقول فرويد - قد تلقى علومه فى معبد أون الذى تخرج فيه أختانوت ، وقد آمن بعقيدة التوحيد التى نادى بها أختانوت وحاربها المصريون استجابة لكهنة معبد آمون ، وكان موسى ينشر عقيدة التوحيد بين اليهود ، وكان اليهود يرتلون تسابيح أختانوت فى معابدهم ، ويتغنون بأناشيده بمصاحبة الموسيقى فى مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية .

ولا ريب فى تناقل هذه التسابيح والأناشيد حتى وصلت إلى النبى داود الذى اشتهر بجمال صوته وإتقان عزفه على « القيثارة » أحد الآلات الموسيقية الفرعونية المعروفة ، وعن طريق إجادة الغناء والعزف كانت نسبة أعمال أختانوت إلى داود (٣) .

(١) قصة الحضارة - مج ١ - ج ٢ ص ٢٨٦ - ولعل ديورانت رجع إلى نسخة من التوراة يختلف فيها عدد المزامير عن التى بين أيدينا ، إذ إن مزامير النسخة الراجعة فى العربية ١٥٠ مزموراً .

(٢) المصدر السابق - ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٣) مجلة الهلال - ديسمبر ١٩٩٢ .

و(الأمثال) كذلك لم تخرج عما جاء فى سفر أيوب ، وإن وردت فى صورة وصايا تحاول التوفيق بين اليهودية والأفلاطونية ، وتهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج فى الثقافة اليونانية أن يعودوا إلى الشريعة ، كل ذلك فى نثر لا يقل فى جزائته وقوته عن أى نثر آخر منذ عهد أشعيا .

وقد نسبها عالم المصريات (أدولف أرمان) إلى كتاب (تعاليم أمين - أم - أوبى) ، الذى يرجح أنه عاش حوالى الألف الأولى قبل الميلاد ، ويؤكد هذا بريستد فى (فجر الضمير ص ٣٤٧) بقوله :

(إننا نعرف الآن حكم أمينوبى هذه قد ترجمت إلى العبرية ، وقرأها العبرانيون ، وإن قسماً هاماً منها قد وجد سبيلاً إلى كتاب العهد القديم) .

يقول ول ديورانت عن كتاب (تعاليم أمين - أم - أوبى) إنه يتضمن ثلاثين حكمة فى السلوك الطيب ، يوصى بها ابنه ، وقد جاء فيها :

(لا تغمس قلمك فى المحبرة حتى تؤذى شخصاً آخر .

لا تنفش فى المقاييس والأوزان ، ولا ترتش .

أقض بعدل ، لا تظلم الضعيف لصالح الغنى ، ولا تطرد من كان ملبسه غير مناسب .

لا تغش فى جباية الضرائب ، ولا تكن قاسياً كذلك .

إن جميع ما تفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ إن مكياً واحداً يعطيه الإله خير من خمسة آلاف تكتسبها بغير حق .

لكى يكون المرء كاملاً ، عليه أن يظهر دائماً باحتشام ورقة وتواضع ، فالشخص الثائر كالشجرة التى تنتهى بأن تصير وقوداً ، أما الوديع فكالشجرة التى تحمل ثماراً فى الحقيقة .

كن رحيماً فى كل شىء ، فلا تهزأ بالأعمى ، ولا تسخر من

القوى ، ولا تسبب ضرراً للمقعد ، ولا تزدر رجلاً فى يد الإله ، ولا تغضب عليه إن سقط .

احذر الهموم ، لأن الإنسان لا يدرك ما سوف يكون فى الغد .

لا تبذر الكلام القبيح .

انقل فى مركبك كل من يطلب العبور ، طالما كان فيها مكان) .

والى جانب هذا الأثر المصرى ، هناك أثر بابلى آشورى ، ومما يدل على تعدد المصادر أنها لارابطة تجمعها ، وليس فى أسلوبها وحدة أو تناسق ، فهى مجرد أدب شعبى تناقلته الألسنة ، وتوارثته الأجيال ، فغيرته العصور ، وبدلته الأذواق ، حتى أتى عصر التدوين ، فقدر لها من أثبتها ، ونسبها إلى سليمان الحكيم (١) .

(والجامعة) التى تكون مع سفرى أيوب والأمثال ما يعرف فى (العهد القديم) باسم أدب الحكمة والأمثال التى شاعت فى الشرق القديم ، وبخاصة عند البابليين وقدماء المصريين - ليست فى الواقع لسليمان ، وذلك لأن ابن داود يذكر فى هذا السفر أنه كان ملكاً على إسرائيل بأورشليم ، قبل تأليف (الجامعة) ، والعهد القديم يحدثنا أن سليمان ظل ملكاً حتى توفى ، كما أنه من المستبعد جداً أن يصف سليمان عصره بأنه عصر الظلم واستشراء الفساد ، فضلاً عن أن فلسفة (الجامعة) تحمل بين طياتها كثيراً من عبارات الكفر والإلحاد ، كما يغلب على هذه الفلسفة طابع التشاؤم الذى يغلب على الفلسفة العبرية القديمة التى عرفتها الجزيرة منذ عصور بعيدة جداً ، سواء فى الأكادية أو العبرية أو العربية الجاهلية (٢) .

(١) التوراة الهيروغليفية - ص ١٤٥ / ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق - ص ١٦٤ / ١٦٧ .

نصحت الآلهة جلجامش بقولها : (أى جلجامش ، املاً بطنك ، وكن مرحاً بالليل والنهار ، بالنهار والليل كن مبتهجاً راضياً ، وطهر ثيابك ، واغسل رأسك بالماء ، وألق بالك إلى الصغير الذى يمسك بيدك ، واستمتع بالزوجة التى تضمها إلى صدرك) .

وهذا أشبه بقول الجامعة : (اذهب كل خبزك بفرح ، واشرب خمرك بقلب طيب ، لأن الله - منذ زمان - قد رضى عن عملك ، لتكون ثيابك فى كل حين بيضاء ، ولا يعوز رأسك الدهن ، التذ عيشا مع المرأة التى أحببتها كل أيام حياة باطلتك التى أعطاك إياها تحت الشمس) .

لكن جلجامش لا يزال باحثاً عن المتاعب فى سبيل الخلود ، ويظل فى رحلة الظلام غير مبال بنصيحة الآلهة ، متأوهاً من صميم قلبه ، لأن (قلب الإله بعيد بعد أطباق السموات الداخلية ، والحكمة صعبة ، والناس لا يفهمونها) .

أما (الجامعة) فىرى كل شيء (باطل الأباطيل ، وقبض الريح) ، لأن (ما يحدث لبني البشر يحدث للبهيمة) ، ولأن (الحكيم يموت آخر الأمر كما يموت الأبله ، وكلاهما ينتهى إلى جيفة منتنة) .. وهو ما حاول جلجامش أن يتقواء ، فظل يعانى فى طلب الخلود .

ولعل هذه النظرة السوداوية عند (الجامعة) إنما كانت بسبب عدم التطلع إلى سعادة ما بعد الموت ، وإلى عدم الإيمان بالبعث ، وهو ما يتنافى مع أى رسالة سماوية .

بصورة موجزة يمكن القول إن (العهد القديم) صدى ثقافات كثيرة
اعتمدت في وجدان وفكر شعوب الشرق الأدنى كله ، ولعل النصوص
الكنعانية والفينيقية التي اكتشفت أخيراً في (أوجاريت) أكبر دليل على أن
كتاب العهد القديم قاموا بدور الانتخاب تارة والامتصاص تارة أخرى ، من
خلال ظروف طويلة متشابهة بين شعوب البحر المتوسط وغيرها ، فتولد
هذا التراث الشرقي الكبير الذي بين أيدينا في إطار (الكتاب المقدس) .

٨ - كتاب مقدس .. عبارته تنفى قداسته !!

من يطالع العهد القديم يلتقى بمثل هذه العبارة:

(كان جميع المغنين والمغنيات يندبون يوشيا في مرثيتهم إلى اليوم ،
وجعلوها فرضة على إسرائيل ، وها هي مكتوبة في المراثي ، وبقية أمور يوشيا
ومراحمه - حسبما هو مكتوب في ناموس الرب - وأموره الأولى
والأخيرة ها هي مكتوبة في سفر ملوك إسرائيل ويهوذا) - (أخبار
الأيام الثاني / ٣٥) .

العبارة تشير إلى أن الكاتب ينقل عن كتب أخرى ، مثل ما جاء في
(أخبار الأيام الأول / ٢٩) .

(مكتوبة في سفر أخبار صموئيل الرائي ، وأخبار ناثان النبي ، وأخبار
جاد الرائي) .

ومثل ما جاء في (أخبار الأيام الثاني / ١٢ و ٢٤) :

(أما هي مكتوبة في أخبار ناثان النبي ، ونبوءة أخيا الشيلوتي ، وفي
رؤى يعدو الرائي على يريعام بن نباط) ؟

(أما هي مكتوبة في أخبار شمعيا النبي ، وعدو الرائي عن
الانتساب) ؟ .

(ها هي مكتوبة في مدرس سفر الملوك) .

لكن .. متى تمت الكتابة أو النقل ، ومن الكاتب أو الناقل ؟!

يكاد يجمع العلماء على أن الكتابة تمت في عهد متأخر ، وطال زمن
الكتابة والجمع تحت مؤثرات مختلفة .

ويكفى أنه - بعد أربعمئة وثمانين عاماً لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر - لم يكن يوجد فى بيت الرب الذى بناه سليمان إلا لوحا الشهادة للذان كتبهما الرب بإصبعه لموسى - (الملوك الأول / ٦ و ٨) .

ومع هذا نجد من يدعى أن موسى أعد إعداداً خاصاً - حوالى سنة ١٥٠٠ ق م - ليبدأ فى كتابة الأسفار المقدسة التى فيها يسجل تاريخ ٢٥٠٠ سنة خلت من قبله (١) .. فهل كانت الكتابة بالمصرية القديمة التى عرفها موسى ، أو بالآرامية الفلينية فالعربية التى تم النقل إليها بواسطة من لا يعرفون لغة موسى ١٩ .

وهل كانت لموسى مراجع ومصادر ينقل عنها ، أو كانت وحياً يوحى ١٩ .

وهل يتدأ التاريخ الإسرائيلى بموسى أو بإسرائيل أو بإبراهيم أو بسام بن نوح ؟ .

وهل كان هؤلاء الأجداد العظام يدونون ، أو على علم بهذا التاريخ ؟ .
(بعد السبى البابلى ، واندماج اليهود مع البابليين ، قل استعمال اللغة العبرية تدريجياً بين الشعب كلغة قومية ، وإن ظلت لغة مقدسة ، وأوشكت على الزوال ، حتى أن اليهود حوالى القرن الثانى قبل الميلاد احتاجوا إلى تراجم لقراءة الصلوات وتأدية الطقوس فى السبوت والأعياد ، وحلت محلها اللغة الآرامية ، فظهرت تراجم للعهد القديم فى لغات مختلفة ، أهمها الآرامية ، على يد أوتقلوس ويوناثان بن عزرييل والحنانم يوسف ، وفى اليونانية ترجمه فى الإسكندرية - زمن بطليموس فيلاد لفوس (٢٨٥ / ٢٤٧ ق م) - سبعون عالماً من اليهود ، قضاوا فى ترجمته - كما يروى -

(١) مصادر الكتاب المقدس - ص ١٢ .

سبعين يوماً ، ثم ترجمه أخيلاس فى عهد أوربان (١٣٨ / ١١٧ ق م) ، ثم تيودوريوس وسيمانخوس فى أواخر القرن الثانى ق م ، ثم إلى اليونانية الحديثة واللاتينية والسريانية ، والعربية على يد سعديا الفيومى ، حوالى عام ٩٤٢ للميلاد ، وهلم جرا (١) .

النقل تم بلغات مختلفة ، ولكل لغة عاداتها ومصطلحاتها ، ولكل زمن لغته وموحياتها ، ولكل كاتب قدراته ومكوناته النفسية ، مما أدى إلى أننا نعثر فى أماكن كثيرة من التوراة على آثار حذف ملموس ، أو تكرار ممل ، أو تناقض واضح .. وثمة (عقائد وشرائع مختلفة ، تعكس الأفكار والنظم المتعددة ، التى كانت سائدة لديهم ، فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل) (٢) .

ولقد (استهلك مادون من كثرة الاستعمال ، أو طوحت به السنون فى زوايا النسيان ، وبعضها قد أقسد عمداً ، أو أعلك عرضاً ، وبعضها ضاع واختفى فى فترات الاضطهاد ، هذا كله بالإضافة إلى ما تطالبه وضع العهد القديم من زمن قد امتد إلى نحو ألف عام ، كما أن جمعه قد استغرق قروناً عديدة) (٣) .

والكهنة كانوا يعتمدون فى التدوين والجمع على ماسمعوه ، وماتلقاه الخلف عن السلف - رواية - من أخبار وأساطير ، وكثيراً ما كان الكهنة يكتبون ما يجيش بصدورهم أو ما يتمنونه ، ويحلمون به حقيقة واقعة ، أو تاريخاً ماضياً ، وما هو إلا خيال يبلغ التعلق به مبلغ التصديق ، أو هو وهم يتخذ فى نفس الواهم صورة الحقائق المقررة ، ومن ذلك ما جاء فى سفر

(١) اليهودية واليهودية المسيحية - ص ١٠٢ .

(٢) د. على عبد الواحد واقى - اليهودية واليهود - مكتبة غريب بالقاهرة - ص ١٣ .

(٣) مصادر الكتاب المقدس - ص ٧/٦ ويلاحظ أن السيد القس يقول بعد ذلك : (إن نسخ الأسفار المقدسة التى وصلت إلينا بعد هذا الأمد اللديد هى عين النسخ التى كانت فى ذلك الوقت) - ص ٨ .

(صموئيل الثاني - ٨) من أن داود النبي (ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات) II .

هذا إلى اختلاف المصادر ، لدرجة أن A - Lods استطاع سنة ١٩٤١ م أن يميز في الوثيقة (اليهووية) ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة (اليهودية) ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة (الإلهيمية) أربعة ، وفي سفر التثنية ستة ، وفي النص (الكهنوتي) تسعة ، هذا عدا (حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين) ، كما يقول الأب ديفو .

وقد جرت تعدد المصادر إلى تناقضات وتكرارات عديدة في هذه النصوص ، وبخاصة فيما يتصل بالخلق وأنسال قابيل والطوفان واختطاف يوسف وما جرى له في مصر ، والاختلافات الخاصة ببعض الأسماء ، والتصورات المختلفة للأحداث الهامة (١) .

إذا كان الأمر كذلك فقد حق لنا أن نتساءل :

هل (العهد القديم) قدسَى العبارة أو الدلالة ١٢ .

هل الذين كتبوه يحملون صفة تشريعية تستوجب الطاعة ، أو هم مجرد أدوات تسجيل تختلف قدراتها ١٢ .

إذا سقمت العبارة بحيث تعطى انطباعاً سيئاً لدى جماهير القراء ، فهل تبقى على هذا الانطباع السيئ ، ونحافظ على شكل العبارة الموروث ، ولا حيلة لنا في تغييره ١٢ .

إذا كان الذين سجلوا ليسوا كتّاب الوحي ، أما يحق لنا إعادة التسجيل ، وبخاصة أن ما نملكه ليس ما يؤكد أصالته ١٢ .

لننظر فيما عرض لنا أثناء القراءة الأولى ، ونترك لذوى البصيرة حق المراجعة .

* * *

(١) موريس بوكاي : ص ٢٩ .

ثمة أخطاء خاصة بالمعلومات العامة ، أو القرية ، أو البديهيّة ، كثيرة في أقلام كتّاب العهد القديم ، ومن ذلك :

يبدأ سفر تكوين بقوله : (في البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله : ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهاراً ، والظلمة دعاها ليلاً ، وكان مساء وكان صباح ، يوماً واحداً) - (تكوين / ١ - ٥) .

وفق التكوين الجيولوجي للكون تمثل المياه مرحلة متأخرة ، كما أن النجوم لم تخلق حسب نص التوراة إلا في اليوم الرابع ، فمن أين جاء النور ، والظلمة والنور في (التكوين) خاضعان لحركة النجوم والكواكب ، أو حركة الأرض في مجموعتها الشمسية ؟

ثم إنه تحدّث عن الثبات ، فقال : (لتثبت الأرض عشباً ونبلاً ، تبرز بزرّاً وشجراً ذا ثمر) (تكوين / ١) قبل أن تكون النجوم ، ومنها الشمس التي تحكم الإنبات ، ومنها الأرض أيضاً التي احتاجت ملايين السنين حتى تبرد قشرتها ، وتجرى مياهها .

هذا إلى ما هو أهم ، وهو أن خلق الأرض ليس سابقاً على خلق الشمس والقمر ، حتى تكون مياه ونبات ونور !! .

ثم إن إشارات سفر (تكوين / ٥ و ١١) عن الفترة الزمنية التي تفصل بين آدم وإبراهيم تقود إلى تحديد تاريخ آدم بحوالي ثمانية وثلاثين قرناً قبل المسيح ، أي بعد ظهور الحضارة المصرية بعدة قرون ، مع أن الحضارة المصرية تمثل مرحلة متأخرة في حياة الإنسان التي ترجع إلى عشرات ألوف السنين ، كما يدل على ذلك الكثير من الحفائر التي لا يتطرق الشك إلى معطياتها ، ومن خلالها يصل عمر الإنسان إلى مليونين وإلى خمسة ملايين ، فيما ورد من (التقديرات) .

ثم إذا كان نوح قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من خلق آدم ، حسب الإشارات الزمنية السابقة ، فإن الطوفان يكون قد وقع بعد ١٩٥٦ عاماً من خلق أدينا الأول تقريباً ، لأن الطوفان حدث وعمر نوح أكثر من تسعمائة عام ، فإذا كان الطوفان يخص الجنس البشرى كله ، وكل الكائنات الحية على الأرض ، فإنه يكون قد حدث قبل الأسرة الحادية عشرة فى مصر ، وأسرة أور الثالثة فى بابل ، ولم يتحدث التاريخ عن انقطاع الحضارة فى هذه المرحلة ١١ .

وأخطر من هذا كله أن كلمة (يوم) فى التوراة تعنى المسافة الزمنية بين إشرقين متوالين ، أو غروبين متوالين للشمس ، وذلك بالنسبة لسكان الأرض ، ولم يكن بعد سكان ، ولم تكن شمس ، فإذا كان اليوم يعنى مرحلة زمنية تتسع للتغيرات (الكونية) ، فقد أصبح (يوم السبت) - بمفهوم ما جاء فى (الوصايا) - عبثاً من العبث ١١ .

جاء فى (تكوين / ٧) أن الطوفان استمر أربعين يوماً وأربعين ليلة فى حين ورد بعد ذلك فى نفس الأصحاح أن الطوفان استمر (١٥٠) يوماً ١٢ .

ويلج سؤال : إذا كان سفر (تكوين) من الأسفار الخمسة التى أجمع المؤرخون ورجال الدين اليهودى والمسيحى على أنه من كتب موسى التى جاء بها عن الرب ، وكانت لغة موسى المصرية القديمة ، إذ إن موسى - كما ذكر المؤرخ اليهودى يوسيفوس فلافيوس - كان ضابطاً فى الجيش المصرى ، ولم يخرج مع من خرجوا إلى سيناء ، التى كانت وقتذاك إقليمياً مصرياً - إلا ليواصل حياته المصرية ، بعيداً عن استبداد الفرعون ، ولم ير موسى فلسطين ، وتوفى قبل أن تظهر العبرية إلى الوجود بأكثر من قرن (١١)

(١١) التوراة الهيروغليفية - ص ٥ .

ثم دونت كتب موسى قطعاً بغير العبرية ، فمن أين جاءت هذه الاشتقاقات اللغوية ١٢ .

قد يقال : إن العبرية والآرامية والعربية ذات أصول مشتركة ، لكن كثرة هذه الاشتقاقات فى صورتها العربية تجزم بأن الذين ترجموا التوراة إلى العربية كانت لهم حرية الحركة أكثر مما ينبغي ، وإلا كان علينا أن نقرر أن العربية والآرامية والعبرية لغة واحدة اختلفت لهجاتها ، وليس الأمر كذلك ، ثم إن المصرية القديمة بعيدة عن هذه المشاركة .

جاء على لسان آدم : (هذه تدعى امرأة ، لأنها من امرئ أخذت) - تكوين ٢ - مفسراً كون حواء أخذت من أحد أضلاع .

(ودعا آدم اسم امرأته حواء ، لأنها أم كل حي) - (تكوين / ٣) .
(وولدت له قايين ، وقالت : اقتنيت رجلاً من عند الرب) - (تكوين / ٤) .

(ولعابر ولد ابنان ، اسم الواحد فالج ، لأن أيامه قسمت الأرض) - (تكوين / ١٠) .

(ودعى اسمها بابل ، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض) - (تكوين ١١) - مع أن الأقرب إلى الحقيقة أن الأصل (باب أيل) ، أى بوابة الرب ، وبلبله الألسنة العالمية فى مكان بعينه لا يقوم عليه دليل ..

(وتدعى اسمه إسماعيل ، لأن الرب قد سمع لمذلتك) - (تكوين / ١٦) .

(يهرب لوط إلى مدينة صغيرة ، ومن ثم (دعى اسم المدينة صوغر) - (تكوين / ١٩) .

(وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو ، فدعى اسمه

يعقوب) - (تكوين / ٢٥) .

(أقام إبراهيم سبع نعاج وحدها) ، بعدما حفر بئراً ، (لذلك دعا ذلك الموضوع بئر سبع) - (تكوين / ٢١) .

ويمضى هذا التفسير الاشتقاقي فى كثير من الأسفار المقدسة ، مما قد يثير سؤالاً : هل هذا وارد فى الترجمة العربية فقط ؟ .

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل يباح للمترجم أن يغير فى النص المقدس ، لمجرد أن هذا اللون من التعليل استهواه ، فأفساه أحياناً تعليلاً سبق به ، مثلما ورد من (أن عبيد إسحق جاءوا وأخبروه عن البئر التى حفروا ، وقالوا له : قد وجدنا ماء ، فدعاها شعبة ، لذلك اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم) - (تكوين / ٢٦) .

وبهذا يكون مصدر تكذيب للأخبار المقدسة ١٩ .

ويلاحظ أن إسحق بن إبراهيم ، أى لم يمض زمن يستدعى حفر البئر من جديد ، والبحث عن سبب آخر للتسمية !! .

ولا يقف أمر التكذيب عند حسن التعليل أو سوءه ، فإن كثيراً من الأخبار الواردة فى سفرى (تكوين) و (خروج) - أول أسفار تورا موسى - تحمل دلالة كذبها .. مثال ذلك :

*** وسوست الحية لحواء أن تأكل من الشجرة المحرمة ، فكان العقاب للحية : (على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك) ، كما كان عقاب حواء (تكثيراً أكثر أتعاب حبلك ، بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك) - (تكوين / ٣) .

فهل كانت الحية لا تسعى على بطنها قبل هذه الحادثة ؟ .

وهل هى تأكل تراباً أيام حياتها ؟ .

وما الظن بالتفسير الذى يرى أن الحية رمز الذكورة الذى هو سبيل إلى الحمل والولادة والتكثير ١٩ وهل المرأة - دون بقية الإناث - يسيطر عليها الذكر ؟ .

وهل هى - من دون بقية الإناث - تعاني من آلام الحمل والولادة ؟

وهل من العقاب أن تشتاق إلى زوجها ؟ .

وما الظن بالمرأة التى تسود وتتحكم فى ملايين الذكور ، مباشرة ، أو من وراء ظهر زوجها ١٩ .

** ورد فى سفر (تكوين / ٢) : نهى آدم عن الأكل من شجرة بعينها : (فأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت) ، والذى حدث أن آدم أكل منها ولم يمض ، بل عاش أكثر من تسعمائة سنة ، ثم كيف يدعى آدم إلى الخير وهو لا يعرفه ، وينهى عن عمل الشر وهو جاهل به ؟

ألا يكون فى التعريف بالشجرة المنهى عنها نوع من التجاوز ؟ .

ألا تكون الشجرة المحرمة على سكان (الجنة) هى شجرة (التكاثر) ، بسبب ما يتبع التكاثر من مشكلات إنسانية لا نهاية لها ؟ .

** تحدث سفر (تكوين / ٥٤) عن مواليد آدم ، حتى ولد نوح ساماً وحاماً ويافث ، (وحدث لما ابتدأ الناس يكثر على الأرض ، وولد لهم بنات ، أن أنباء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا ، فقال الرب : لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد ، لئذ يغانه ، هو وبشر ، وتكون أيامه مائة وعشرين سنة) (تكوين / ٦) .

لماذا فصل بين الذكور والإناث ، فجعل الذكور أبناء الله ، والإناث بنات الناس ؟ .

أهو استفادة من موقف كفار العرب ، حين جعلوا الإناث لله والذكور لهم ، فاستكر الله هذا في قرآنه بقوله : ﴿ فاستفتهم ، أترك البنات ولهم البنون * أم خلَقْنَا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولَدَّ الله وإنهم لكاذبون * أصْطَفَى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون ﴾ (١) .

ومن ثم سار كاتبو التوراة هذه السيرة ؟ ولماذا يغضب الله من هذا التزاوج بعد أن تولدت أجيال غفيرة ؟ ثم يحكم على الإنسان الذى اقترف هذا (الجرم) بأن (تكون أيامه مائة وعشرين سنة) ، ثم يذكر مواليد سام ، فإذا أعمارهم مئات السنين ١٢ (انظر ، تكوين / ١١) .

* (وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له ، وأما بنو السراى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا ، وصرفهم عن إسحق ابنه شرقاً ، إلى أرض المشرق ، وهو بعد حى) .

(وأسلم إبراهيم روحه ، ومات بشيخة صالحة شيخاً وشيعان أياماً ، وانضم إلى قومه ، ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة) - (تكوين / ٢٥) .

خبران فى أصحاب واحد ، كيف صرفهم إلى أرض المشرق وهو بعد حى ، ثم حضر إسماعيل ابن سريته دفنه ؟ .

هل اتصل إسحق بأخيه إسماعيل بالبرق أو بالمسرة أو بالبريد ؟ .

أو أنه ضرب إليه بطن ناقة شهراً وعاد فضرب بطنها شهراً ، قبل أن يتم دفن إبراهيم ، حرصاً ووفاء لأخيه ، حتى يشارك فى تقبل عزاء أبيه ١٢ .

(١) الصافات / ١٤٩ - ١٥٤ .

أو أنه حدث صدقة أن كان إسماعيل فى زيارة أبيه ؟ .

** (وأخبر يعقوب راحيل أنه أخو أبيها ، وأنه ابن رفقة ، فركضت وأخبرت أباه ، فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته ركض للقاءه) (تكوين / ٢٦) .

كيف يجتمع هذا فى خبر واحد ، إلا أن يكون يعقوب النبى كاذباً ، أو أنه لم يكن يعرف علاقته بخاله ، أو أنه كان يمزح ١١ .

** (واجتاز رجال مديانويون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر ، وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة) - (تكوين / ٣٧) .

(وأما المديانيون فباعوه فى مصر لفوطيفار خصى فرعون رئيس الشرطة) - (تكوين / ٣٧) .

(وأما يوسف فأنزل إلى مصر ، واشتراه فوطيفار خصى فرعون رئيس الشرطة ، رجل مصرى ، من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك) - (تكوين / ٣٩) .

لو أننا جمعنا بين الأخبار الثلاثة يكون المديانيون قد باعوا يوسف للإسماعيليين ، والإسماعيليون باعوه لفوطيفار ، ومن ثم يكون المأخذ على صياغة كل خبر على حدة .

** انتقم الله لبنى إسرائيل ، (فماتت جميع مواشى المصريين) - (خروج / ٩ى ٦) .

ثم طلب من موسى وهارون أن يأخذا ملء أيديهما من رماد الأتون ، ويذرياها نحو السماء ، أمام عيني فرعون ، (ليصير غباراً على كل أرض مصر ، فيصير على الناس وعلى البهائم دمايل طالعة ببثور ، فى كل أرض مصر) - (خروج / ٩ى ٩) .

إذا كانت جميع المواشى قد ماتت ، فمن أين البهائم المصابة

بالدمامل ١٢ أم أنه أراد تفسير طريقة الموت ، فجاء بالتفصيل بعد الإجمال ، وإن كان التفصيل أصاب الناس والبهائم بالدمامل فقط ، على حين اقتصر الإجمال على موت جميع الماشي ١١

**** جاء فى سفر (تكوين / ٣٢) أن يعقوب عبر مخاضة ييوق مع أسرته ، ثم بقى وحده ، فلقى الله ، وصارعه ، (صارعه إنسان حتى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع حتى فخذ يعقوب فى مصارعته معه ، وقال - الله - أطلقنى ، لأنه قد طلع الفجر ، فقال - يعقوب - لا أطلقك إن لم تباركنى ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : يعقوب ، فقال : لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت ، وسأل يعقوب وقال : أخبرنى باسمك ، فقال : لماذا تسأل عن اسمى ؟ وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فنيثيل ، قائلاً : لأنى نظرت الله وجهاً لوجه ، ونجيت نفسى ، وأشرقت له الشمس ، إذ عبر فنيثيل وهو يجمع على فخذه ، لذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ إلى هذا اليوم ، لأنه ضرب حتى فخذ يعقوب على عرق النسا) .**

يعلق صاحب (الفولكلور فى العهد القديم - ج ١ ص ٣٦٦ وما بعدها) بأن القصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن يكون مؤلفو سفر تكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية ، عندما اشتبموا فيها رائحة الوثنية ، ومن ثم فإن أى تفسير لها إنما يعتمد على الفرض .

لكننا إذا ربطنا هذه القصة بالملاح الطيبعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها من ناحية ، وإذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها ، فإننا نفترض بادئ ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه ، وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان

الماشية ، وبقائه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر ، وربما حسب يعقوب أن إله النهر المنعزل يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار الدفل ، على مسافة آمنة بعيدة .

وقد كان (مينيلوس) قد أمسك على هذا النحو بإله البحر (بروتوس) الذى كان يرقد منعزلاً وقت الظهيرة بين الحواجز ، وفوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته ، وقد حاول روح الماء ذو الجسد الطبع الأملس أن ينزلق من قبضة أسره ، ثم وجد أن محاولاته تضيق هباء ، فرفض لمطلبه ، وأعطاه المنحة التى يسعى إليها .

أكثر من أسطورة إغريقية تأخذ هذا الشكل القصصى ، وكان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التى تخشى خطورتها وتقلبها .. وينصح (هزويد) من يعبر النهر بقوله : (عليك قبل أن تعبر النهر أن تنظر إلى المياه الجارية ، وأن تصلى وتغسل يديك ، لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه فإنه يتعرض لغضب الآلهة) .

ومن أساطير المكسيكيين القدماء أن رجلاً شجاعاً أمسك شبح الإله الكبير (تزكاتليوكا) ، وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس ، فتوسل الشبح إليه أن يتركه ، ووافق على أن يمنحه أى هبة يطلبها .

**** هذا التصور الخرافى الوارد فى سفر (تكوين) للعلاقة بين الإنسان والإله ، أو لوجود آلهة للقوى الطبيعية ، إنما هو من طبيعة الفطرة الإنسانية الضعيفة البسيطة التى لم يهذبها دين أو مدنية ، ومع هذا فقد أصبحت جزءاً من كتاب دينى ، ما يزال أكثر سكان العالم يدينون به !! لم يتوقفوا عند تجسيد الإله فى صورة إنسان ، وعند هزيمة الإله مصارعاً الإنسان ، وعند خضوع الإله لإرادة الإنسان ، ومع هذا فما يزال التاريخ يتحدث عن يعقوب النبى ، لا عن إسرائيل النبى !! .**

بالفرعونية ، نجد أن معناها البوص أو البردى ، الذى لا ينبت إلا مع المياه العذبة ، وخليج العقبة بعيد كل البعد عن هذه المياه ١١ .

*** وفى سفر (الأيام الأول / ٧) نجد أبناء بنيامين فى الأصحاح السابع ثلاثة ، وهم (بالع وبأكر ويديعيل) ، وفى الأصحاح الثامن نجدهم خمسة (بالع وأشبييل وأئرخ ونوحه وراخا) ، على حين هم فى سفر (تكوين ٤٦) عشرة : (بالع وبأكر وأسبيل وجيرا ونعمان وإيحى وروش ومقيم وحقيم وأرد) ، مع ملاحظة الاختلاف فى الأسماء أيضاً .

*** وفى سفر (الأمثال ٢) نجد إدانة للكلب : (من الشفة الكاذبة نفرة الرب) ، مع أن الله فى سفر (خروج ١١) دعا موسى إلى أن يتحدث (فى سامع الشعب أن يسأل الرجل صاحبه ، والمرأة صاحبها أمتعة فضة وأمتعة ذهب) ، وفعل بنو إسرائيل - كما أمر موسى ، أو كما أمر الرب - واستعاروا من المصريين أوانى فضة وذهب ، وشيثاً كثيراً من الكسوة .. احتال الله - سبحانه - لبني إسرائيل ، حتى يستولوا على مال المصريين ويهربوا ، ثم أرسل الله روح ضلالة - كما جاء فى (سفر صموئيل الأول / ١٩) - فجعل جماعات تتنبأ فى صف صموئيل وجماعات تتنبأ فى صف شاول ، وكل التنبؤات من وحى (روح الله) ١١ .

وكثيراً ما يصطدم القارئ بعبارات ومواقف لا تلائم هذا المجال الدينى المقدس ، كأن يجرى على لسان موسى الرسول مسترحماً الله : (لماذا يتكلم المصريون قائلين : أخرجهم بخبث ليقتلهم فى الجبال ؟! اندم على الشر بشعبك) ، ثم يقول : (فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه) - (خروج / ٣٢) .

ولا يكون الندم إلا إذا كان الخطأ ، فهل إله موسى غير معصوم من الخطأ ١٢ .

ثم إن الإذن بالخروج كان لنجاتهم من فرعون ومن المصريين - وقد تحققت النجاة - فقيم إذن الإدانة التى تستدعى الندم ؟! لقد صحب الخروج عدة خوارق طبيعية لصالح إسرائيل ، أما كانت تستدعى الشكر والحمد (فريضة دهريه) ١٢ .

وللأسف يتكرر هذا التعبير بعد ذلك على السنة (الأنبياء) ، كأن يقول أرميا : (اسمعوا لصوت الرب إلهكم ، فيندم الرب عن الشر الذى تكلم به عليكم) - (أرميا / ٢٦) .

*** وتنسب التوراة إلى هارون النبى أنه أمر بنزع أقراط الذهب من آذان النساء ، وصنع منها عجلًا مسبوكة - (خروج / ٣٢) .

وبهذا يكون هارون - الذى استنجد به موسى ليكون عوناً على نشر رسالته - داعية إلى الوثنية ، والحقيقة التاريخية التى سجلها القرآن الكريم أن رجلاً سامرياً^(١) هو الذى فعل هذا الفعل ، بعد أن وجد استجابة كبيرة من (الشعب) ، فخشى هارون - إذا وقف فى وجه هذا التيار الإلحادى الجارف - أن يمزق وحدة الشعب ، وهو ما يزال فى التيه ، فانتظر قدوم موسى بوحي وتوجيه من الله :

﴿... وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ..﴾ قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى^(٢) .

*** الأخبار الكثيرة التى تنال من سيرة الأنبياء ، فتجعلهم قتلة أو زناة أو دعاة إلى الزنا^(٣) ، ابتداء من نوح ، مروراً بإبراهيم وسليمان .. وما كان

(١) منسوب إلى طائفة السامرة ، من غير بنى إسرائيل ، اعتنقت اليهودية ، وامتزجت بالإسرائيليين ، أو يرجع أصله إلى إقليم السامرة - عن اليهودية واليهود - ص ٦٩ .

(٢) انظر سورة طه من الآية ٨٥ إلى الآية ٩٤ .

(٣) انظر الفصل الأول .

ينبغي أن تصل الجرة إلى تجريم آباء إسرائيل بهذه القسوة ، مهما قيل عن الضعف البشرى ، والخطيئة الموروثة عن آدم ، وإلا فكيف يقول الرسول ما لا يفعل ؟ كيف يدعو إلى الخير وهو صورة للشر ، داعية إليه ١٩ كيف يكون سليمان رسول الله وهو يعبد آلهة سبعمئة زوجة ، ويقدم لها القربان ١٩ .

* * * يجرى سفر (أخبار الأيام الأول / ١٧) على لسان الله ما لا يتفق والواقع التاريخي ، إذ قال رب الجنود لداود :

(كنت معك حيثما توجهت ، وقرضت جميع أعدائك من أمامك ، وعملت لك اسماً كاسم العظماء الذين فى الأرض ، وعينت مكاناً لشعبى فى إسرائيل ، وغرسته فسكن فى مكانه ، ولا يضطرب بعد ، ولا يعود بنو الإنم يبلونه ، كما فى الأول) .. مع أن أحداث السبى والشتات جرت بعد ذلك !! .

ويلاحظ أن داود هذا - مع مكانته فى التاريخ اليهودى والمسيحى - يقع تحت طائلة تشريع يقول : (لا يدخل ابن زنا فى جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر ، ولا يدخل منه أحد فى جماعة الرب) (تثنية / ٢) لأنه من أبناء فارص الذى ولد لنامار من زنا ، كما جاء فى (سفر تكوين ٣٨ /) .

أليس عجباً أن نزيف سلسلة نسب السيد المسيح ليصبح من أبناء داود هذا ١٩ .

* * *

وهناك مأخذ لفظية مردّها الغفلة أو الجهل .

ورد فى سفر (تكوين / ٣٦) : (وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم ، قبلما ملك ملك لبني إسرائيل) .. والصحيح أن تكون صيغة

الخبر (قبل أن يكون ثمة ملك فى إسرائيل) ، فالمعروف أن أدوم (عيسو) عاش فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، بينما بدأت الملكية فى إسرائيل بشاءول حوالى سنة ١٠٠٧ ق . م ، ومعنى هذا أن الملكية لم يكن لها وجود ، أو احتمال وجود قريب من أيام موسى ، فكيف أتيج لموسى أن يكتب عنها إذا صحت نسبة هذه الأسفار إليه ١٩ فهل الخبر يتعلق برسالة موسى حتى ينزل به وحى ١٩

قال آدم كلارك : (غالب ظنى أن موسى - عليه السلام - ما كتب هذه الآية والآيات التى بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين ، بل هذه الآيات هى آيات الأصحاح الأول من السفر الأول من أخبار الأيام ، وأظن ظناً قوياً قريباً من اليقين أن هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة ، فظن الناقل أنها جزء من المتن فأدخلها فيه ^(١) .

* * * وفى سفر (تثنية / ٣٤) : (لم يقم بعد نبيّ فى بنى إسرائيل مثل موسى) ، مع أن موسى لم يتجف عظامه بعد ١٩ ويحكى موسى عن نفسه أنه (مات موسى عبد الرب فى أرض مواب ، حسب قول الرب ، ودفنه فى الجواء فى أرض مواب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف لإنسان قبره إلى اليوم) - (تثنية / ٣٤) - وما ندرى حدود (إلى اليوم) ، كما لا ندرى سر إخبار موسى عن موته بصيغة الغائب ، إلا إذا كان لوناً من فن الصياغة !! .

(ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه ، كما يكلم الرجل صاحبه) ، على حين يقول الرب لموسى : (لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش) - (خروج / ٣٣) .

فإذا قلنا إن فى العبارة الأولى مجازاً ، كان ينبغي أن تُختار ألفاظٌ تبعده عن هذا التناقض الصريح ، وبخاصة أن الرؤية المباشرة تكررت كثيراً فى

(١) رحمه الله - إظهار الحق - دار التراث العربى ١٩٧٧ - ص ٢٢٣ .

تعبيرات الأنبياء أو كُتَاب أسفارهم ، هذا إلى أن عبارة (كما يكلم الرجل صاحبه) تباعد احتمال المجاز .

** وذكر سفر (عدد / ٣١) أن بنى إسرائيل أفنوا المديانيين فى عهد موسى ، وما أبقوا منهم ذكراً بالغاً ولا غير بالغ ، حتى الصبى والرضيع ، كذلك ما أبقوا منهم امرأة بالغة ، وأخذوا غير البالغات جوارى لأنفسهم ، على حين ذكر سفر (القضاة / ٦) أن المديانيين فى عهد القضاة كانوا ذرى قوة عظيمة ، بحيث كان بنو إسرائيل مغلوبين وعاجزين ، والزمن بين العهدين لا يتجاوز مائتى عام !! .

** ونسب سفر (خروج / ٢٧) إلى بنى إسرائيل - وقد قضوا أربعين سنة يتيهون فى الأرض - القيام بصناعات لا تتوافر القدرة على تخيلها ، كما لا تتوافر خاماتها من أخشاب ومعادن وحجارة كريمة ، أو تتوافر المهارة الفنية اللازمة لأدائها ، إلا فى أرض المدينيات المزدهرة المستقرة !! .

** وذكر (صموئيل الثانى / ١٨) أن (أبشالوم قد أخذ وأقام لنفسه - وهو حى - النصب الذى فى وادى الملك ، لأنه قال ليس لى بن لأجل تذكير اسمى) ، مع أن السفر نفسه (ص ١٤) ذكر أنه ولد لأبشالوم (ثلاثة بنين و بنت واحدة اسمها « تامار » ، وكانت ابنة جميلة المنظر) !! وليس من دليل على موت جميع أبناء أبشالوم قبل إقامة النصب ، بل إننا نجد لأبشالوم ابنة أخرى اسمها (معكة) فى سفر (الملوك الأول / ١٥) .

** وقصة موت شاول فى نهاية سفر صموئيل الأول تخالف ما جاء فى أول سفر صموئيل الثانى ، والقصتان إحداهما فى ظهر صفحة الأخرى !! .

** فى (صموئيل الثانى / ٧) وعد الله شعبه فقال : (وعيننت مكاناً لشعبى إسرائيل ، وغرسته ، فسكن فى مكانه ، ولا يضطرب بعد ، ولا يعود بنو الإثم يذلونه ، كما فى الأول) ، وكان هذا المكان أورشليم ، لكن لم يحصل وفاء بهذا الوعد ، وأوذوا فى هذا المكان إيلاء شديداً ، آذاهم سلطان بابل وأشور مرات ، قتلهم وأسرهم وأجلاهم ، وآذاهم سلاطين آخرون ، وجاء الحكم الرومانى ، فأصابهم تيتوس فى أنفسهم وأموالهم وفى دينهم ، فخرّب المعبد ، وبنى مكانه معبد جويتير ، وفرض فروضاً دينية قاسية ، وسار سيرته من بعده نيرون وتراجان وهادريان !! .

** يلاحظ أن لفظ (الشعب) - منذ ذكر فى سفر (تكوين) - خاصاً ببنى إسرائيل - ظل فى أقلام كُتَاب الأسفار بعد ذلك علماً عليهم .. لكن سفر صموئيل الثانى تحدث عن أن الشعب غير إسرائيل ، فقد انقسمت الدولة بعد سليمان إلى مملكة يهوذا ، وعاصمتها أورشليم ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، وعاصمتها شكيم ، ومن ثم هو يقصد بالشعب مملكة يهوذا ، والاعتراض على استخدام (المصطلح) استخداماً مضطرباً ، إذ يقول مثلاً : (وخرج الشعب إلى الحقل للقاء إسرائيل ، وضرب يواب بالبق ، فرجع الشعب عن اتباع إسرائيل ، لأن يواب منع الشعب) - صح ١٨ - ويقول :

(فأتى جميع الشعب أمام الملك ، وأما إسرائيل فهربوا ، كل واحد إلى خيمته) - صح ١٩ - ويقول :

(فخرج يواب ورؤساء الجيش من عند الملك ليعبدوا الشعب ، أى إسرائيل) - صح ٣٤ - ثم يفصل بين رجال يهوذا ورجال إسرائيل ، مما يفهم أن الشعب هم رجال يهوذا : (فأجاب كل رجال يهوذا رجال إسرائيل) - صح ١٩ - (فكان إسرائيل ثمانمائة ألف رجل ، ورجال يهوذا

خمسمائة ألف رجل .. وضرب داود قلبه بعدما عدّ الشعب) - ص ٢٤ -
أى إسرائيل ويهوذا ، وبهذا يتبين الاضطراب .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن سبطى يهوذا وبنيامين وبعض بنى لاوى
كونوا مملكة يهوذا ، أو العبرانيين ، وأن الباقيين من بنى إسرائيل كونوا مملكة
إسرائيل التى تعرف بمملكة السامريين ، صار إطلاق لفظ الشعب على
يهوذا إطلاقاً سياسياً يندد بإسرائيل ويحط من قيمتها .

** وأتى كاتب آخر فخالف - فى عبارته - بين يعقوب وإسرائيل ،
فقال : (عند ردّ سبى شعبه يهتف يعقوب ، ويفرح إسرائيل) - (مزمو
٥٣ /) - (أقام شهادة فى يعقوب ، ووضع شريعة فى إسرائيل .. لذلك
سمع الرب ، فغضب ، واشتعلت نار فى يعقوب ، وسخط أيضاً صعد على
إسرائيل) - (مزمو ٧٨ /) - (ليرعى يعقوب شعبه ، وإسرائيل ميراثه) -
(مزمو ٧٨ /) - (فثبته ليعقوب فريضة ، وإسرائيل عهداً أبدياً .. فجاء
إسرائيل إلى مصر ، ويعقوب تغرب فى أرض حام) (مزمو ١٠٥ /)
- (أرسل الرب قولاً فى يعقوب فوق فى إسرائيل) (أشعيا ٩) ويتكرر
هذا التعبير كثيراً فى أشعيا .

** وفى سفر الملوك الأول نلتقى - من حين لآخر - بمثل عبارة :
(وأما بقية أمور يريعام ، كيف حارب ، وكيف ملك ، فإنها مكتوبة فى
سفر أخبار الأيام الملوك إسرائيل) - ص ١٤ - مع أن سفر (الأيام) سيأتى
بعد ذلك مما يفيد أن هذه الكتابة كتبها غير واحد ، فى أوقات مختلفة ،
على غير النسق الذى ورد فى (العهد القديم) ، ويفيد فى الوقت نفسه
غفلة المنسقين .

** وفى سفر الملوك الأول أيضاً خبر أورده الكاتب دون أن يدرى
مغزاه ، إذ جعل الأب والابن من امرأة واحدة ، فأبىام ملك يهوذا (اسم
أمه معكة ابنة أبشالوم) ، ولما انتصر يريعام على أبيام دفن (فى مدينة داود ،

وملك آسا ابنه عوضاً عنه) ، وكان (اسم أمه معكة ابنة أبشالوم) -
ص ١٥ .

** وفى سفر (حزقيال / ٢٩) - (قال السيد الرب : هأنذا أبذل
أرض مصر لنبوخذ نصر ملك بابل ، فيأخذ ثروتها ، ويغنم غنيمتها ، وينهب
نهبها ، فتكون أجرة لجيشه ، قد أعطيته أرض مصر لأجل شغله الذى خدم
به ، لأنهم عملوا من أجلى) .. ولعله يقصد بهذا العمل محاصرة مدينة
صور ، وهو استمرار للتوسع البابلى ، على حساب كل القيم الأخلاقية ،
ولم يحدث أن خضعت مصر لحكم نبوخذ نصر ، فكيف وعد الله - سبحانه
- من لا يستحق بما لم يتحقق ١٩ .

** وفى سفر (دانيال / ٢ و ٤) أن نبوخذ نصر حلم حلماً أحسن
تأويله دانيال ، فاستل غضب الملك الذى كاد يبيد كل حكماء بابل ،
لأنهم لم يستطيعوا تأويله ، وكان أن كتب (إلى كل الشعوب والأمم
والألسنة الساكنين فى الأرض كلها) معبراً عن ابتهاجه ، فإذا هو يذكر
حلماً غير الحلم الذى أوله دانيال ، فهل معنى هذا أن الملك رأى
حلمين ١٩ ؟ ولماذا لم يشر الكاتب إلى أمر كهذا ١٩ .

ومن الجهل والغفلة أن يحكى سفر (صموئيل الأول / ٢٠) أن
شاءول الملك غضب على داود القائد ، وأراد قتله ، وكان داود صديق
يوناثان ابن الملك ، فاحتال يوناثان بأن يختبئ داود فى مكان ، حتى يحاول
مرضاة الملك ، فإذا رضى الملك أرسل سهاماً ثلاثة ناحية المكان الذى يختبئ
فيه ، وقال لغلامه الذى سيذهب لالتقاط السهام : (هو ذا السهام دونك
فجائياً) .. عند ذلك يأخذها داود ويقوم ، (لأن لك سلاماً) .. وإن قال
لغلامه : (هو ذا السهام دونك فصاعداً) ، فعلى داود أن يهرب ، (لأن

الرب قد أطلقك) ، وتكون السهام للإطلاق .. ويمضى يونانان إلى داود ،
(وقبّل كل منهما صاحبه) ، وبكى كل منهما مع صاحبه حتى زاد
داود) .. فلماذا كانت حيلة السهام ما داماً سيلتقيان ١٩ كان يمكن
(إطلاق) السهام فقط فى حالة عدم الحصول على رضى الملك ،
فيهرب .

** لما قريت أيام وفاة داود أوصى ابنه سليمان أن ينتقم من قائد جنده
(يواب) ، لأنه قتل رئيسى جيوش إسرائيل ، (أبينر بن نير ، وعماسا بن
يثر ، إذ قتلها وسفك دم الحرب فى الصلح ، وجعل دم الحرب فى منطقته
التي على حقوقه ، وفى نعليه اللتين برجليه) .

إذا كان الأمر كذلك ، فلما تركه - وهو الملك - دون أن يقتصر
منه ؟ أترأه كان يعلم أن (سليمان) الحكيم سيكون سفاحاً بأمر (كاتب
السفر) فيقتل (يواب) بجانب (المذبح) ، محملاً نسله دم القاتلين ، ثم
يقتل (أدونيا) أخا سليمان الأكبر ، لأنه طلب الزواج من (أبيشغ
الشونمية) ، ثم يقتل (أبياثار) كاهن أبيه - (الملوك / ٢) كل هذا
أحدثه (الحكيم) فى بداية حياته الملكية ، دون سبب معقول !!

** ومن الغفلة هذا التكرار الكثير الذى لا مبرر له ، وإن قيل إنه من
عمل تعدد الكتاب ، إذ كان على اللاحق أن ينتظر فى عمل السابق ، أو
كان على الذين دونوا أو ترجموا أخيراً أن يقوموا بعملية تنسيق ، أو
مراجعة ، حتى لا تذهب الظنون بالقراء .

فى سفر (خروج) نجد أن ما جاء فى الأصحاحات (٣٦ و ٣٧ و
٣٨ و ٣٩ و ٤٠) كان يغنى عنه قوله :

(وبصليلى بن أورى بن حدر من سبط يهوذا صنع كل ما أمر به الرب
موسى ، ومعه أهو لياب بن أخيساماك من سبط دان) ، لأن ما صنعه هو ما
ورد بالتفصيل فى الأصحاحات (٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠) .

وفى (صموئيل الأول) ما ورد فى (ص ٢٦) تكرر لا داعى له لما
جاء فى (ص ٢٤) .

كما جاء فى (صموئيل الثانى ٧) عقاب الله لداود ، وعهده لنبيه
على لسان النبی ناثان ، وتكرر القول فى (أخبار الأيام الأول / ١٧) ،
فلماذا الاختلاف فى العبارة ، مع أنه وحى مدون (مكتوب فى سفر
ياشر) ، كما تقول عبارة (صموئيل الثانى / ١) ١٩ .

** ومن الغفلة أيضاً هذه المبالغات التى تذهب بثقة القارئ ، بل
تستبدل بالتوقير السخرية والاستهزاء . جاء فى (صموئيل الثانى / ٢٣) أن
يوشيب بشبث أحد قادة داود (هزّ رمحه على ثمانمائة قتلهم دفعة
واحدة) ، وأن أبيشاي أخا يواب بن صروية (هزّ رمحه على ثلاثمائة
قتلهم) .

وجاء فى (أخبار الأيام الأول / ١١) أن (يشبعام بن حكمونى
رئيس الثوالت هز رمحه على ثلاثمائة قتلهم دفعة واحدة) !!
أيكون العدد ثلاثمائة رمزاً للكثرة ، على غير ما علم أصحاب
اللغة ١٩ .

ومن المآخذ الأسلوبية أن يبدأ أحد الأسفار بمقدمة تعرّف به من دون
بقية الأسفار :

(أمثال سليمان بن داود لمعرفة حكمة وأدب ، لإدراك أقوال الفهم ،
لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة ، لتعطى الجهال ذكاء ،
والشباب معرفة وتدبراً ، يسمعها الحكيم فيزداد علماً ، والفهم يكتسب
تدبيراً ، لفهم المثل واللغز ، أقوال الحكماء وغوامضهم ، مخافة الرب ورأس
الحكمة ، أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب) .

إذا كان هذا يعنى أن الأمثال كتبت وطبعت منفصلة ، ثم ضمت إلى الكتاب المقدس ، كان ينبغي حذف هذه المقدمة عند ضمها ، حتى لا نفاجأ بكتابتها مقحماً نفسه بطريقة غير مألوفة .

*** ومن المآخذ الأسلوبية الركافة السيئة التي تتمثل في كثير من الأسفار .. مثال ذلك ما جاء في (عزرا / ٤) :

(في أيام أرتخششتا ، كتب بسلام ومشرقات وطبيل وسائر رفاقهم إلى أرتخششتا ملك فارس ، وكتابة الرسالة مكتوبة بالأرامية ، ومترجمة بالأرامية ، رحوم صاحب القضاء ، وشمشاي الكاتب ، كتب رسالة ضد أورشليم إلى أرتخششتا الملك ، هكذا كتب حينئذ رحوم صاحب القضاء وشمشاي الكاتب وسائر رفاقهما .. هذه صورة الرسالة التي أرسلوها إليه ، إلى أرتخششتا الملك) .

وكان موضوع الرسالة عدم تمكن بنى إسرائيل من بناء بيت الله في أورشليم ، فاستجاب الملك :

(الآن أخرجوا أمراً بتوقيف أولئك الرجال ، فلا تبني هذه المدينة حتى يصدر منى أمر ، فاحذروا من أن تقصروا عن عمل ذلك) - (عزرا / ٤) .

ولكن (كان شيوخ اليهود يبنون وينجحون حسب نبوة حجى النبي ، وزكريا بن عدو ، فبنوا وأكملوا حسب أمر إله إسرائيل وأمر كوش وداريوس وأرتخششتا ملك فارس) - (عزرا / ٦) .

وكتب أرتخششتا إلى عزرا مبيحاً له (كل الفضة والذهب الذي تجد في كل بلاد بابل ، مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذي في أورشليم) ، متوعداً (كل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك ، فليقض عليه عاجلاً ، إما بالموت ، أو بالنفى ، أو بغرامة المال ، أو بالسجن) - (عزرا / ٧) .

وعلق عزرا على هذا بقوله : (مبارك الرب إله آبائنا الذي جعل مثل هذا في قلب الملك ، لأجل تزيين بيت الرب الذي في أورشليم) - (عزرا / ٧) .

وزاد (نحميا) ، فذكر أن أرتخششتا الملك أرسل معه (رؤساء جيش وفرساناً) ، تأييداً وعوناً على بناء (بيت الله) - (نحميا / ٢) .

وبهذا يطول التساؤل حول عزرا ونحميا ، حتى نجد عبارة تقول :
(اجتمع كل الشعب كرجل واحد إلى الساحة التي أمام باب الماء ، وقالوا لعزرا الكاتب أن يأتي بسفر شريعة موسى التي أمر بها الرب لإسرائيل) - (نحميا / ٨) .

فنفهم أن عزرا كان بين رجال نحميا ، على حين أن سفر عزرا يتحدث بأن عزرا تحرك من بابل بإذن خاص من الملك ، ولم يكن تابعاً لنحميا ، فهل أرسل الملك كلاً من عزرا ونحميا بتوجيه خاص ويعون خاص ؟

بالإضافة إلى هذه المآخذ ألفاظاً قبيحة ، أو خاطئة لا معنى لها .. مثال ذلك :

جاء في (أشعيا / ٢٠) : (يسوق ملك آشور سبي مصر وجلاء كوش الفتيان ، والشيوخ ، عراة وحفاة ، ومكشوفى الأستاء ، خزيًا لمصر) ، فلفظ (مكشوفى الأستاء) لا ينبغي أن يجرى على لسان الرب !!

وجاء في (دانيال / ١٠) : (كنت نائحا ثلاثة أسابيع أيام) ، ما لا يحتاج إلى تعليق ، كذلك (ذهبت مرًا في حرارة روحى ، ويد الرب كانت شديدة على) - (حزقيال / ٣) .

وورد في (المزمور / ٧٢) ، الذي ذكر أنه لسليمان ، عبارة ختامية ، تقول : (تمت صلوات داود بن يسي) ، ثم ذكر (المزمور / ٨٦) بعنوان صلاة لداود II .

وتكرر لفظ (سلاه) في أكثر من عشرين مزموراً بصورة مقحمة ، دون مبرر ، وإن قيل في معناه شيء فهو رجم بالغيب^(١) .. كما تكرر لفظ (هلولوا) في أكثر من عشرة مزامير ، دون مبرر ، وإن قيل معناه (صلوا ليهوه ، أو امدحوا يهوه)^(٢) .

وتكرر لفظ (هه هه) في المزامير للاستخفاف ، حتى على لسان الله : (ليستوحش من أجل خزيهم القائلون لي : هه هه) (مزمور / ٤٠) .

ويلاحظ أن هذه الألفاظ لم تتكرر إلا في المزامير ، وقل ورود (هلولوا) في (حبقوق) ، و (هه هه) في (حزقيال) ، مما يفيد أنها (لازمة) بعض الكتاب .

مثل هذه المآخذ وكثير غيرها من الأخطاء اللغوية والإعرابية تلح على ضرورة المسارعة إلى إعادة كتابة هذه الأسفار بأسلوب يتناسب مع قيمتها التاريخية والدينية ، ويخلصها من كثير مما داخلها من التحريف والتزييف والابتذال والركاكة .

إن نظرة سريعة إلى المقابلة بين ترجمة سفر (عاموس) في النسخة العربية ، طبعة جمعية التوراة الأمريكية وترجمة الدكتور موفات اللتين أوردها الدكتور جابر الحيني - في كتابه (في العقائد والأديان) ص ٢١٤ - ٢١٥ - ترينا إلى أي حد يمكن أن تضيع معالم النص الأصلي .

لهذا (نأسف حقاً لذلك الموقف الذي يهدف إلى تبرير الاحتفاظ في

نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة ، خلافاً لكل منطق ، إن ذلك موقف يسيء كثيراً إلى الإيمان بالله لدى بعض العقول المشقة ، ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من مثل هذا النوع ، فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك حتى الآن وجود هذا الضعف ، وظلت في جهالة تامة من أمر ذلك التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعتبر غالباً من المعارف الأساسية جداً)^(١) .

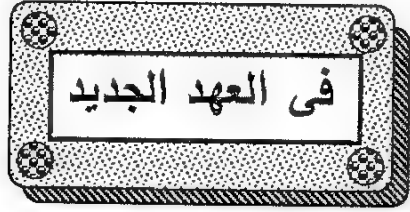
(وإن ما يصدمنا حقاً في أيامنا هذه أن نرى المتخصصين في دراسة النصوص يتجاهلون ذلك التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة ، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف ، ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها مستعينين في ذلك بيهلوانيات جدلية)^(٢) .

يقول لورنز في دراسته (ما هي حقيقة التوراة) الصادرة سنة ١٩٧٢ : إن المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني - (١٩٦٢ - ١٩٦٥) - قد حذر من إعطاء أي قواعد للتمييز بين الخطأ والحقيقة في التوراة)^(٣) .

أهذا هو ما كان يعنيه القديس أرغسطين من أن الله (لا يمكن أن يعلم البشر ما لا يتفق والحقيقة) ١٢ .

(١) ، (٢) ، (٣) مورييس بوكاي ص - ١٠ و ١٤ و ٥٩ .

(١) ، (٢) التوراة الهيروغليفية - ص ١٣٢ / ١٣٥ .



- ١ - الآب والابن والروح القدس !!
- ٢ - وعبرة العهد الجديد فيها نظر !!
- ٣ - إنجيل برنابا !!

* * *

٩- الآب .. والابن ..

والروح القدس !!

(الإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة ، وأنا لا نملك مثلاً أى شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى)^(١) .

(ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) .

هذا شعار التشريع المسيحى ، لكنه ليس دقيقاً كل الدقة ، لأن الأنجيل جملة لا تتضمن تشريعاً ، بل روح التشريع ، فالمسيح (لم يأت ليتقن نظاماً للدين أو للآداب ، بل ليدخل نفسه فى عقول وقلوب الناس)^(٢) ، بالحب والرحمة والتسامح والسلام .

يقول القس إكرام لمعى فى كتابه (الاختراق الصهيونى للمسيحية - ص ٥٢ / ٥٣) :

كانت فلسفة هليل - من يهود الشتات - أن يجعل طاعة الناموس ممكنة لكل اليهود ، سواء بالميلاد أو بالإيمان ، ولقد أخذ المسيح خط هليل الفكرى ، وقدم نظاماً لاهوتياً أخلاقياً روحياً ، يتضمن الحب والمساواة بين البشر ، والعطاء دون مقابل ، وبذل الذات لأجل الآخرين ، حتى ولو لم يكونوا من اليهود

ولم يعد لليهود مكان متميز فى تعاليم المسيح ، (فالذى يقبل تعليم المسيح ، ويعترف بشخصه وعمله يصبح مختاراً من الله ، وهكذا تحرر الاختيار من الجنس والعنصر ، وبالتالي لا مكان للعهد الذى يقوم على قطعة أرض وذبيحة) .

(١) موريس بوكاي ص ١١ .

(٢) شمس البر - ص ٢١١ .

ومع هذا أخذت المسيحية من اليهودية التوراة ، وكتب الأنبياء والحكمة ، وأخذت أسلوب العبادة وشكل الهيكل وسلطان الكهنوت .

أما ما هو من تشريع المسيحية فقد وضع القواعد والشرائع أكابر وبابوات الديانة بعد المسيح ، كما وضع لهم الثلاثمائة والثمانية عشر الذين كانوا في زمن قسطنطين الملك (الأمانة) التي اتفقوا عليها ، ولعنوا من خالفها من الأريوسية وغيرهم ، وفيها أمور لم ينزل الله بها كتاباً ، بل تخالف ما أنزل الله من الكتب ، مع مخالفتها العقل الصحيح ^(١) .

والسيد المسيح كثيراً ما تمثل أقوال الأنبياء : أرميا وأشعيا ودانيال ، وإنه ليربط مواقفه وعباراته كثيراً بنبي لم يسمه ، كأن يقول (لكى يتم ما قيل بالنبي القائل : ...) ، أو (وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل : ...) .

ومع هذا ، فجملة ما جاء به عيسى يتمثل في إجابته عمّن سأله : (أية وصية هي العظمى في الناموس ؟) بأن (تحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك) ، وأن (تحب قريبك ك نفسك) - (متى ٢٢) .

والتسامح فرع الحبة : (باركوا لاعدائكم ، أحسنوا إلى مبغضيك) - (متى ٥ / ٥) - (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً) - (متى ٥ / ٥) .

لكنه تسامح لا يصلح مع كل الناس ، أو لا ينسجم مع الطبيعة البشرية ، وقد تشوبه المهانة والذلة ، ولعل الترجمة أفقدته سمو معناه المتمثل في قول القرآن الكريم : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ^(٢)

(١) ابن تيمية - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - مطبعة المدني بالقاهرة - ج ١ ص

١١٧ / ١١٨ .

(٢) الشورى / ٤٠ .

إنه العفو عند المقدرة ، الذى يترتب عليه إصلاح ، ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم ﴾ ^(١) - يترتب عليه سعادة فى الدنيا ، بنزع العداوة وتحقيق التضامن والتعاون والتآخى ، كما يترتب عليه ثواب الآخرة ، لأن الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره ، وبنزع أشواك النفوس .

وقد اتسع مفهوم التسامح فى شريعة عيسى حتى سقطت كل الحدود (العقوبات) ، على خلاف ما وجدنا فى شريعة (العهد القديم) التى تجاوزت فيها العقوبات إدراك الإنسان لمفهوم العدالة .

ومن ثم لا نجد عقاباً على جريمة ، إنه مجرد نهى ، قد يصل إلى حد العتاب الرقيق ، كأنه يتوخى صحة الإيمان ، و (لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب) - (متى ٩ / ٩) - بل (لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون للجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل) - (متى ١٧ / ١٧) .

بهذا المفهوم الفلسفى السامى لا ينزل إلى واقع الناس فيعائشهم ، ويجد حلول لمشكلاتهم ، من خلال توصيف كامل لهذه المشكلات ، ومعرفة الدوافع النفسية والمادية ، وصراع الغرائز ، وطلاء النفوس والوجوه والأعمال بكل ما تيدع المدينة من ألوان .

وبهذا ، اقتصر التشريع على لمسات نفسية ناعمة :

(متى وضعت صدقة ، فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك) - (متى ٦ / ٦) - أما وجوب الصدقة ، ومقدارها ، وثمرتها ، فهو يكتفى بأن يحذر الأغنياء : (لا تكتنوا لكم كنوزاً على الأرض ، حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون) - (متى ٦ / ٦) - ويشد فى تحذيره أحياناً ، (إن مرور جمل فى ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) - (متى ١٩ / ١٩) .

(١) فصلت / ٢٤ .

أما القرايين والعشور التي اهتمت بها (التوراة) فلا شيء ، بل إننا نجد سخرية من هذه القرايين جرت على لسان أحد تلاميذه : (لا يمكن أن دم ثيران وتبوس يرفع خطايا) - (الرسالة إلى العبرانيين / ١٠) - وصدق الله في قرآنه : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم ، لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين ﴾ (١) .

وإن كانت الحجة أن يسوع كفى أتباعه هذه القرايين حين ضحى بنفسه ، فهي حجة ظالمة ، لأنها تأخذ شكل الدعوة الصريحة إلى العبث ، إلى الانعتاق من كل قيد ، وبخاصة أن المقومات الأساسية للإيمان مرت بها الأنجيل مروراً سهلاً .

(متى صليت فلا تكن كالمرائين) - (متى / ٦) .

(متى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين) - (متى / ٦) .

دون وضع قاعدة محددة للصلاة أو للصوم ، فلا كيفية ولا توقيت ، مما أدى إلى الخضوع للكهان ، فاحتكر هؤلاء في أيديهم وظيفة تحديد عدد الصلوات ، وطول الأدعية وكلماتها ، ومن هنا نشأت الضرورة لعقد مجامع ومؤتمرات كنسية ودينية لتقرير بنود الإيمان وشئون الضمير ، ومن هنا أيضاً نتجت تلك العبادات الميكانيكية للرهبان ، كما تولد ذلك الزحف الكبير إلى الكنائس والأديرة في يوم واحد من الأسبوع ، بغية المزيد من الغذاء الروحي .

كما أن الصوم ارتبط بفكرة عامة تعود في أصلها إلى العقوبة والتكفير ، وقد ظل التعذيب الجسدي التطوعي يتكرر في الكنيسة المسيحية ، ولكن هذا الأذى كان يتجه دائماً نحو تحطيم الطاقات الجسدية ، والممتلكات العقلية ، من أجل تغذية الصوفية الحاملة والزهد الخانع الدليل (٢) .

(١) الحج / ٣٧ .

(٢) أمير علي - روح الإسلام - بيروت - ص ١٩٠ / ١٩١ .

ولم يكتف الحواريون بهذا (التبسيط) التشريعي ، فكتبوا إلى (الإخوة الذين من الأمم في أنطاكية وسورية وكيلىكية) رسالة تقول : (قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، والخنوق ، والزنا ، التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعماً تفعلون) - (أعمال الرسل / ١٥) .

اقتصرت التشريع (الواجب) على أربعة محرمات ، حتى لا يكون (ثقلاً) ، ومن هنا صح لبولس الذي حمل هذه الرسالة مع برنابا أن يدعو إلى ترك مظهر ديني هام في شريعة موسى ، وهو (الختان) ، حتى صار رمزاً لبنى إسرائيل ، ودليلاً عليهم .

يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس / ٧ : (أنا أمر في جميع الكنائس ، دعى أحد وهو مختون فلا يصير أغلف ، دعى أحد في الغرلة فلا يختتن .. الدعوة التي دعى فيها كل واحد فليثبت فيها) .

ومع أن للختان أهدافاً أخرى ، فإن المرء ليحس كأن شريعة عيسى قصدت إلى أن تقضى على مظاهر التشدد في شريعة موسى .. يبدو هذا بوضوح في موضوع النجاسة ، الذي وسّعت التوراة نطاقه ، وجعلت للطهارة طقوساً خاصة ، فإذا بولس يقول : (إني عالم ومتيقن في الرب يسوع ، ليس شيء نجساً بذاته ، إلا من يحسب شيئاً نجساً فله هو نجس) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ١٤) وبهذا هدم ركناً من أركان التوراة .

ولقد عبر السيد المسيح عن هذا الاتجاه بالإيحاء ، دون ثورة أو انفعال ، أو استعمال لفظ (أمر) : (ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان ، بل ما يخرج من الفم ، هذا ينجس الإنسان) - (متى / ١٥) - دعوة إلى طهارة النفس ، بحيث لا (تشبهون قبوراً مبيضة ، تظهر من خارج جميلة ، وهي

من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة) (متى / ٢٣) .

وأخطر النجاسات التى اهتمت بها التوراة جريمة الزنا ، وقد حددت لها أقسى ألوان العقاب ، وهو الرجم ، لكن عيسى عليه السلام تناول القضية من جانب آخر ، هو جانب أولئك الذين يسارعون إلى تنفيذ العقاب ، أو الذين يسارعون إلى تلويث سمعة الآخرين ..

أتراهم يصلحون لتنفيذ الشريعة ؟ .

أولهم الجديرون بأن يقوموا على محاسبة الآخرين ؟ .

هل طهرت نفوسهم وألستهم وأعراضهم حتى يعاقبوا غير الظاهرين ؟ .

هل سدّدوا خطاهم حتى يقرّموا سلوك الآخرين ؟ أم أنه (حيثما تكن الجثة فهناك تجتمع النور) ١٢ (متى / ٢٤) .

(قالوا له : يا معلم ، هذه المرأة أمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل ، وموسى فى التاموس أوصانا أنه مثل هذه ترجم ، فماذا تقول أنت ١٢)

قال : (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر) .

ثم قال لهما : (اذهبي : ولا تخطئي أيضا) - (يوحنا / ٨) .

علاج نفسى ، واحتجاج على فساد منتشر ، تصفّق له كل مدارس التربية الحديثة ، لكن .. ماذا والنفس أمارة بالسوء ، ونوازع الشر تعمى ، والفساد الاجتماعى يعدى ، وارتكاب الجريمة يدخل فى باب انتصار الأقوى ١٢ .

حقاً ، (إن كان لإنسان مائة خروف ، وضيّل واحد منها ، أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ، ويذهب يطلب الضال ؟ وإن اتفق أن يجده ، فالحق أقول لكم : إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التى لم تضل) - (متى / ١٨) .

لكن إن كان هذا الضلال سقوطاً فى الهاوية ، أو مرضاً خبيثاً ، فلا بد من ضرب بقية الخراف التى تسلك سبيل الغواية ، ولا بد من عزل المريض ، حتى لا يهلك القطيع ، وحتى تستجيب البقرة يضرب الثور ، و (كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار) - (متى / ٣) - فكيف بالتي تنتج شوكاً وثمراماً ١٢ .

مع هذا .. فشرعة التسامح ترى أن (كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها فى قلبه) (متى / ٥) وبهذا تقطع الأسباب الموصلة للجريمة ، وهذا ما عبّر عنه الرسول محمد - ﷺ - بقوله : (العينان تزنيان) ، ومن آداب الطريق (غض البصر) ، فالنظرة الفاجرة من (خطوات الشيطان) .

لقد توسعت شرعة التسامح فى مفهوم الزنا ، مع أنها لم تضع له عقاباً حاسماً ، فصار (من طلق امرأته إلا لعله الزنا يجعلها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى) - (متى / ٥) .

تشريع حريص على تدعيم الرباط المقدس ، فالطلاق سبيل إلى الضياع ، إلى السقوط .. حقاً ، أو هو يحل من الالتزام بأداب الأسرة ، أو يدفع إلى الانتقام من هذه الآداب .. وكذلك الرباط الزوجى - إذا فقد قداسته - يصير قيداً ، والمقيد تموت فى نفسه معانى النبل والكرامة ، وقد تأخذ هذه المعانى شكلاً آخر ، فتلتبس على صاحبها أو صاحبها ، وتكون النتيجة حقداً وكيداً وسرقة وزناً وقتلاً .

كما أن الطلاق لغير جريمة الزنا لا يحول دون الزواج بالمطلقة ، فإذا كان الطلاق مثلاً من أجل الكراهية فكيف نمنع الزواج من أجل الحب ١٢ .

وفشل التجربة لا يستدعى عدم الدخول فى تجربة أخرى ، وإلا فقد الإنسان قيمة الحياة وجفت ساقه !! .

أما القول بأن (الذى جمعه الله لا يفرقه إنسان) - (مرقس / ١٠) فهو قول عام ، لا يرتبط بقضية خاصة ، إذ يمكن أن نقول إن كانت الكراهية بإرادة من الله ، فالتفرقة بإرادته ، والحب الوارد بعد ذلك من الله ، فالله هو الذى يجمع بين المطلقين وغيرهم ، وعلى هذا فليست جريمة الزنا قائمة بين زوجين ، وإن سبق الطلاق فى حياتهما ، وسبحان مقلب القلوب ، فقد يكون الطلاق علاجاً ، ودرساً نافعاً ، وكما يقولون : بين الحب والكراهية شعرة ، وكلاهما تحركه ريح تختلف درجة هبوطها ، فتكون رخاء وتكون عاصفة .

أما أن نقول : لقد جرب وجربت ، فلينفصلا ، وليترها ، دون أن يحسما العلاقة بينهما - فإن وجود هذه العلاقة التى لا هى زواج ولا هى طلاق تساعد على تأريث كثير من المعانى الشريرة ، فهناك متطلبات الحياة الكثيرة المرهونة بتكثيف هذه العلاقة ، حتى يأخذ كلٌ طريقه ، على الوجه الذى يمكنه من استئناف حياة جديدة ، فليس الرجال جميعاً على شاكلة هذا الزوج ، وليست النساء جميعاً على شاكلة هذه الزوجة ، ومن فشل مرة لا يحكم عليه بالعقم ، فالبذرة التى لا تنمو فى مكان تجود ثمرتها فى أكثر من مكان .. هذا وللأبناء عيون وآذان وعقول وقلوب ، وللأقارب والجيران والمعارف عيون وآذان وألسنة !! .

وإذا كان (يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات) - (متى / ١٩) - فهذا عامل خاص ، ارتضاه المتعبد تقرباً إلى الله ، وتفرغاً لعبادته ، وإن كان يحمل طابع التخلي عن الصراع الناشئ عن الشهوة ، والقوة الحقيقية تتمثل فى هذا الصراع ، وفى القدرة على الانتصار .. ثم إذا كنا نشجع الرجال على الخصاء ، فكيف نحمل النساء على العفة ١٩ .

من هنا تستطع النظرة التى تقول : (غير المتزوج يهتم فى ما للرب

كيف يرضى الرب ، وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم كيف يرضى امرأته) .. و (غير المتزوجة تهتم فى ما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً ، وأما المتزوجة فتهتم فى ما للعالم كيف ترضى رجلها .. إذاً من زوج فحسنا يفعل ، ومن لا يزوج يفعل أحسن) - (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس / ٧) - فهذا التصور غير مسلم به تماماً ، لأن الزواج كثيراً ما يحمى من نزعات الطيش ، ونزوات الغريزة ، ومن أمراض خبيثة أيضاً ، سواء عن طريق العلاقة الجنسية ، أو عن طريق الأعباء الاجتماعية ، والعلاقات الأسرية .

وبهذا يمكن تعليل قول بولس فى الرسالة ذاتها والأصحاح نفسه : (إن كان له امرأة غير مؤمنة ، وهى ترضى أن تسكن معه ، فلا يتركها ، والمرأة لها رجل مؤمن ، وهو يرضى أن يسكن معها ، فلا تتركه ، لأن الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة ، والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل) . وحين نمضى مع بولس ، وبخاصة فى رسالته إلى أهل غلاطية ، نجد اتجاهها إلى محور الشريعة .. فهو فى الأصحاح الثانى يركز على الإيمان بالمسيح ، (لتتبرر بإيمان يسوع ، لا بأعمال الناموس ، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما) .

وعلمته فى ذلك (إن كان بالناموس يرّ فالنموس إذا مات بلا سبب) .

إنه إذن يدعو إلى التخلي عن الشريعة ، لأنه لا حاجة إلى التكفير عن الخطايا ، ما دام السيد المسيح قد تحمل بمعجته أو بصلبه خطايا البشرية .

يقول الأنبا جريجوريوس أسقف البحث العلمى فى ذكرى عيد القيامة - جريدة الأهرام - ١٢ / ٤ / ١٩٨٤ - (هدف مجيء المسيح خلاص آدم وبنيه من العقوبة الأبديّة المحكوم بها عدلاً عليهم ، حيث ورثوا منه حالته ، وورثوا منه فساد طبيعته ، فسرى على آدم وذريته من بعده حكم

القضاء الإلهي على الجميع بالموت الأبدى والطرده من الجنة ، وإغلاق الفردوس في وجه الله) الذي هو المسيح ١١ .

ومع ما في هذه الدعوى من مناقضة صريحة للتشريع الموسوي ، كما جاء في (حزقيال / ١٨) : (النفس التي تخطئ فهي تموت ، والابن لا يحمل بإثم الأب ، والأب لا يحمل إثم الابن ، وغير العادل يكون عليه ، ونفاق المنافق يكون عليه) .

ومع أن هذه الدعوى تذهب ببولس - وهو صاحب هذا الاتجاه الجديد - إلى التجديف في حق المسيح بقوله في نفس رسالته إلى أهل غلاطية : (المسيح افتدانا من لعنة الناموس ، إذ صار لعنة لأجلنا ، لأنه مكتوب : ملعون كل من علق على خشبة) - نجد أن هذه الدعوى تظهر الإنسان من الخطيئة ، ومن ثم لم يعد في حاجة إلى شريعة تقوّم سلوكه ، وحسبه أنه يؤمن بالمسيح ، ففى هذا خلاصه ، وسبيله إلى الجنة ، وإن أهلك الحرث والنسل (١١) .

وبإلغاء الشريعة على هذا النحو يبطل قول السيد المسيح : (ما جمعت لأنتقض ، بل لأكمل) ١١ .

ومن هنا صار قوام المسيحية العلاقة بين الله والإنسان .. فما دامت الحدود غير قائمة ، وما دام العقاب المادى غير وارد أمام أعين الخطاة - فلا سبيل إلا إلى تقوية الرباط بين الخالق والمخلوق ، بين القادر والمقدور عليه .

ولا تكون العلاقة قوية الفاعلية بين الناس ، إلا إذا كان الإدراك الكامل لألوهية الإله ، والإيمان بصفات كماله التي لا يشركه فيها أحد من خلقه ، ولا يكون ثمة تداخل بين معالِم اللاهوت والناسوت ، هذا التداخل الذي جاء به بولس ، واستغله البابوات بعد ذلك ، فباعوا صكوك الغفران ، وأثروا ثراء الفاتيكان ، مع أن (الله لم يشفق على ملائكة قد أخطئوا ، بل في

سلامل الظلام طرحهم ، وسلمهم محروسين للقضاء) ، كما جاء في رسالة بطرس الثانية .

وبعد .. فهل تكون (مدخولات) بولس هذه من الآثار (التلمودية) التي تقصر (رضوان) الله على اليهود ، وتذهب بأبناء (الرجاسات) من الشعوب الأخرى إلى (الجحيم) ١٢ .

*** على أى حال فإن الطريق أمام من يحسن القراءة رحبة واسعة ، وإن كان ما ورد على لسان عيسى وحواريه كثيراً ما يلتوى معه الفهم ، لا من حيث سوء الصياغة ، وما أكثره في كلام الرسل ، وبخاصة بولس ، ولكن من حيث الإلحاح على المعنى وضده .

ويقول يسوع في وصيته لتلاميذه : (من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى) - (متى / ١٠) .

(كل خطيئة وتجديف يغفر للإنسان ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له ، لا فى هذا العالم ، ولا فى الآتى) - (متى / ١٢) .

وفى الرد على من قال له : (أيها المعلم الصالح) قال : (لماذا تدعونى صالحاً ، ليس أحد صالحاً إلا واحد ، وهو الله) (١) - (متى / ١٩) .

ثلاثة تعبيرات فى مواضع مختلفة من إنجيل متى ، واضحة الدلالة على أن عيسى ليس هو الله ، لأنه مرسل من قبل الله ، ولأنه إنسان ، التجديف عليه لا يحرم من المغفرة ، أما التجديف على الله فإن : ﴿ ... الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٢) .

(١) بيرو صاحب (شمس البر) - ص ١١٨ - هذا القول بأن المسيح وجهه لسائل كان لا يعتقد أنه إله .. فهل كان يدعّم هذا الاعتقاد ١٢ .
(٢) النسخاء / ٤٨ .

ولأن يسوع ليس الصالح ، بل الله وحده ، فهذا يعنى الصلاح المطلق (الكامل) ، ومن ثم - وقد رفض بتواضعه أن يدعى صالحاً - كيف وهو يدعى إلهاً ١٩ .

جاء فى إنجيل (مرقس / ١٢) : سأله أحد الكتبة : (أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا ، اسمع يا إسرائيل : الرب إلهنا رب واحد ، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل فكرك ، ومن كل قدرتك) .

كرر بهذا ما جاء فى سفر (تثنية / ٦) ، مما يفيد التزامه بشريعة موسى ، وإيمانه بما آمن به موسى ، فإن موقفه من الله موقف رسول ، كما كان موسى .

** لكن .. ترد فى إنجيل (متى) أيضاً ، وعلى لسان يسوع ذاته ، تعبيرات أخرى موهمة :

يقول : (إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً) - (متى / ١٢) .

وفى قيصرية فيلبس ، استنكر يسوع أن يقال له أنه (ابن الإنسان) ، وحين قال له سمعان : (أنت هو المسيح ابن الله الحي) ، أجاب يسوع : (طوبى لك يا سمعان بن يونا ، إن لحمًا ودمًا لم يعلن لك ، لكن أبى الذى فى السموات) ، وفى مجال آخر قال بطرس ليسوع : (حاشاك يارب) - (متى / ١٦) .

وقال يسوع : (إن ابن الإنسان سوف يأتى فى مجد أبيه مع ملائكته) - (متى / ١٦) .

وقال بطرس ليسوع فى كفر ناحوم : (يارب ، كم مرة يخطئ إلى أخى ، وأنا أغفر له ؟) - (متى / ١٨) .

ومع هذا الإبهام ، قد يجد المرء تفسيراً آخر لمعنى البنوة والربوبية ،

فالبنوة ليست معنى جسدياً تناسلياً ، بل هى تعبير عن الحاجة إلى الراعى القادر ، تعبير عن ضعف المخلوق أمام خالقه ، والربوبية تربية وإعداد ورعاية .. لهذا نجد يسوع فى الأصحاح السادس والعشرين من متى (ذا نفس حزينة جدا حتى الموت ، ويختر على وجهه يصلى) ، فهل هذه إلا صفات مخلوق يعانى ويضرع إلى خالقه ١٩ .

وما يرجح هذا التفسير أن تعبير البنوة ليس مقصوراً على السيد المسيح ، بل هى عادة منتشرة فى كتب (العهد القديم) ، فالرب يقول لإسرائيل : (أنت ابنى البكر) ، ولدادود : (ابنى وحبيبى) ، ولسليمان : (أنا أكون له أباً ، وهو يكون لى ابناً) ، وأشعيا يخاطب الله بقوله : (فإنك أنت أبونا ، يارب أنت أبونا) ، وجاء فى سفر (تكوين ٦) : (أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات ، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا .. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس ، وولدن لهم أولاداً ، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوراسم) .

بل إنه تعبير شائع فى الديانات قبل اليهودية ، فقد جاء فى ابتهالات أختاتون :

(أنت فى قلبى ، ولا أحد يعرفك)

غير ابنك أختاتون

أنت الذى ألهمته معرفة طبيعتك وطاقتك (١) .

أختاتون هذا الذى يزعم بعض المؤرخين أنه أول أبناء الجنس البشرى إدراكاً لوحداية الله - جل شأنه - وشموليته :

(فى بلاد سوريا ومصر ، تضع كل شىء فى مكانه)

إنك أنت الذى يمدهم بما يحتاجونه

(١) محمد شبل - إختاتون - ص ٦٨ .

وتزود كل كائن بطعامه ، وتقدر له أجله .

وبفضلك يختلف الناس في لغاتهم ، وتشرق طبائعهم ، ويتباين لون جلودهم

فأنت الذى ميزت الأمم الأجنبية بعضها عن بعض ، وأنت الذى تهبها الحياة (١) .

وقد جاء فى قصيدة رامايانى فلميكي الهندية أن راما الذى هو إله تارة وبطل أخرى .. راما بقوة تقواه ظل يميل نحو أبيه القديم بحب لا يتزعزع :
ظل يرمى واجبه النبيل فى وصية أبيه المقدسة (٢) .

وهذا الفهم المجازى يؤكد ما جاء فى (لوقا) على لسان يسوع فى أخريات أيامه ، مخاطباً الله :

(لتكن لا إرادتى ، بل إرادتك) - (لوقا / ٢٣) .

فصل واضح بين الإرادة البشرية ، والإرادة الإلهية ، بين عيسى وخالفه .

أما ذلك الموقف بين يسوع والفريسيين فى الأناجيل الثلاثة : متى ، ومرقس ، ولوقا :

(فيما كان الفريسيون مجتمعين ، سألهم يسوع قائلاً ، ماذا تظنون فى المسيح ؟ ابن من هو ؟ قالوا له : ابن داود .. قال لهم : فكيف يدعو داود بالروح رباً ، قائلاً : قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعدائك موطئاً لقدميك ، فإن كان داود يدعو رباً فكيف يكون ابنه ؟) - (متى / ٢٢ ومرقس / ١٢ ولوقا / ٢٠) .

هذا الموقف لا يخرج عن بيان مكانة عيسى ، وأنه ليس مجرد إنسان لا دور له متميزاً فى الحياة عن طريق السماء .

(١) محمد شبل - إخناتون - ص ٩ .

(٢) فى العقائد والأديان - ص ١٤٧ .

** وأتى يوحنا متأثراً بالفيلسوف اليهودى فيلون - المعاصر للسيد المسيح ، والمفتون بالفلسفة اليونانية ، والمقاتل :

(إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان) - فقال ناهجاً نهجاً صوفياً ، شأن فيلون : (فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله) (أصحاح / ١ - ١) .

وبلاحظ أن التراث المصرى القديم ذكر أن لسان الإله (أتوم) ، خلق كل شيء حى ، بواسطة (الكلمة) التى خلقت كل قوى الحياة ، وكل ما يؤكل ، وكل ما يحبه أو يكره الإنسان (١) .

ومن ثم يمكن تفسير تعبير يوحنا بقوله : (كل شيء به كان ، ولغيره لم يكن شيء) (أصحاح / ١ - ٢) .

وعلى هذا يكون الأمر مقصوراً على الله ، وإرادة الخلق والتكوين ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) .

لكن ما يلبث إنجيل يوحنا أن يمضى بالمعنى إلى حيث أن يوحنا المعمدان جاء (ليشهد للنور ، لكى يؤمن الكل بواسطته ، لم يكن هو النور ، بل ليشهد للنور ، كان النور الحقيقى الذى ينير كل إنسان ، آتياً إلى العالم ، كان فى العالم ، وكوّن العالم به ، ولم يعرفه العالم) (أصحاح / ١ - ٧ و ١٠) .

بهذا يبدو أن المسيح هو الكلمة ، والكلمة هى الله ، والله هو النور ، والنور هو المسيح الذى (إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله ، وأما الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنون باسمه) (أصحاح / ١ - ١١ و ١٢) .

(١) ديانة مصر القديمة - ص ١٠٦ .

(٢) ص ٨٢ .

فكأنه يقول : إن المسيح هو الكلمة ، لأنها تحققت فيه ، والله هو الكلمة لأنه صاحبها ، وهو النور لأنه خالقه ، والنور هو المسيح لأنه نأشره بين الناس ، وكل من يفعل فعل المسيح فهو ابن الله ، لأنه مؤمن بالله ، منفذ لأوامره ، فبنوة المؤمنين (الذين ولدوا ليس من دم ، ولا من مشيمة جسد ، ولا مشيمة رجل) نأشة عن هدى الله ، واصطفائه ورضوانه ، وكل هذا منة وفضل (من الله) (أصحاح / ١ - ١٣) .

إنه - على هذا - لا ينفى أن يكون المسيح (ابن الله) كأى مؤمن بما جاء به عيسى ، درجة النبوة هى التى تختلف باختلاف ما بين الرسول وقومه ، فالبنوة لله مع عيسى حقيقة سامية أخذت صورة إنسانية ، إذ الكلمة صار جسداً ، وحل بيننا (يوحنا / ١) ومع المؤمنين اتصال بالله وامثال لمشيئته .

وينبغى ملاحظة أن يحيى - عليه السلام - كان إلى آخر أيامه شاكاً فى عيسى ، عليه السلام : هل هو المسيح الموعود به أولاً ، كما فى الإنجيل (متى / ١١) ، إذ يقول : (أرسل اثنين من تلاميذه ، وقال له : أنت هو الآتى أم تنتظر آخر ؟) .. فلو كان عيسى إلهاً لزم كُفْر يحيى ، إذ الشك فى الإله كفر ، وكيف لا يعرف النبى إلهه ؟ لقد كان يحيى أفضل من نبى بشهادة السيد المسيح ، حين أخبر متى - فى نفس الأصحاح الحادى عشر - فقال : (لم يقيم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان) ، فكيف فاته أن يعرف الذى من عليه بهذا الفضل ١٤ .

**** وتتجلى المغايرة بين الله وعيسى فى قول يسوع :**

(الحق أقول لكم ، لا يقدر الابن أن يفعل من نفسه شيئاً ، إلا ما ينظر الآب يعمل ، لأن الآب يحب الابن ، ويريه جميع ما هو يعمل .. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذى أرسله ، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً ،

لأنه ابن الإنسان .. أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً ، كما أسمع أدين ، ودينوتى عادلة ، لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى .. هذه الأعمال بعينها التى أنا أعملها هى تشهد لى أن الآب قد أرسلنى (يوحنا / ٥) .

يلاحظ أن هذه العبارات جميعاً من حديث عيسى فى أورشليم ، يوم عيد لليهود ، وهذا الحديث لم يرد فى الأناجيل الثلاثة الأخرى ، وقد أفدنا من (يوحنا) استخدام لفظ (الآب) خاصاً بالله الذى تختلف مشيئته عن مشيئة (ابن الإنسان) ، والآب هو الوجه ، وهو العامل ، وهو القادر ، وهو الديان ، وهو الذى أرسل ابن الإنسان إلى قومه .. هذا فضلاً على أن (الله لم يره أحد قط) ، كما جاء فى (يوحنا / ١) ، أما عيسى فهو يمشى بين الناس ، ويفعل ما يفعلون ، ويقع عليه عدوان المعتدين ، ولا يتميز عن غيره إلا بأنه رسول الله ، وقائد موكب الهداية والرشاد .

(قالوا له : ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ؟ أجاب يسوع ، وقال لهم : هذا هو عمل الله ، أن تؤمنوا بالذى أرسله) - (يوحنا / ٥) - (تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى) (يوحنا / ٧) .

هذا دور عيسى ، وهذه هى علاقته بخالقه ، مجرد رسول .
وبهذا لا يخفى علينا ما يعنيه بقوله فى الهيكل - فى عيد التمجيد - لليهود (يوحنا / ١٠) :

(أبى الذى أعطانى إياها - يقصد خرافه - هو أعظم من الكل ، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبى ، أنا والآب واحد) .

يفيد هذا القول أنه ليس الله ، لكنه يصدر عن الله ، غير أن من المسيحيين من يؤول قوله : (أعظم من الكل) على أساس أنه أعظم من عيسى فى حالة تجسده ، بدليل أنه قال بعد ذلك : (أنا والآب واحد) مع

أن العبارة الأخيرة تعنى أنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فما يجيء به من هداية خرافه إنما هو من الله ، واجب التبليغ نصاً ، ولا يملك معه تحريفاً أو اجتهداً ، ولعل اليهود الذين كانوا يستمعون إليه أرادوا عبارة لا تحتتمل التأويل ، فقالوا له : (إنك - وأنت إنسان - تجعل نفسك إلهاً ١٢) ، فقال : (إن كنت لست أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى ، ولكن إن كنت أعمل ، فإن لم تؤمنوا بى فأمنوا بالأعمال ، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فى وأنا فيه) - (يوحنا ١ / ١) .

قول يركز على القدرة الحسنة ، فليست العبارة بالأقوال ، بل بالأفعال ، كما أنه ليست العبارة بالقائل ، بل بما يقول .. لكن الصياغة تذكرنا بنزعة الصوفى الإسلامى الذى قال : (ما فى جبتى غير الله) ، وهو قول لا يتجاوز الإشعار بقوة الإيمان ، وبقوة الاتصال بالله ، والاستغراق الكامل فى حب الله .

فى أقصى لحظات المعاناة التى يلجأ فيها أغلظ الناس قلوباً إلى الصدق والبوح بما تعتمل به النفس ، نجد السيد المسيح يضرع إلى الله ، قائلاً : (إلهى ، إلهى ، لماذا تركتني ١٢) - (متى ٢٧ / ٢٧ ، ومرقس ١٥ / ١٥) - إنه نداء اليأس البشرى ساعة الاحتضار ، كما يقول ول ديورانت الذى يضيف : (ولعل لوقا قد رأى أن هذه العبارة لا تتفق مع عقائد بولس الدينية ، فبدلاً من قوله : « يا أبته ، فى يديك أستودع روحي » ^(١) .

وكل من عبارة متى ومرقس ولوقا دليل على بشرية عيسى ، وعلى ضعفه عند الشدة ، وعلى حاجته إلى خالقه . ومن الواجب أن نعرف أن الإله (موجود ، واجب الوجود لذاته ، ليس جسماً ، ولا متحيزاً ، ولا عرضاً) ، وعيسى - عليه السلام - بخلاف هذا كله ، وإذا كان قد أحيا

الميت بإذن الله ، فالعهد القديم ينسب إلى حزقيال إحياء آلاف الموتى ، كما أن كلاً من إيليا وأليشع شاركوا فى الإحياء والإبراء من الأمراض المزمنة ١١ .

وهذا المفهوم الذى يفصل بين ما لعيسى وما لله أدركه كثير من المفكرين المسيحيين .

يقول اكلمنديس الرومانى الذى كان إيريناوس يعتبره أسقفاً لروما : (إن الله أرسل المسيح ، والمسيح اختار الرسل ، والرسل اختاروا خلفاءهم من الشيوخ والأساقفة) ، ويقول اغناطيوس الأنطاكي : (اتبعوا الأسقف كما اتبع يسوع المسيح الآب) .

قال إميل لودفيج : (لم يفكر يسوع فى أنه أكثر من نبي ، وليس بقليل أن يرى نفسه فى بعض الأحيان دون النبي ، ولم يحدث أبداً من يسوع ما يخل به إلى السامع أن له خواطر وآمالاً فوق خواطر البشر وآمالهم ، وما كان يسوع ليذهب إلى أبعد من ذلك ، فيدعى أنه المنتقد المنتظر ، فإذا ما قال الناس إنه أحد قدماء الأنبياء رافه ذلك ، موجهاً أفكارهم إلى ملكوت السموات ، إلى أبينا جميعاً ، وإذا ما قال إنه ابن الرب كان ذلك محمولاً على أنه ابن الرب كجميع الذين يشعرون بانطواء أنفسهم على القوى المبدعة التى يشتق منها وجودنا ، والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه ابن الإنسان ، وقديماً أراد الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوة الواسعة التى تفصلهم عن الله ، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الإنسان ، ومن هؤلاء دانيال وحزقيال اللذان أظهرنا الرب مخاطباً كل واحد منهما بابن الإنسان ، أى يادمى ضعيف هالك ، ولد ليقتنى بعد ألم ، ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب) ^(١) .

وقال توينبى المؤرخ العالمى المعروف :

(إن علاقة المسيح بالله هى علاقة روحية ، تشبه العلاقة الروحية التى

(١) ابن الإنسان - ترجمة عادل زعتر - ط الحلبي ١٩٤٧ .

تقوم بين الآباء والأبناء من البشر ، فى أرفع درجاتها .. ومعنى كون المسيح ابن الله أن الحب كان يلهمه ويملاً شغاف قلبه أكثر من أى إنسان آخر نعرفه ، وبهذا المعنى يكون جميع الناس أبناء الله ، ولا يكون المسيح هو ابنه الأورث ، وإنما يتفاوت الناس فى درجة بنوتهم لله ، بمقدار ما يحملون من المحبة فى قلوبهم (١) .

وهذا ما يوضحه قول السيد المسيح : (تعلمون أنى أنا فى أبى ، وأنتم فى ، وأنا فيكم) (يوحنا / ١٤) فهذا (الحلول) المعنوى لا يعنى إلا قوة الاتصال ، كما يقول الحلاج : (أنا من أهوى ومن أهوى أنا) .

وصدق الله فى قرآنه : ﴿...إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم بروح منه فأمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلاً * لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ (٢) .

يأتى - بعد أصحاب الأناجيل - أولئك الرسل الذين نشروا دعوة السيد المسيح فى (الأمم) ، فلم يخرجوا عن هذا المفهوم الفاصل بين الله وابن الإنسان ، وجعل ما لله الله وما لعيسى لعيسى .

بطرس الرسول يقول : (أيها الرجال الإسرائيليون ، اسمعوا هذه الأقوال : يسوع الناصرى رجل أيده الله بينكم بالآيات والمعجزات ، كما تعلمون) - (أعمال الرسل / ٢) .

(١) عن مقال لـ الدكتور محمد توفيق حسين - مجلة آفاق عربية - آذار ١٩٧٦ - نقلاً عن كتاب (تجارب) لتوينبى .

(٢) النساء / ١٧١ - ١٧٢ .

(إن الله جعل يسوع هذا الذى صلبتموه أنتم رباً ومسيحاً) - (أعمال الرسل / ٢) .

(إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ، إله آبائنا ، مبدئ فناء يسوع الذى أسلمتموه) - (أعمال الرسل / ٣) .

(إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلقين إياه على خشبة) - (أعمال الرسل / ٥) .

واضح تماماً أن الإله هو الذى جعل يسوع مسيحاً ، ومبدئ ، وأقامه ، وأن يسوع هذا قدر عليه اليهود ، فأسلموه ، وصلبوه ، و (علقوا إياه على خشبة) .

وبولس الرسول يقول : (صار من نسل داود ، من جهة الجسد ، وتعين ابن الله بقوة ، من جهة روح القداسة) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ١) .

(نؤمن بمن أقام يسوع ربنا من الأموات) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٤) .

(أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٦) .

(الخليقة نفسها أيضاً ستعتق من عبودية الفساد إلى حرية مجد أولاد الله) - (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٨) .

فالمسيح من نسل داود ، بشر كأبائه ، يرتبط بالله من جهة الروح ، والله هو الذى تفضل فبعث فيه الحياة مرة ثانية بعدما صلب ودفن ، وقوة الصلة بين الله وعيسى حررت عيسى من سلطان الجسد ، ويمكن لعيسى - بقوة إيمانهم - أن يتحرروا كذلك ، ويتصلوا بمجد الله .

* هذا هو ما يمكن أن يرتبط بشرية سماوية ، أما تجسيد (اللاهوتى فى الناسوتى) فليس إلا من بقايا الوثنية التى تسَلَّت إلى العقيدة السماوية

من بيئات ثقافية مختلفة ، وبخاصة اليونان ، أو هو من رصيد التجسيد لله الذى يشيع فى التوراة^(١) ، ومن رصيد الحلول اللاهوتى الناسوتى الذى تجده فى التلمود ، إذ (تميز أرواح اليهود عن باقى الأرواح بأنها جزء من الله ، كما أن الابن جزء من أبيه) ، ويقول التلمود بالتناسخ ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند وأخذه حاخامات بابل من بيعة الأسر الطويل ، أو لعله ما جاء فى الأساطير السومرية عن زواج أبسوم من تيامت الذى تولد عنه ثلاثى الآلهة ، أنو وأنليل وأيا ، فى الأساطير البابلية ، أو لعله صورة من ثلاثى الآلهة براهما وفشنو وسيفا فى الأساطير الهندية ، أو من الثلاث المصرى أوزيريس وإيزيس وحورس .

وإذا كان العهد القديم قد تتلمذ طويلاً على التراث المصرى القديم ، والعهد الجديد (تكملة) للعهد القديم ، واستمرار له - يسهل علينا الرجوع إلى قصة تميمص الإله آمون شكل الملك تحوتمس ، ليستولد زوجته (أحمس) الجميلة الابنة المحبوبة (حتشبسوت) ، ويتقمص (بتاح تاتن) شكل (تيس مندى) ويضطجع مع أم رمسيس الجميلة ، لكى تلد هذا الملك العظيم ، (وأعضاؤه كلها إلهية) .

(وفى مساكن العصر الرومانى نجد بين تماثيل الآلهة من الصلصال أشكالاً متنوعة لإيزيس ، كانت تعتبر - عند العامة من الناس - تماثيل مقدسة ، وكثيراً ما تزود بمصاييح تضاء فى عيد المعبود ، تكريماً له ، وفى هذه التماثيل الصغيرة يتجلى الشغف بإبراز الجانب الإنسانى فى إيزيس ، فقد كان يستحب تمثيلها مع رضيعها وهى تعطيه ثديها ، فى وضع يذكر فى بعض الأحيان بتماثيل السيدة العذراء)^(٢) .

ولا ريب فى أن تماثيل السيدة العذراء دليل قاطع على مدى تأثر

الديانة المسيحية بالتراث المصرى القديم ، وبخاصة أن مصر احتضنت الديانة المسيحية فى مراحل هامة من تاريخها ، وكان عصر الشهداء قمة التضحية المصرية فى وجه الطغيان الرومانى .

يؤكد هذا قول ول ديورانت : (فجاءت من مصر آراء الثلاث المقدس ، ويوم الحساب ، فأبدية الثواب والعقاب ، وخلود الإنسان فى هذا وذاك ، ومنها جاءت أم الطفل ، والاتصال الصوفى بالله ، ذلك الاتصال الذى أوجد الأفلاطونية الحديثة والأدريّة ، وطمس معالم العقيدة المسيحية ، ومن مصر أيضاً استمدت الأديرة نشأتها وصورتها التى نسجت على متواليها ، ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ، ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس ، ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام ... وقصارى القول إن المسيحية كانت آخر شىء عظيم ابتدعه العالم الوثنى القديم)^(٣) .

* وقد سيطرت الوثنية اليونانية ، والفلسفة اليونانية على فكر بولس الرسول الذى (كان فيه من الإحساس القوى والخيال أكثر مما فيه من نزاهة الحكم والنظرة الموضوعية إلى الأشياء)^(٤) . لذلك جرت على لسانه تعبيرات ملتوية ، مهدت لمثل ما صار إليه الفهم العام ، مع أن المسيحية بريئة منه ، أو قل إنها بريئة مما صارت العامة تردده ، دون وعى ، أخذاً بظاهر اللفظ ، أو اقتداءً بأولئك الذين بدلوا نعمة الله كفرأ .

وبلاحظ أن هناك من يتهم بولس (شاعول) اليهودى القرينى ، بأنه دخل المسيحية ليخربها من الداخل ، إذ نقلها من ديانة خاصة ببنى إسرائيل إلى ديانة عالمية ، ونقلها من التوحيد إلى التثليث ، وقال بألوهية المسيح ، وألوهية روح القدس ، واخترع قصة التكفير عن خطيئة البشر .

(١) قصة الحضارة مج ٣ - ج ٣ - ج ١١ ص ٢٧٥ / ٢٧٦ .

(٢) المصدر السابق - ص ٢٥١ .

(١) انظر الفصل الأول من هذه الدراسة .

(٢) ديانة مصر القديمة - ص ٦٤ و ٦٥ و ٤٣٤ .

واليهود المسيحيون الذين كانوا - حتى عام ٧٠ م يعدون أغلبية الكنيسة، وصموا بولس بالخيانة والتواطؤ ضد المسيحية، وكان رئيس الجماعة في ذلك الحين Jacques (يعقوب) قريب المسيح، وهو يعد عمود اليهودية المسيحية الذي ظل عن إرادة ملتزماً بخط اليهودية أمام المسيحية البولسية، وقد ظلت اليهودية المسيحية مسيطرة ثقافياً حتى عام ١٤٠ م، ومن عام ٧٠ حتى ١١٠ نتجت أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا، ولقد كانت رسائل بولس سابقة عليها، إذ إن رسالته إلى أهل تسالونيكي كانت سنة ٥٠ تقريباً، لكنه لم يشهد المسيح، وإن ادعى أن المسيح قد ظهر له، على طريق دمشق، بعد قيامته ولم تنتصر رسالة بولس إلا بعد وفاته حين ساد المسيحيون الهلنستيون^(١).

ثم جاء لوثر ليجعل منه رسول الإصلاح الديني، وأخذ عنه كلفن عقيدة الجبرية^(٢).

يقول بولس عن بنى إسرائيل: (لهم الآباء، ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد) (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٩)

(الذى هو صورة الله غير المنظور، يكر كل خلقه^(٣)، فإنه فيه خلق الكل، مافى السموات وما فى الأرض، ما يرى وما لا يرى، سواء كان عروشاً، أم سيادات أم رباسات، أم سلاطين، الكل به وله قد خلق) - (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس / ١).

(١) موريس بوكاي - ص ١٨ و ٧٤.

(٢) قصة الحضارة - مج ٣ - ج ٣ - ص ٢٧٠.

(٣) يعلق ولهم باركلي فى كتابه الخاص بسفر الرؤيا ص ٤٤ بقوله: (يقصد أن للمسيح رب الكون كله، وله وحده مكان الشرف والمجد)، ومع هذا يقول ص ٥٨: (ومن ملابس شبه الإنسان نرى أنه صاحب الوظائف الثلاث: فهو النبى، والملك، والكاهن) وفى ص ١٦٩ يقول: (نعمنداً عمّد يوحنا يسوع انفتحت السماء ونزل روح القدس على المسيح).

(فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً) - (إلى أهل كورنثوس / ٢) -
(الله ظهر فى الجسد، تبر فى الروح، تراءى لملائكته، كرز به بين الأمم، أو من به فى العالم، رفع إلى المجد) - (رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس / ٣).

** وجاء يوحنا اللاهوتى فجعل من هذا الالتواء شعاراً، وصار خلاصة رسالة المسيح:

(إن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة: الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء واحد، والذين يشهدون فى الأرض هم ثلاثة: الروح والماء والدم، والثلاثة هم فى الواحد) - (رسالة يوحنا الأولى / ٥).

(أنا هو الأول والآخر، والحى، وكنت ميتاً، وهأنا حى إلى أبد الآبدين، آمين، ولى مفاتيح الهاوية والموت) - (رؤيا يوحنا / ١)

** وكان أن عرض أريوس الإسكندري (ت ٣٣٦) لهذا الأمر، فأعلن أنه (إذا كان الابن من نسل الأب فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الابن متفقاً مع وجود الأب فى الزمن، يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لاشئ أى من غير مادة الأب، لأن المسيح والأب ليسا من مادة واحدة، وقد ولد الروح القدس من الكلمة، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها^(١)).

ولما كان أريوس مؤيداً بعدد كبير من رجال الدين ارتاع الأسقف ألكسندر من هذه الآراء، فدعا مجلساً من الأساقفة المصريين إلى الاجتماع فى الإسكندرية، وأقنع أعضائه بتجريد أريوس وأتباعه، وأبلغ الإجراءات التى اتخذها المجلس إلى سائر الأساقفة، لكن الجدل ظل قائماً بين المؤيدين

(١) قصة الحضارة - مج ٣ - ج ٣ - ص ٣٩٢.

والمعارضين ، مما دعا قسطنطين الملك إلى دعوة أول مجلس عام للكنيسة لوضع حد لهذه الخلافات التي اشتعلت نيرانها في بلاد الشرق اليوناني ، فانعقد سنة ٣٢٥م مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر - في نيقية البيثينية بالقرب من عاصمة نقوميديا - يصحبهم حشد كبير من رجال الدين الأقل درجة ، واستطاعوا أن يصوغوا تشريعاً يقول :

(نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى ، ورب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد المولود من الأب ، قبل كل الدهور ، نور من الله ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ الأب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء ، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطي ، وتآلم وقبر ، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الأب وأيضاً فسيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات الذي لا فناء لملكه ، وبروح القدس الرب المحيي ، المنبثق من الأب ، مع الأب والابن ، مسجود له ، وبمجد الناطق في الأنبياء ، واعتقد بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ، وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ، وإرجاء قيامة الموتى ، وحياة الدهر الآتي ، آمين)^(١).

وحكم المجلس على أريوس ومؤيديه باللعنة والحرمان ، ونفاههم قسطنطين من البلاد ، وصدر مرسوم امبراطوري بإحراق كتب أريوس جميعاً وصار إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام^(٢).

وبهذا اتسع مجال البلبلة والاضطراب الفكري وبخاصة أن هذا المجمع المسكوني لم ينتج في إفهام العقول - ولا سيما العقل اليوناني - سر عقيدة التجسيد ، وكيف أن أقوال أريوس القائلة بأن المسيح مخلوق بأمر الله الأب - فاسدة ، وليست أقوال اثناسيوس القائلة بأزلية المسيح جسداً وجوهرًا .

(١) ابن تيمية - الجواب الصحيح - ص ١١٨ .

(٢) قصة الحضارة - مج ٣ ج ٢ - ص ٣٩٤ / ٣٩٦ .

ولا شك في أن القول بالأزلية أو الألوهية يثير أكثر من سؤال : كيف يعيش الله في رحم امرأة ؟ هل تصبح مريم زوجاً للإله أو أمًا ؟ كيف تصبح زوجاً للإله وهي على ذمة يوسف النجار ؟ ألا نفتح الطريق بهذا القول أمام اليهود ، فيصفونه - عليه السلام - بأنه ابن زنا ١٤ .

إذا كانت ابنة عمران أمًا لله ، فهل تغذى جسد الله من دمه ؟ .

ألا تصبح أم الله إلهة هي الأخرى ، مع أنها ابنة عمران ؟ .

حين كان الرب جنيناً ، هل فقد شيئاً من صفات الألوهية ؟ .

هل كان يدير الكون من داخل قفص الرحم ، أو كان في إجازة ، والكون يسير بقوة القصور الذاتي ؟ .

حين ولد وياشر حياة الناسوت هل كان يياشر حياة اللاهوت في ذات الوقت ؟ .

هل يمكن تصديق القس منسى في قوله : (لئن كنا نراه يؤدي الواجبات الناسوتية ، وياشر مع الناس ، إلا أن روحه كانت في السموات مع أبيه ، ونور ذلك الموضع السامى نظر إلى العالم الأسفل ، وبه دبر شئونه ودعوته بين الناس)^(١) ؟ .

إذا صح أنه (يياشر مع الناس) بلا روح ، وأن (روحه كانت في السماء مع أبيه) فهل انفرد بالعمل دون أبيه ، أو قسما العمل بينهما ، وهل كانت القسمة بالتساوى ، أو أن حظ أحدهما كان أكبر ؟ .

وهل يمكن أن يكون الابن هو الأب في وقت واحد ؟ .

هل كان (مساوياً الأب في الجوهر الذي به كان كل شيء) حقاً ؟ . ألا يعنى هذا أنه والأب يصبحان جوهرين متساويين ، أى أنه ليس هو ؟ .

والا فكيف أصبح مرسلاً ورسولاً ؟ .

(١) شمس البر - ص ١٥ .

كيف نصدق أن (الفكرة القائلة بأن يسوع جاء إلى العالم بكتاب أنزل عليه اسمه الإنجيل فكرة خاطئة ، لا تطابق الواقع ، والأحرى أن يقال : إنه عندما جاء يسوع إلى العالم أعطى الإنجيل للناس) (١) ؟ .

أليس هذا لوناً من العنت والإجهاض الفكري ، في سبيل الافتراء على ما جاء به القرآن الكريم تعظيماً ودفاعاً من الرسول عيسى ابن مريم ، وعن السيدة مريم ، عليها سلام الله ورحمته ؟ .

كيف يصح أن يمسك الجنود والغوغاء بالإله ويضعوا الشوك على رأسه ، ويصقوا على وجهه ، ويصلبوه بين لصين ؟ .

لصالح من هذا العبث والتجديف على الله ؟ .

أهي الاستهانة بالعقل الإنساني إلى حدّ إلغائه أو تشويهه ؟ .

أليس هذا الاضطراب وهذه البلبلة وهذا التجديف مما دعا سايلبيوس إلى القول : إن الأقانيم الثلاثة هي الوجود والحكمة والحياة ، وليست معاني زائدة على ذات الله تعالى ، بل هي صفات اعتبارية ، ولا مسمّى لشيء منها في الخارج ، إذ البارئ تعالى موجود لا بوجود ، وحكيم لا بحكمة . وحي لا بحياة - كما أورد ابن العبري في مختصر تاريخ الدول ص ١٢٨ - وهو مفهوم يلتقي بالفكر الإسلامي ، إن لم يكن مستقى منه ١٢ .

أليس هذا الاضطراب وهذه البلبلة وهذا التجديف مما ساعد على ظهور مذهب الموحدون Unitarians القائم على وحدانية الله ورفض التثليث ، وكان نيوتن أحد رجال هذا المذهب ، أو كما قال برونوفسكي : كان العلماء أواخر القرن السابع عشر يشعرون بالخرج من مبدأ التثليث ١٣ ؟ .

أليس هذا الاضطراب وهذه البلبلة وهذا التجديف مما شجع الدكتور راشدل أسقف كارليل على القول - في مجتمع من رجال الدين في أكسفورد سنة ١٩٢٠ - بأن عيسى ليس إلا إنساناً ، بكل ما يتضمن هذا

(١) مصادر الكتاب المقدس - ص ١٩ .

(٢) ارتقاء الإنسان - عالم المعرفة - عدد مارس ١٩٨١ - هامش ص ٩٩ .

اللفظ من معان ، لأنه لم ينسب إلى نفسه الألوهية ، وما هو إلا جسد بشري ، وروح بشرية ، عقلاً وإرادة ، ولأن ميلاده من عذراء لا يشبه الألوهية ، ومن العسير إنكار أنه توقع حدوث أشياء في المستقبل لم تتحقق تاريخياً ١٤ .

وأيّد هذا الاتجاه هـ . د . ميجر الذي افتتح المناقشة بأن عيسى لم يدع أنه ابن الله ، بالمعنى الميتافيزيقي ، بل بالمعنى الذي يكون به البشر ذوى صلة روحية وبنوّه بالله ، قادرين على أن يعملوا بالأسس الأخلاقية التي بها يعمل الله .

وتجد روبرتسون في كتابه Paganchrist يحدثنا عن عبارة مثرا الفارسية التي انتشرت في العالم لمدة تقرب من ستة قرون ، فيقول : إن مثرا ولدته عذراء في كهف ، في ٢٥ ديسمبر ، وأنه جاب الآفاق يبشر برسالته ، وكان حواريوه اثني عشر رجلاً ، وأنه مات في سبيل البشرية ، واحتفل بقيامه من القبر بفرح عظيم ، وقد أطلق اسم المخلص .. ومما هو جدير بالذكر أن هذا الدين كان قوياً إلى القرن الثالث الميلادي (١) .

ماذا يقصد روبرتسون بهذا القول ١٤ .

ألا نكون في غنى عن هذا كله لو أنصفنا المسيح والمسيحية ، دون هذا الإغراق في اليهتان ، حتى لا نضطر أخيراً إلى أن نقول :

(هو حقيقة أعلنها الله في كلمته ، وهي تفوق العقل ، ولذلك ينبغي أن نصدقها ، وإن كنا لا ندرکها) ١١ .

(إنها سر ، ووجود الأسرار في الدين إشعار بأن الدين من الله) ١١ .

الاعتراف بأن الثالوث أغمض سر يعد تكريماً لله ، (لأننا حيثئذ نصغى له بأسمى شيء فينا ، وهو العقل) ١١ ! .

(١) في العقائد والأديان - ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

أو أن نتفلسف - دون وعى بأنه يلزم لكون الله ودوداً محباً ، منذ الأزل ، أن يكون له مودود ، أى محبوب منذ الأزل ، حتى (يتصل الله اتصالاً أزلياً كلياً بداخله) ، وبهذا يصبح الله (مثلاً للحياة البشرية ، فيما يتعلق بالمعاشرة الحبيبة والألفة الإلهية) II .

فإذا قيل : لماذا لم يقل المسيح صريحاً : (أنا الله) ، بل قال : (أنا ابن الله) ، كان الجواب : لأنه لو قال : (أنا الله) يجمع إلى أقنومه أقنومى الأب والروح ، وهما معه أقنومان ممتازان فى اللاهوت ، بل قال : (أنا ابن الله) لتعرف نسبته الأزلية إلى الأقنوم الأول ، وقال (أنا والآب واحد) ، لتعرف مساواته له (١) II .

لقد أدى هذا التقوقع الفكرى ، والخوف من أن تنال عقول الآخرين من هذا المعتقد الخطير ، إلى أن صارت أسلحة دفاعاتهم مصوبة إلى صدورهم .

يقول القديس غريغوريوس : (أنه خير لله أن يكون أباً لابن ، من أن يكون سيداً لجمهور من العبيد) II .

وهؤلاء العبيد هم خلق الله الذين خلقهم على صورته ، كما تقول التوراة II .

ويقول م . ليموان : (إنه خير له ألا يكون معروفاً من كائن آخر غير ذاته) II .

يعرف من حقيقة من ؟ أهو تفسير جديد للحكمة القائلة : (اعرف نفسك) II .

(١) شمس البر - ص ٦٧ و ٦٨ و ٨١ و ١٢٧ / ١٢٨ .

ويعمل الدكتور أنس وجود عيسى الإله بأن (الله وحده يقدر أن يصلحنا مع الله) ، و (من يكفر عن خطايانا غير الابن الإله ، ومن يقدرنا غير الروح القدس الإله) II .

أى أننا ما دمنا نخطئ فى حق الإله ، فلا بد أن يكون إله يطهر أرواحنا ، ليرضى عنا الإله الذى هو إله التكفير وإله التطهير فى الوقت نفسه ، لأن (الآب إله ، والابن إله ، والروح القدس إله ، ولكنهم ليسوا ثلاثة آلهة ، بل إله واحد) II .

أليس هذا أشبه بقول كهنة الهنود فى تفسير الأسماء الثلاثة التى أطلقت على (الله) :

هو براهما من حيث هو موجود

وهو فشنو من حيث هو حافظ

وهو سيف من حيث هو مهلك II

ولا غرابة فى هذا ، فإنه (مع كونهم ثلاثتهم ذوى طبيعة واحدة ، ترى كلا منهم منفرداً عن الآخر ، كاملاً بذاته ، يتكلم باسمه ، فيقول الآب : أنا خلقت العالم ، ويقول الابن : أنا فديت العالم ، ويقول الروح القدس : أنا قدست العالم) ، والثلاثة جوهر واحد ، عليك أن تسلم به ، ولا تفكر فيه ، (فما أعلى الحقائق التى تتضمنها عقيدة التثليث ، وما أدقها ، فما مستها اللغة البشرية إلا جرحتها فى أحد جوانبها) ، كما يقول العلامة أوجيه دى بليس ، و (عندما يراد البحث عن كلمة للإعراب بها عن « الثلاثة » فى الله تعجز البشرية عن ذلك عجزاً أليماً) ، كما يقول القديس أوغسطينوس ، وكل ما يمكن اللغة أن تقوله هو كما قال أوريجانوس : (إن الآب هو الأصل ، أو الله الذى هو من ذاته وبذاته إله ، وإن

الابن مولود من الآب فقط ، فهو غير مصنوع ولا مخلوق ، بل مولود ، وإن الروح القدس غير مصنوع ولا مخلوق ولا مولود ، ولكنه منبثق من الآب ، فهو أصله إذن (١١) .

ويمكن تبسيط هذه الحقيقة إذا كان معك (ثلاث قطع ذهب ، فتقول عن كل قطعة من الثلاث القطع إنها ذهب تام ، وليست الثلاث القطع ثلاثة أذهاب ، بل ثلاث قطع ، والذهب واحد) ، أو أن تقول : ($١ \times ١ = ١$) ، أو أن تقول : إن عيسى من الله كالشعاع من الشمس (١١) ، ولكن .. إياك أن تفكر في جوهر القطع الذهبية الثلاث ، فترى أن كل قطعة كيان مستقل ، أو أن تحول عملية الضرب إلى عملية جمع ، أو أن تبحث عن دور مريم العذراء بين الشعاع والشمس !! .

وليست المسيحية بدعاً في هذا ، ففي الديانات الهندية والصينية والفارسية ، وفي كتابات أفلاطون ما يشعر بهذا .. الفرق هو (أن الوثنيين مضطربون في اعتقادهم بالتثليث ، كما اضطربوا في عقيدة الوجود الإلهي ، نظراً لأنهم لم يهتدوا بنور الوحي الإلهي ، كما بنور الوجدان) .

وعقيدة التثليث -- على فرض أنها لم ترد في التوراة -- (موجودة في التقاليد اليهودية ، كالاعتقاد بخلود النفس ، وقيامه الأجساد ، والتجسد الإلهي) (١٢) .

* * *

١٠ - وعبرة العهد الجديد فيها نظر !!

« إن الإنجيل تاريخ غريب ، جزء منه حكايات شعبية ، والجزء الآخر سجل تاريخي » . [برونوفسكى - ارتقاء الإنسان] .

حين أخذ ول ديورانت في الكتابة عن (يسوع) تساءل : (هل وجد المسيح حقاً ؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية ، وثمره أحزان البشرية وخيالها وآمالها ، أسطورة من الأساطير ، شبيهة بخرافات كرشنا وأوزوريس وأثيس وأدونيس وديونيشس ومثراس ؟) .

(لقد كان بولنجبروك والمثقفون حوله يقولون في مجالسهم الخاصة إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق ، وجهر فلنى Volney بهذا الشك في كتاب « خرائب الامبراطورية » الذي نشره في عام ١٧٩١م ، ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨م بفيلاند العالم الألماني لم يسأله في السياسة أو الحرب ، بل سأله : هل يؤمن بتاريخية المسيح ؟) (١٣) .

وفي عام ١٨٤٠ بدأ برونو بور سلسلة من الكتب الجدلية الحماسية يريد أن يثبت بها أن يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة من الأساطير ، أو طقساً من الطقوس ، نشأ في القرن الثاني ، من مزيج من الأديان اليهودية واليونانية والرومانية ، وفي هذه الأثناء وصلت مدرسة بيرمن ونابر ومثاس الهولندية إلى حد إنكار حقيقة المسيح التاريخية ، (بعد بحوث مضنية) .

وفي ألمانيا سنة ١٩٠٦ عرض آرثر دروز هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً .

(١) قصة الحضارة - مع ٣ - ج ٣ ص ٢٠٢ / ٢٠٤ و ص ٢١٠ .

(١) شمس البر - ص ٨٣ / ٨٥ و ١٠٣ و ١١٤ .

(٢) المصدر السابق - ص ٩٣ / ٩٤ و ٩٧ وقد تناولت هذه القضية بتمعن في كتابي :

(مسيحية بلا مسيح)

وفى إنجلترا أدلى و. ب. سمث ، وج. م. روبرتسن بحجج من هذا النوع أنكروا فيها وجود المسيح^(١) .

ولعل السبب فى هذا ما دعا هردير إلى أن يقول سنة ١٧٩٦ إنه لا يمكن التوفيق بين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح يوحنا .. وما دعا دافيد استروس إلى أن يقول : (إن ما فى الأنجيل من خوارق الطبيعة يجب أن يعد من الأساطير الخرافية ، وإن حياة المسيح الحقيقة يجب أن تعاد كتابتها بعد أن تحذف منها هذه العناصر)^(٢) .

ويقول ول ديورانت نفسه - بعد أن أورد أقوال المعارضين والمؤيدين - (وملاك القول أن ثمة تناقضاً كبيراً بين بعض الأنجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً فى صحتها ، وكثيراً من القصص الباعثة على الريبة والشك بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيراً من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة فى العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة ، أو طقس من طقوسها ... ويبدو أن ما تنقله الأنجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تعرضت له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ، ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح)^(٣) .

ومن هنا كان قول فاستس - أحد علماء فرقة (مانى كيز) فى القرن الرابع الميلادى : (إن هذا العهد الجديد ما صنفه المسيح ولا الحواريون ، بل صنفه رجل مجهول الاسم ، ونسبه إلى الحواريين ، ليعتبره الناس ، وأذى المريدين لعيسى إلهاءً بليغاً ، بأن ألف الكتب التى فيها الأغلاط والتناقضات)^(٤) .

*** ويمكن الاعتذار عن هذا كله بالظروف الصعبة التى ابتليت بها

(١) ، (٢) ، (٣) قصة الحضارة - مج ٣ ج ٣ - من ٢٠٢ / ٢٠٤ و ص ٢١٠ .

(٤) إظهار الحق - ص ٩٩ .

المسيحية داخل التآمر اليهودى المتسلط بوسائله وبوسائل الحكم الرومانى ، وداخل التصفيات الرومانية التى استمرت أكثر من ثلاثمائة عام ، حتى عهد قسطنطين ، منذ حكم نيرون حتى ديوكليش (دقلديانوس) ، مروراً بتييتس وتراجان وهادريان وسفيرس وفالريان وأرليان ، بالإضافة إلى العداء التقليدى بين اليهودية والمسيحية ، وبين الفرق المسيحية المختلفة ، مما انعكس على عملية التدوين .

لهذا كله ، فإن الكلام فى (العهد الجديد) يثير الكثير من الحرج ، لكن الرغبة الصادقة فى أن تكون الفائدة من هذا (الكتاب المقدس) على خير ما يرجى ، هى التى تلجّ على ضرورة تنقية الكتاب الذى يدين به مئات الملايين من كل ما خالطه مما ليس منه ، أو مما عثرت به أقلام الكتاب والمترجمين ، أو التمس عليهم مجال نفعه ، أو مقدار هذا النفع .

ولعل مما يهون الحرج أن القرن الأول كله مضى وتعاليم المسيحية تنتقل بالرواية الشفهية من جيل إلى جيل .. وأخيراً كان تدوين الأنجيل التى استقت من الروايات والمصادر المتعددة ، بدافع الإخلاص لصاحب الرسالة ، والثقة الكاملة فى كل ما ينسب إليه ، والرغبة الشديدة فى ترويض كل ما يأسر العامة ، ويجمعهم تحت راية المسيح ، وكان الاضطهاد والتعذيب والدعوة إلى المسيحية من خلال طرق ملتوية وسرايب - ما حال دون توثيق الرواية ونقد النصوص .. ومن ثم بدا أن كل إنجيل يروى الحادثة من واقع أثرها فى نفس كاتبها ، والغاية التى يهدف إليها .

ولكن كانت النصوص الدينية الشفهية أخذت فى القرن الثانى وبداية القرن الثالث فى الظهور - كما يقول الأستاذ بوكيه^(١) - ووضعت لها

(١) يقول ول ديورانت : (ولنا نهد إشارة لأنجيل مسيحى قبل عام ١٥٠ م إلا فى كتاب =

الأسس التي يعرف بها الصحيح من الزائف والمشكوك فيه ، فإن الخلاف بين المسيحيين ظل قائماً بين أيها يعتمد من الأسفار وأيها يستبعد ، وأى الأسفار يتضمن الكتاب المقدس ، حتى اتفق عالم الشرق والغرب المسيحي - بعد المجمع المقدس الذي انعقد سنة ٦٩٢ م - على الوضع الحالي الجديد ، ولكن ما زالت خلافات ذات أهمية أساسية بين المسيحيين ، وبخاصة بين الكنيستين الشرقية والغربية (١) .

وفى مؤتمر الأديان الذى عقد فى باريس - يولييه ١٩١٣ م - اتجه المؤتمر إلى رفض الشعائر المسيحية القائمة ، لأنها تقوم فى رأيهم على أخطاء (٢) ، أو بلغة أخرى (إن الأناجيل كتبت منذ ألفى سنة ، بلغة لا يتكلم بها أحد الآن ، وبين أناس عوائلهم مختلفة عما هى عندنا الآن ، ولقلة معرفتنا بهذه الأحوال لا نستطيع فهم كثير من المشاكل) (٣) .. وهو عذر قد يعين على تقبل كثير من المآخذ ، وإن ظلت تحمل طبيعة التحريف

= بيباس Papias الذى كتب فى عام ١٣٥ م ، إذ يقول : إن « يوحنا الأكبر » - وهو شخصية لم يستطع الاستدلال على صاحبها - قال : إن مرقس ألف إنجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس) - قصة الحضارة - مج ٣ - ج ٣ - ص ٢٠٧ .

ويضيف موريس بوكاي ، (فى العصور المسيحية الأولى كان هناك تداول كثير من الكتابات المسيحية : غير أنه لم يعتمد بها ككتابات جديرة بالصفة ، كما أوصت الكنيسة بأخفائها ، وربما كان ما حذف مائة إنجيل ، ومع هذا - فهناك مثل أناجيل الناصريين وأناجيل العبرانيين وأناجيل المصريين - التى عرفت بفضل تنويعات آباء الكنيسة - ما كان يشبه عن قرب الأناجيل المعترف بها ككتبا ، ونفس الأمر ينطبق على إنجيل توما وإنجيل برنابا - ص ٩٩ .

ويقول جون لوريمر - أستاذ مادة تاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت الإنجيلية بالقاهرة - فى كتابه (تاريخ الكنيسة) ج ١ ص ٧٥ : إن المشرق المسيحي الشهير يوسابيوس القيصري (٢٦٠ - ٣٤٠ م) كتب عن حياة الرسل ، فاعتمد كثيراً على بعض الأساطير ، أو على تناليد نسبت إلى كتاب آخرين فى القرن الثانى ، (وفى تلك الحقبة كتبت بعض أسفار العهد الجديد ، وعلى الأخص الأناجيل والرسائل الرعوية ورسالة العبرانيين ومقوب وسفر الرؤيا) .

(١) ، (٢) فى العقائد والأديان - ص ٢٤١ و ٢٤٨ .

(٣) شمس البر - ص ٥٣ و ٥٢ .

أو الالتواء أو الاختلاق ، كما أنه يعين على التأويل - فى بعض الأحيان - لكنه قد يصل إلى حد (الابتكار) .

ورد عن السيد المسيح : (ينبغي أن يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال) .. وفى هذا يقول القس منسى : (كان اصطلاح اليهود فى تلك الأيام أن يحسبوا الجزء من النهار نهراً كاملاً ، والجزء من الليل ليلاً كاملاً ، وعلى ذلك يصح أن يكون معنى قوله : « ثلاثة أيام وثلاث ليال » يوماً كاملاً ، أى أربع وعشرين ساعة ، وجزءين من يومين آخرين ، مهما كان ذاك الجزآن صغيرين) (١) !! .

هذا التأويل الذى يزيد من الحرج يغنى عنه أن نعالج الأمر علاجاً جذرياً ، فما دام النص بالرواية عن المسيح وليس نص المسيح ، وما دام منقولاً من لغة إلى لغة ، فليكن سبيلنا إلى لغة سلسلة يسيرة الفهم ، وتلافى جوانب الغموض والإيهام ، دون أن نقع تحت تأثير قول ماثيو أرنولد : إن أسانيد العهد الجديد ليست ثقة فى كثير من الحالات ، فلا يجوز الاعتماد عليها أبداً (٢) .

يقول الدكتور فؤاد حسنين على : الفوارق والمخالفات الموجودة بين أسفار العهد الجديد وأجزائه متنوعة ، منها أغلاط الكتاب والمُلمّن ، وسقوط بعض الكلمات أو العبارات ، أو زيادتها ، وتقسيم الكلمة قسمة خطأ ، أو الجمع بين كلمتين أو أكثر فى كلمة واحدة ، والجهل أحياناً ببعض الاختصارات أو الاصطلاحات ، أو الخطأ فى الكلمة أو نطقها أو تصحيحها ، كما يعتمد الكاتب إلى سد نقص قد يوجد خطأ .. ومثل هذه الأخطاء فى معظم المخطوطات التى وصلتنا ، بالإضافة إلى أن الكنيسة كثيراً ما أحدثت بعض التغييرات فى الألفاظ والأساليب ، كأن تضيف بعض العبارات

(١) شمس البر - ص ٥٣ و ٥٢ .

(٢) روح الإسلام - ص ١٦٣ .

للإيضاح والتفسير ، أو لتأكيد معنى من المعاني ، أو لتجنب معنى آخر قد يفهم من نص عبارة ما ، كما قامت الكنيسة بإبعاد العبارات التي يفهم منها التناقض ، وهذا الإصلاح الأخير حدث خاصة في الأناجيل ، حيث بذلت مجهودات كثيرة في سبيل التوفيق بينها ، كما لاحظ هذا أوريجينيس^(١) .

وهذا الذي قامت به الكنيسة - بالرغم من عدم مشروعيتها ، بالنسبة لقداسة النص - يشجع على إعادة النظر في (صياغة) العهد الجديد الذي بأيدينا .

* * *

بدأ إنجيل متى بذكر (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم) ، ويمضي في سلسلة النسب من إبراهيم لينتهي إلى (يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع ، الذي يدعى المسيح) - (متى / ١) فكان (السلسلة) تقول : إن عيسى ابن يوسف النجار ، وليس كذلك ١١ .

وإذا قيل إن النسب انتهى إلى يوسف (حيث كانت العادة تقضى بنسبة الأبناء إلى الذكور ، دون الإناث ، وكان يوسف رأس بيت داود في ذلك الوقت) - فما قيمة هذا النسب بالنسبة لعيسى ؟ .

كان أولى أن تنتهي سلسلة النسب إلى مريم ، أو أن يسكت عن هذا ، إلا إذا أريد القول إن عيسى تربى في حضن رجل من نسل داود ، ولن يجدى هذا .. ثم إن الاحتفاظ بهذا النسب يدفع دعوى أن المسيح ابن الله ، أو أنه الله .

وإذا قيل أن عيسى نسب إلى يوسف ، حتى لأتهم مريم بالزنا فترجم ، فإن تدوين الإنجيل كان بعد موت عيسى ومريم ، ولا حاجة إلى إغفال الحقيقة ، وبخاصة أن بقية الأناجيل تتحدث عن أن عيسى ابن الله وكلمته .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية - ص ١٥٣ .

هذا إلى أن إنجيل (لوقا / ٣) أورد سلسلة نسب يسوع على غير ما أورد (متى) ، وإن كان إيراد لوقا على وجه الظن ، إذ يقول : (وهو على ما أظن ابن يوسف بن هالي .. إلخ) ، على حين ورد في إنجيل متى على وجه اليقين ، وزاد متى فأحصى (جميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلاً ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلاً ، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً) .. إن كان ذلك ، فالأمر لا يخرج على أن الاختلاف مبيتل إلى القول بأن الاجتهاد الفردي - لا التزام بما هو قائم - كان هو القاعدة عند من كتبوا الأناجيل ، وبخاصة أن إنجيل متى بدأ السلسلة تنازلياً ، ولوقا بدأ بها صاعداً إلى إبراهيم ، ولم تكد السلسلتان تلتقيان إلا في القليل .

يقابل رحمة الله الهندي بين سلسلتي النسب - في كل من متى ولوقا - فيجد ستة اختلافات :

- ١ - يُعلم من متى أن يوسف ابن يعقوب ، ومن لوقا أنه ابن هالي .
- ٢ - يُعلم من متى أن عيسى من أولاد سليمان بن داود ، ومن لوقا أنه من أولاد ناثان بن داود .
- ٣ - يُعلم من متى أن جميع آباء المسيح من داود إلى جلاء بابل سلاطين مشهورون ، ومن لوقا ليسوا سلاطين ولا مشهورين ، غير داود وناثان .
- ٤ - يُعلم من متى أن شالثيل بن يكتنا ، ومن لوقا أنه ابن نيرى .
- ٥ - يُعلم من متى أن اسم ابن زر بابل أييهود ، ومن لوقا أن اسمه ريسا ، والعجيب أن أسماء بنى زر بابل في الأصحاح الثالث من السفر الأول من أخبار الأيام ليس فيها أييهود ولا ريسا .
- ٦ - من داود إلى المسيح ستة وعشرون جيلاً ، على ما بين (متى) ، وواحد وأربعون جيلاً ، على ما بين (لوقا) ، ولما كان ما بين داود والمسيح

مدة ألف سنة ، فعلى الأول يكون فى مقابل كل جيل أربعون سنة ، وعلى الثانى خمسة وعشرون سنة ^(١) .

وكل هذا يدعو إلى أن إنجيل متى لم يكن معروفاً فى عهد لوقا ، وإلا أخذ لوقا عنه ، أو أشار إلى موضع الخلاف معه .. كما أن كل هذا يدعو إلى مزيد من الأحكام غير المقبولة ، وإلى مزيد من عدم الاطمئنان إلى الكلمة المكتوبة

يقول بوكاى : (لا شك أن نسب المسيح فى الأناجيل قد دفع المعلقين المسيحيين إلى بهلوانيات جدلية متميزة صارخة ، تكافى الوهم والهوى عند كل من لوقا ومتى) ص ١١٦ .

ومن هنا تتساقط الدعاوى التى تقول : إن (الكنيسة الجامعة رأت أن كل إنجيل من الأناجيل الأربعة يقدم ناحية خاصة من حياة المسيح ، مع اتفاقها الذى لا ينكر فى الحقائق الأساسية من سيرته) ^(٢) . لأن الاختلاف فى نسب المسيح ، أو الحديث فى نسبة المسيح إلى داود - يهدم المعبد كله ، وليس ركناً من أركانه ، لأنه ينفى عن المسيح أهم صفاته ، كما جاء فى القرآن الكريم أنه : ﴿ كلمة الله ألهاها إلى مريم ، وروح منه ﴾ ، كما ينفى شعار الأقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) ويصادره .

أما أن نعتذر بأن معرفتنا بطريقة تأليف جداول النسب فى تلك الأيام قاصرة جداً ^(٣) ، فهذا لون من الأقنعة الزائفة التى لاتستر عورة ، لأن الجداول محدّدة بحدود لا التواء فى صياغتها ، بل فى ما تهدف إليه وتنطبق به .

ونحن هنا لا نسجل مواطن قصور ، أو نحصى مأخذ ، بل نقيم الدليل

على ضرورة المراجعة والتنقيح والتهذيب .

وإذا كان (إنجيل متى يخاطب اليهود ، ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة ، وإنجيل لوقا يورد الأخبار والوصايا من الوجهة الإنسانية) - كما يقول الأستاذ العقاد ^(١) - فمن واجبنا أن نصون هذا الهدف ، بعيداً مما يذهب بالفكر مذاهب .

ثم إن [إنجيل متى ولوقا يعرضان لميلاد المسيح بواسطة الروح من العذراء مريم ، بينما مرقس لا يعرف شيئاً عن هذه الولادة العجيبة ، بل يذكر مرقس أنه « لما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه ، لأنهم قالوا إنه مختل » - (أصحاح ٣ / ١) - مما يفهم أنه لم ينظر إليه كما لو أنه ولد عن طريق معجزة ، أو أنه كان مهيباً محترماً ، والشىء الثابت أن مرقس (أصحاح ١ / ١) يذكر أن علاقة المسيح بالله جاءت عن طريق المعمودية ، ويتفق معه فى ذلك لوقا (أصحاح ٣ / ١) ويخالفهما يوحنا (أصحاح ١ و ٦) إذ يذكر المسيح كابن ليوسف ومريم ^(٢) .

(ومسألة أخرى جديرة بالملاحظة ، وهى أن القصص الخاصة بميلاده تُجمع ، أو تكاد ، على أنه كان فى بيت لحم ، لكن (متى - أصحاح ١ / ١ - ولوقا - أصحاح ٢ / ٢) - يتفردان عن سائر المراجع المسيحية القديمة بأخبار مختلفة متباينة ، فمتى يقول : إن والدى المسيح كانا يسكنان بيت لحم ، ثم هجراهما إلى مصر ، خوفاً من هيرودس ، وعاداً إلى أرض إسرائيل ثانية بعد وفاته ، لكن خوفهما من ابنه أرخيلاوس اضطرهما إلى الانتقال إلى الناصرة فى الجبل ، بينما يقول لوقا : إن سكنتهما فى مدينة الناصرة ،

(١) عبقريّة المسيح - كتاب اليوم - ١٩٥٣ - ص ١٩٤ .

(٢) اليهودية واليهودية للمسيحية - ص ١٥٨ / ١٥٩ .

(١) إظهار الحق - ص ١١٤ .

(٢) مصادر الكتاب المقدس - ص ١٩ .

(٣) شمس البر - ص ٥٤ .

إلا أنهما انتقلا إلى بيت لحم ، حيث ولد المسيح صدفة ، بينما كانت تجرى عملية التعداد فى سوريا .. وعملية التعداد غير صحيحة من الناحية التاريخية ، كما نعلم ذلك من التاريخ الرومانى .. وهناك خلاف بين متى ولوقا حول زمان ولادة المسيح ، فمتى يقول فى (أصحاح ٢ / ٢) - أنه ولد أيام هيرودوس ، بينما لوقا يذكر أنه ولد فى عهد كيرينئوس ، وهيرودوس ، توفى قبل الميلاد ، وخلفه ابنه أرخيلائوس ، وإن كان قد توفى بعد الميلاد ، إلا أنه لم يحدث فى عهده تعداد روماني لإقليم هيرودية (١) .

ويتحدث إنجيل متى عن أن أشعيا بشر بعيسى ، لكن الصيغة التى وردت فى أشعيا تبدو مقحمة ، إذ يقول باسم الرب : (يعطيكم السيد نفسه آية ، ها العذراء تحبل وتلد ابناً ، وتدعو اسمه عمانوئيل ، زبداً وعسلاً يأكمل ، متى عرف أن يرفض الشر ، ويختار الخير) - (أشعيا ٧ / ١) .

فكيف تكون (الآية) لقوم يعيشون قبل زمن وجودها بأكثر من سبعة قرون ؟ أى دور تلعبه هذه الآية فى حياتهم ، حتى تكون موضع البشرى ؟ ويورد متى البشرى فى صورة أخرى مقحمة أيضاً ، إذ يقول ملاك الرب ليوسف زوج مريم : (متلد ابناً ، وتدعو اسمه يسوع ، لأنه يخلص شعبه من خطاياهم ، وهذا كله كان لكى يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل ، هو ذا العذراء تحبل وتلد ابناً ، ويدعون اسمه عمانوئيل ، الذى تفسره الله معنا) - (متى ١ / ١) - مما يوحى بأنه لو لم يشر بعيسى من قبل لما ولد عيسى ، ويمكن أن يقال (كما قيل) ، بدلاً من (لكى يتم ما قيل) ، ويلاحظ أن اسم (عمانوئيل) لم يعرف به عيسى ، بل يسوع ، فكيف صحت البشرى ؟ .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية - ص ١٥٩ / ١٦٠ .

ونلاحظ أن تعبير (لكى يتم ما قيل) قد تكرر كثيراً ، حتى فيما لا يحتاج إلى هذا الارتباط بالتراث .. مثلاً :

(كلم يسوع الجموع بأمثال ، وبدون مثل لم يكن يكلمهم ، لكى يتم ما قيل بالنبي القائل : سأفتح بأمثال فمى ، وأنطق بمكتومات ، منذ تأسيس العالم) - (متى ١٣ / ١) .

(ولما صلبوه اقتسموا ثيابه ، مقترعين عليها ، لكى يتم ما قيل بالنبي : اقتسموا ثيابي بينهم ، وعلى لباس ألقوا قرعة) - (متى ٢٧ / ٣٥) .

كأنما القصد هو التأكيد على ربط حياة السيد المسيح بالعهد القديم ، لإثبات أنه المسيح الذى ينتظره اليهود ، حتى يقبل اليهود على الدخول فى الدين الجديد ، وتخف معاداتهم .

ولما ولد يسوع ، ذهب مجوس من المشرق إلى اورشليم ، يبحثون عنه ، بحجة أنهم رأوا نجمة فى المشرق ، وأتوا ليسجدوا له - (متى ٢ / ١) .

فإذا كانوا مجوساً لا يعرفون الله ، فكيف بهم يسجدون لنبي الله ؟ .

وكيف عرفوا أن هذا النجم خاص بيسوع ؟ .

وكيف ربطوا بين نجم فى المشرق ومولود فى بيت لحم ؟ .

وكيف أن (النجم الذى رآه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق ، حيث كان الصبي) ؟ - (متى ٢ / ٢) .

هل يمكن أن يتحدد مكان التقاء النجم بمكان فى الأرض ، وهو جرم هائل يسبح فى فلكه ، والأرض تسبح فى فلك آخر ، والبون شاسع بين النجم والأرض ؟ .

هل يلتقيان عند نقطة ميلاد طفل ١٩ .

ينقل لنا كلمنت الإسكندري (حوالى سنة ١٠٠م) أن بعض المؤرخين

يحدد هذا اليوم بالتاسع عشر من أبريل ، وبعضهم بالعاشر من مايو ، وأنه هو (كلمنت) يحدده بالسابع عشر من نوفمبر من العام الثالث قبل الميلاد .

وكان المسيحيون الشرقيون يحتفلون بمولد المسيح فى اليوم السادس من شهر يناير ، منذ القرن الثانى بعد الميلاد ، وفى عام ٣٥٤م احتفلت بعض الكنائس الغربية - ومنها كنيسة روما - بذكرى مولد المسيح فى اليوم الخامس والعشرين من نوفمبر ، ولم يكند يختتم القرن الرابع حتى اتخذ اليوم الخامس والعشرون من ديسمبر عيداً للميلاد فى الشرق أيضاً ^(١) .

أليس هذا الاختلاف فى اليوم وفى العام مما يضع أكثر من علامة استفهام أمام قصة المجوس ؟

هذا إلى أن ثمة شكاً فى مكان الولادة ، فبينما يذكر متى ولوقا أن مولد المسيح كان فى بيت لحم القائمة على بعد خمسة أميال جنوبى أورشليم ، ثم انتقلت به الأسرة إلى الناصرة فى الجليل ، إذا بمقرس لا يذكر بيت لحم ، ولا يذكر المسيح إلا باسم يسوع الناصرى ، مما دعا بعض النقاد إلى القول إن متى ولوقا قد اختارا بيت لحم ليقويا بذلك الادعاء بأن يسوع هو المسيح ، وأنه من نسل داود ، كما تتطلب ذلك النبوة اليهودية ^(٢) .

حين سأل هيرودس الملك رؤساء الكهنة وكتبة الشعب : (أين يولد المسيح) ؟ قالوا : (فى بيت لحم اليهودية ، لأنه هكذا مكتوب بالنبي) (متى / ٢) .

وتساءل : أى نبي هذا الذى كتب ، وليس فى كتب الأنبياء المدونة فى (الكتاب المقدس) ما يفيد هذا ؟ وإذا كان ثمة نبي آخر - وما أكثر أنبياء بنى إسرائيل - فلماذا لم يذكر اسمه ، ويشار إلى موضع قوله ؟ ولو

(١) ، (٢) قصة الحضارة - مج ٣ ج ٢ - ص ٢١٢ / ٢١٣ .

أن لأنبياء آخرين وحيأ أوحى إليهم ، فما علة إغفالهم ١٩ .
وما سبب تفضيل وحي على آخر ؟ .

أليس هذا مما يدعو إلى الشك فيما بين أيدينا ؟ .

أو بالحرى ادعاء إمكانية الفاعلية الإنسانية ، إثباتاً وحذفاً وتغييراً وتحريفاً لما جاء عن السماء ؟ .

أترى هذه هى الوسيلة الصحيحة لربط السيد المسيح بالعهد القديم ، أو باليهود ؟ .

ألا يكفى ارتباطه بالله لينطق بالهدى والرشاد ، دون حاجة إلى أن يتردد على الجمع الدينى ، ويستمع إلى تلاوة الكتاب المقدس ، وتنطبع فى ذاكرته الأقوال الواردة فى أسفار الأنبياء والمزامير ، فيظل يؤكد قوله بالاستناد إليها ، كأحد التلاميذ ١٩ .

*** ويستطرد متى فيقول : (حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس مسخروا به غضب جداً ، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم ، وفى كل تخومها ، من ابن سنتين فما دون ، بحسب الزمان الذى تحققه من المجوس) .

حدث خطير كهذا يمكن أن يحدث ثورة عامة ، ومع هذا لم يورده يوسيفوس وغيره من علماء اليهود الذين تتبعوا فضائح هيرودس .. ومن الناحية العقلية فإن عيون الحاكم من الجند ومن رؤساء الكهنة وكتبة الشعب كان بوسعهم - فى بلدة صغيرة كبيت لحم - أن يتبعوا خطا المجوس (الغرباء) ليعرفوا مكان الوليد ، دون حاجة إلى قتل الأطفال الأبرياء ، وتخطى حدود المدينة إلى ما حولها .. ثم إن حديث هيرودس مع المجوس لم يحمل ريبة حتى يخدعوه ، فقد قال لهم : (اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ، ومتى وجدتموه فأخبرونى لكى آتى أنا أيضاً وأسجد له) .. إنهم

يتحركون تحت سلطانه ، ويأذن منه ، لكنه الوحى الذى (أوحى إليهم فى حلم) ١١ .

هذا إلى أن التاريخ الصادق يذكر أن أم مريم عقب ولادته كانت لها قصة مع قومها حكاهما القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ فَأُتَتْ بِهِ قَوْمُهَا تَحْمِلُهَا قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّ عَبْدُ اللَّهِ آتَانِى الْكِتَابَ وَجَعَلْنِى نَبِيًّا ۖ ﴾ (١) .

أى أن أمره لم يكن سراً ، وحديث طفل فى المهد بأنه نبي لا بد أن تسير به الركبان ، ولا بد أن يجتمع له وعليه القاصى والدان .

وبضيف متى - فيما يشبه التعليق على جريمة هيرودس - فيقول : (حينئذ تم ما قيل بأرميا النبي القائل : صوت سمع فى الرامة ، نوح وبكاء ووعيل كثير ، راحيل تبكى على أولادها ، ولا تريد أن تتعزى ، لأنهم ليسوا بموجودين) ، مع أن قول أرميا خاص بحادثة نبوخذ نصر التى وقعت فى عهده ، وقتل فيها ألوف من بنى إسرائيل ، وأسر ألوف ، سيقوا إلى بابل ، فهل كان (متى) يقصد (التشبيه) ؟ إذن كانت الصياغة للخبر تختلف .

وفى (متى / ١٤) يذكر أن (هيرودس كان قد أمسك يوحنا وأوثقه وطرحه فى سجن ، من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه ، مع أن اسم زوج هيروديا كان هيرودس أيضا ، كما أورد يوسيفوس .

أخطاء كثيرة أردها متى ، مما دفع (نورتن) إلى أن يقول : (إن مترجم إنجيل متى كان حاطب ليل ، ما كان يميز بين الرطب واليابس) (٢) .

(١) مريم / ٢٧ - ٣٠ .

(٢) إظهار الحق - ص ١٥٩ .

انفرد (يوحنا) بالتبشير بنبي آخر ، وبصورة ربما كانت أوضح من تبشير أشعيا بعيسى .

يقول يوحنا على لسان يسوع :

(تمجد ابن الإنسان ، وتمجد الله فيه ، إن كان الله قد تمجد فيه ، فإن الله سيمجده فى ذاته ، ويمجده سريعاً) - (يوحنا / ١٣) - مادام الله قد مجده ، وتمجد فيه ، فماذا سيحدث من تمجيد ، ويحدث سريعاً ، إلا إذا كان التمجيد مرتبطاً بشخص آخر ، يعبر عما عبر عنه عيسى ، أو يأتى مصدقاً لما جاء به عيسى ؟ وهذا ما يركبه قول عيسى : (أنا هو الطريق والحق والحياة ، ليس أحد يأتى إلى الآب إلا بى) (يوحنا / ١٤) فإذا ربطنا الطريق بمن سيأتى ، كان عيسى بالنسبة لمن بعده كما كان يوحنا المعمدان بالنسبة لعيسى .

ولعل قوله : (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب إلى الآب فيعطىكم معزياً آخر ، ليمكث معكم إلى الأبد) - (يوحنا / ١٤) - قوله : (لأنه إن لم أنطلق لا يأتىكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم) (يوحنا / ١٦) يوضح أن المبشر به سيكون معزياً عن الرسل السابقين ، لأنه سيأتى بما جاء فى كتبهم ، ويزيد ما يصلح المجتمع البشرى كله (إلى الأبد) ، بحيث لا تكون البشرية فى حاجة إلى رسول جديد ، وموت عيسى إنما هو إشعار بالحاجة إلى من يكمل الطريق إلى السماء ، أو من السماء إلى الأرض ، (إن لم أنطلق لا يأتىكم) .. ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب - روح الحق الذى من عند الآب ينبثق - فهو يشهد لى) (يوحنا / ١٥) وهذا ما يقرره القرآن الكريم فى كثير من آيه ، فى إطار عام يشمل كل من خصهم الله بوحيه : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قَصَصْنَاهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكَلَّمَ الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجَّةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴿١١﴾ .

وفى إطار خاص : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلًا * لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ (١٢) .

ومن أجل أن (المعزى) يُصدر عما أصدر عنه عيسى وجب اتباعه ، (متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية) - (يوحنا ١٦ /

ولقد أيد بولس الرسول (يوحنا) فيما بشر به ، إذ قال : (المحبة لا تسقط أبداً ، وأما النبوات فستبطل ، والألسنة فستتهدى ، والعلم فسيبطل ، لأننا نعلم بعض العلم ، ونتنبأ بعض التنبؤ ، ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض) - (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ١٣ /

لم يكتف قول بولس بالتأييد ، بل وضح دور النبى القادم (المعزى) عن السابقين ، بأنه دور (الكامل الذى يبطل ما هو بعض) ، فهى شريعة وافية ، تغنى عما سبق ، ولا تحتاج إلى جديد .

(١) النساء : ١٦٣ - ١٦٥ .

(٢) النساء : ١٧١ - ١٧٢ .

ولعل يوحنا اللاهوتى قد رأى فيما رأى ما يمضى فى هذا الطريق ، إذ يقول : (ثم رأيت السماء مفتوحة ، وإذا قوس أبيض ، والجالس عليه يدعى آميناً وصادقاً ، وبالعادل يحكم ، ويحارب) - (رؤيا يوحنا اللاهوتى / ١٩) .

لعله أشار إلى أبرز ما اشتهر من صفات خاتم الأنبياء والمرسلين ، قبل الرسالة وبعدها ، حتى سمى الصادق الأمين .

إذن .. ما معنى أن تخلو بعض الأناجيل من البشرى التى أثبتتها القرآن على لسان عيسى : ﴿ إذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إبنى رسول الله إليكم مُصَدِّقًا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ (١١) .

وما معنى أن تصطنع الكتب المسيحية البشرى بعيسى ، ابتداء من آدم الذى بشر بمن سيعيد إلى العالم الفردوس المفقود ، حتى إن ولادة المسيح وحياته وصلبه وموته وقيامته عرفت قبل أن تحدث (١٢) ؟

كما أن ديانات الهند والفرس والصين ومصر والفلسفة اليونانية اشتركت فى التبشير به (١٣) ١٩ .

قدمت امرأة كنعانية (١٤) تسترحم السيد ابن داود ، فلم يجيبها بكلمة ، فلما حدثه تلاميذه فى ذلك ، قال : (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة) .

لكن المرأة (أمت ، وسجدت له ، قائلة : ياسيد ، أعنى ، فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب) ١١ (متى / ١٥) .

(١) الصف ٦ /

(٢) ، (٣) شمس البر - ص ١٤٠ . ١٦٩ / ١٧٢ .

(٤) فى (مرقس ٧) أنها (فى جنسها فينيقية سورية) .

هل هذا موقف من يقول : (أريد رحمة لا ذبيحة) ١٩ (متى / ٩) .
هل الرحمة تكون مرهونة بقرم دون آخرين ؟ وإذا كنا لا نرحم
الآخرين فهل نصفهم بالكلاب ١٩ .

هل نسى من كتب هذا القول عن المسيح أن راحب وراعوث فى
شجرة نسب المسيح ، وليستا إسرائيليتين ١٩ .

وكيف يتفق هذا القول مع قول عيسى لتلاميذه : (اذهبوا ، وتعلموا
جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس) ٩ - (متى /
٢٨) - وهو ما أكدته بولس بقوله : (أم الله لليهود فقط ؟ أليس للأمم
أيضاً ؟ بل ، للأمم أيضاً) - (رسالة بولس إلى أهل رومية / ٣) .

ثم .. كيف أن هذه الكنعانية تحتاج عيسى بقولها : (والكلاب أيضاً
تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها) - (متى / ١٥) - فتقيم
عليه الحجة ، ويحقق لها أملها ، فتشفى ابنتها ؟ .

أما كان أولى برسول الرحمة والمحبة والسلام أن يهتدى إلى هذا ، لا أن
تهديه امرأة (كنعانية) ١٩ .

أليس مثل هذا ما دفع ول ديورانت إلى أن يقول : (إن الإنسان ليجد
فى الأناجيل فقرات قاسية مريرة ، لا توائم قط ما يقال لنا عن المسيح فى
مواضع أخرى منها) ؟ وإلى أن يقول : (إن بعضها يبدو - لأول وهلة -
مبغافيا للعدالة ، وإن منها ما يشتمل على السخرية اللاذعة والحقن
المريسر) (١) ١٩ .

(لما قريبا من أورشليم ، وجاءوا إلى بيت فاحى ، عند جبل الزيتون ،

(١) قصة الحضارة - مج ٣ ج ٢ - ص ٢١٩ و ٢٢٤ .

حينئذ أرسل يسوع تلميذين ، قائلاً لهما : اذهبا إلى القرية التى أمامكما ،
فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها ، فحلاًهما ، واثنين بهما ، وإن
قال لكما أحد شيئاً فقولا : الرب محتاج إليهما ، فللوقت يرسلهما ، فكان
هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبي القائل : قولوا لابنة صهيون : هوذا ملكك
يأتيك وديعاً ، راكباً على أتان وجحش ابن آتان ، فذهب التلميذان ، وفعلوا
كما أمرهما يسوع ، وأتيا بالأتان والجحش ، ووضعوا عليهما ثيابهما ،
فجلس عليهما) - (متى / ٢١) .

ما السبب فى طلب الأتان والجحش ؟ لجرد أن يتحقق ما قيل ؟ ولماذا
يتحقق ما قيل ، والحاجة ليست داعية ؟ وكيف يجلس على أتان وجحش
معاً ؟ .

إن هذه الواقعة وردت فى لوقا وفى مرقس وفى يوحنا ، واختلف
إيرادها ، فلماذا ؟ .

فى مرقس ولوقا الواقعة مرتبطة بجحش فقط ، والجحش (لم يجلس
عليه أحد من الناس قط) .

وفى يوحنا لم يرسل يسوع أحداً من تلاميذه ، لكن (وجد يسوع
جحشاً فجلس عليه ، كما هو مكتوب) .

معنى هذا أن الذين كتبوا الأناجيل لم يلتزموا إلا بالصورة العامة ، ومن
خلالها اجتهدوا ، أو جاءتهم الأخبار من مصادر مختلفة ، فكتبوا دون أن
يتحروا ، وبهذا لم تكن الأناجيل وحيّاً يوحى ، بل مجرد ذكريات ، قد
تخون الذاكرة أو الوسيلة فى بعض تفصيلاتها ، مثل أن يسوع (إذ كان
راجعاً إلى المدينة جاع ، فنظر شجرة تين على الطريق ، وجاء إليها ، فلم
يجد فيها شيئاً إلا ورقاً فقط ، فقال لها : لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد ،
فبيست التينة فى الحال) - (متى / ٢١) .

هذا الحدث لم يرد فى لوقا ، ولا فى يوحنا ، مع أنه مرتبط بالواقعة السابقة .

ولقد تعجب التلاميذ : (كيف يبست التينة فى الحال ؟) ، فهل زال عجبهم حين قال يسوع : (إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون ، وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تتألون) ؟ .

أما سأل أحدهم نفسه : لماذا لم يطلب المسيح أن تثمر التينة فيأكل منها ، ويأكل الحواريون ، بدل أن يطلب موتها ولا ذنب لها ؟ .
ألا يضر هذا الحكم على الشجرة بصاحبها ، وبمن يأكلون من ثمرها ويستظلون بظلها ؟ .

ألا يخالف هذا روح شريعة عيسى ، وطبيعة معجزاته ؟ .

وما ذنب الخنازير وصاحب الخنازير ، حين أراد إخراج الشياطين من المجنون فى إنجيل (مرقس / ٥) : (فطلب إليه كل الشياطين قائلين : أرسلنا إلى الخنازير ، فأذن لهم يسوع للوقت ، فخرجت الأرواح النجسة ، ودخلت فى الخنازير ، فاندفع القطيع إلى البحر ، وكانوا نحو ألفين ، فاختنقوا فى البحر) ١١ .

من الذين (اختنقوا) ؟ الشياطين أم الخنازير أو هما معاً ؟ .

ألا تستطيع الشياطين السباحة ؟ .

أيحتمل جسم مجنون واحد ألفى شيطان ؟ .

أما كان يمكن إخراج الشياطين دون الإضرار بالخنازير ؟

إن تربية الخنازير كانت محرمة عند اليهود ، فمن جرؤ - على تربية هذا القطيع الكبير - من اليهود ، أو من يساكتون اليهود ؟ .

وبلغة اليوم أليس هذا تخريباً اقتصادياً ؟ .

وما موقف صاحب الخنازير مما حدث ؟ .

الأخبار التى ترد فى الأناجيل بصورة مختلفة قد تثير جدلاً حول قداسة هذه الأناجيل ، لأن الاختلاف يفيد حرية الحركة فى التسجيل ، أى أن الخبر المقدس يصبح كغيره مما يجرى فى حياة الناس ، لا يختلف إلا فى كونه يرتبط بشخصية ذات طابع خاص ، والشخصية لا تستطيع أن تضفى عليه من خصوصيتها إلا إذا ثبت صدقه .

مثال ذلك ما جاء فى الأناجيل عن تأمر يهوذا على السيد المسيح ، وما ورد من تعاليم السيد المسيح فى (متى / ١٣) ، وفى (مرقس / ٤) ..
فثمة زيادة ونقص وتقديم وتأخير ، مما يفيد أن (الوحي) ليس مدوناً كما أوحى به .

هذا إلى الاختلاف فى وقت العشاء الأخير ، هل هو قبل عيد الفصح ، أو يومه ، مع أهمية عيد الفصح والعشاء الأخير فى حياة المسيحيين .

وفى هذا اليوم يورد يوحنا خطبة للسيد المسيح تحتل أربعة أصحاحات (١٤ - ١٧) من إنجيله ، وهى خطبة تتضمن آخر إرشادات المسيح لتلاميذه الذين سيتركهم يحملون رسالته من بعده ، على حين لا تشير الأناجيل الأخرى إلى هذه الخطبة ، كما ينفرد إنجيل يوحنا بغسل المسيح أقدام تلاميذه فى بداية العشاء .

كذلك الشأن فى قصة بطرس ، وصياح الديك ثلاثاً ، مع إنكار بطرس معرفة المسيح .. فقد تعدد السائلون فى (متى / ٢٦) ، وتعدد السؤال من سائل واحد ، وهو جارية رئيس الكهنة فى (مرقس / ١٤) .

والنسوة اللاتى شهدن صلب المسيح وقيامته فى (متى) ، ليست فيهن (سالومة) الواردة فى (مرقس) .

ولعله يقال إن الحدث العظيم أحدث اضطراباً بين التلاميذ ، فترأى

الاختلاف فى أخبارهم^(١) .. لكن التدوين لم يتم عقب الحدث ، والفرصة كانت مهيأة للتحرى والدقة ، وبخاصة أن هذا الحدث العظيم سيكون مدعاة الريبة والاتهام ، وكان ينبغى الحرص فى تدوين ما حدث بصورته ولفظه ، أما أن نجد خاتمة أنجيل (متى ومرقس ولوقا) عباراتها مختلفة ، مع أنها من وحى عيسى بعد قيامته ، فهذا يحدث فى النفس أشياء عن طبيعة التدوين .

وأسماء الاثنى عشر رسولاً فى (متى / ١٠) يختلف فيها اسم أحدهم ، وهو (لبأوس الملقب تداوس) عما ورد فى (لوقا / ٦) ، إذ ورد اسم يهوذا أخى يعقوب بن علفى .

وكانت نهاية يهوذا الأسخريوطى فى (متى / ٢٧) أنه خنق نفسه ، على حين خرّ على وجهه ، وانشق بطنه ، فانسكبت أحشاؤه كلها ومات ، فى (أعمال الرسل / ١) .

وقصة الخاطفة التى (وقفت عند قدميه باكية ، وابتدأت تبيل قدميه بالدموع ، وكانت تمسحها بشعر رأسها ، وتقيل قدميه ، وتدهنهما بالطيب) - (لوقا / ٧) - لم ترد فى (متى ومرقس) .. ويعلل هذا أوغسطينوس بقوله: إن البعض من ذوى الإيمان الضعيف قد نزعوها من نسخهم ، خائفين - كما أظن - من اتخاذ دليل منها على جواز هذه الخطيئة^(٢) .

يلاحظ أن هذا الخبر أقرب إلى الافتعال ، إذ كيف يترك الرسول امرأة تبيل قدميه بالدموع ، وتقيلهما ، وتمسحهما بشعرها ، وتدهنهما بالطيب ، ويستسلم لهذا الفعل ، دون أن يبدي تخرجاً ، وهو فى بيت (قريسي) ،

(١) شمس البر - ص ٥٤ .

(٢) للصنبر السابق - ص ٦٥ .

مكتفياً بأن يصرح أخيراً بأن (قد غفرت خطاياها الكثيرة ، لأنها أحبت كثيراً) .. أحبت من ؟ أحبت من أخطأت معهم ؟ أم أحبت الله ؟ ومنذ متى كان حبها لله حتى يوصف بالكثرة ؟ أم أنها أحبت الناس جميعاً ؟ .

وإذا كان إنجيل (مرقس) لم يزد شيئاً على ما جاء فى (متى) ، فإن إنجيل (لوقا) زاد قصة زكريا ، ولم يتحدث عن ذهاب يسوع إلى مصر ، وحديث عيسى فى المهد لم يرد فى الأنجيل كلها ، وانفرد القرآن الكريم بذكره : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد ، وكهلاً ﴾^(١) .

كما انفرد (لوقا) بالتعبير عن الله بلفظ (الآب) ، وتبعه (يوحنا) ، مما يفيد أن الالتزام ليس مرهوناً بشيء كامل الحلقة ، تام التكوين .. ولعل فى مقدمة إنجيل (لوقا) ما يوحى بهذا المعنى ، (إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا ، كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة) .. فإذا رأينا أن هؤلاء (الكثيرون) مضوا فى تأليف القصص أكثر من مائة عام ، قبل تدوين أول إنجيل - أدركنا إلى أى حد ترتبط عبارة الإنجيل بالوحى .

وفى (أعمال الرسل / ٧) أخبار عن موسى - عليه السلام - لم ترد إلا فى القرآن الكريم ، وبألفاظ القرآن الكريم تقريباً فى بعض التعبيرات ، فكيف نفسر هذا ١٢ .

أورد إنجيل لوقا عبارتين متناقضتين على لسان يسوع :

قال يوحنا : (يامعلم ، رأينا واحداً يخرج الشياطين باسمك فمنعناه ، لأنه ليس يتبع معنا ، فقال له يسوع : لا تمنعوه ، لأن من ليس علينا فهو معنا) - ص ٩ - على حين أنه ورد فى تعاليمه (من ليس معى فهو على) - ص ١١ .

(١) المائدة / ١١٠ .

ولما كان المعنى الأول مرتبطاً بروح الدعوة ، فكيف نفسر المعنى الآخر الذى يشبه السياسة الأمريكية التى كان يقودها فوستر دالاس ؟ .

تعبير آخر لا يتلاءم مع شريعة التسامح :

(إن كان أحد يأتى إلى ، ولا يبغض أباه وأمه وأمرته وأولاده وإخوته وأخواته ، حتى نفسه أيضاً ، فلا يقدر أن يكون تلميذاً) - (لوقا / ١٤) .

طبعاً المقصود أن يكون خالصاً لله ، لكن العبارة توحى بمعان ليست من الدين فى شيء ، مردّها لفظ (يبغض) على حين يتمثل المعنى السماوى فى قول الله تعالى : ﴿ وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفًا وتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١) .

بهذا السمو فى معاملة الآباء يحتفظ الإنسان بأنبل العواطف ، وأرقى الواجبات ، ويحمى الأسرة من التمزق ويساعد على إصلاح ما فسد ، عن طريق المعاشرة الطيبة ، وبرّ الوالدين .

** وفى الوقت الذى يقول فيه السيد المسيح : (ما جئت لأنقض ، بل لأكمل) ، اعترافاً منه بما جاء به الرسل السابقون ، وبخاصة موسى ، نجده يقول : (جميع الذين أتوا قبلى سراق ولصوص) - (يوحنا / ١٠) - فكيف !؟ .

مهما قلنا فى أنبياء بنى إسرائيل ومتنبئهم ، فلا يمكن الجمع - على السواء - فى إطار السرقة واللصوصية !! .

** وجاء فى (أعمال الرسل / ٧) :

(نزل يعقوب إلى مصر ، ومات هو وأبائنا ، ونقلوا إلى شكيم ،

(١) لقمان / ١٥ .

ووضعوا فى القبر الذى اشتراه إبراهيم بثمان فضة من حور أبى شكيم) ١١ .
والحقيقة أن يعقوب هو الذى اشترى هذه الأرض ، أما إبراهيم فقد اشترى من عفرون الحثى حقلاً ومغارة ودفن فيها زوجته سارة - (تكوين / ٢٣) .

** بعد كسرة الملوك كان فى استقبال إبراهيم (ملكى صادق ملك شاليم ، أخرج خبزاً وخمراً ، وكان كاهناً لله العلى ، وباركه ، وقال : مبارك أبرام من الله العلى ، مالك السموات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك ، فأعطاه عشراً من كل شيء) - (تكوين / ١٤)

وفى (الرسالة إلى العبرانيين / ٧) كتب تيموثاوس : (ملكى صادق هذا ، ملك شاليم ، كاهن الله العلى ، الذى استقبل إبراهيم راجعاً من كسرة الملوك ، وباركه ، الذى قسم له إبراهيم عشراً من كل شيء ، المترجم أولاً ملك البر ، ثم أيضاً ملك شاليم ، أى ملك السلام ، بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب ، لا بداية لبام له ، ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه بابن الله ، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد) .

من أين جاء تيموثاوس بهذه الصفات التى تجعل ملكى صادق الكاهن إلهاً ، لا أول له ، ولا آخر ، ولا أب ولا أم ، أليس بهذه الصفات يكون أفضل من يسوع ابن الإنسان الذى ولدته العذراء مريم ؟!

وإذا كان الله وعيسى وروح القدس شيئاً واحداً ، فما موضع ملكى صادق من هذا الثلاث ؟!

يبدو أن تيموثاوس اطلع على ما جاء فى (المندراش) اليهودى من أن ملكى صادق كان فى سفينة نوح ، وجرى حديث بين إبراهيم وملكى صادق ، عما حدث فى السفينة ، فذهب به الخيال مذهباً بعيداً ، مع أن تاريخ يوسيفوس لم يزد شيئاً على ما جاء فى التوراة (١) .

(١) العقاد - أبو الأنبياء - ص ٥٢ .

****** يقول الدكتور فؤاد حسنين على : إن الأناجيل الثلاثة - متى ولوقا ومرقس - تتحدث عن يوم وفاة المسيح بأنه قبض عليه ليلة عيد الفصح، وفي الصباح أمر يلاطس بصلبه ، أى فى ١٥ نيسان ، وإذا علمنا أن أول أيام عيد الفصح يتدنى من الساعة السادسة من مساء اليوم الخامس عشر ، وأن هذا اليوم يعتبر كيوم السبت ، أعنى مقدساً ، ولا يجوز أن تنظر فيه قضية ، أو يصدر فيه حكم ، أدركنا ضعف رأى الأناجيل الثلاثة ، بينما ما ذكره يوحنا أن القبض والصلب يوم ١٤ تاريخ معقول ، وإن كان هناك طعن يمكن توجيهه إليه ، وهو فى أى عام من الأعوام كان أول عيد الفصح يوم ١٤ و ١٥ نيسان؟ هذا ما نعجز عن الإجابة عليه (١) .

ويلاحظ أن إنجيل لوقا يصدر عن صعود المسيح قولاً يناقض ما يقوله (أعمال الرسل) التى سلم المتخصصون أنه كاتبها ، وهى جزء متمم للعهد الجديد ، إذ يحدد فى إنجيله صعود المسيح بيوم الفصح ، ويحدده فى (الأعمال) بعد ذلك بأربعين يوماً .

كما يلاحظ أن وصف يوم القيامة انفراد به (متى / ٢٧) فى صورة خيالية ، تذكر أن (حجاب الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى أسفل ، والأرض تزلزلت ، والصخور انشقت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقيدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة ، وظهروا للكثيرين) .

فلماذا لم يرد هذا الخبر فى الأناجيل الثلاثة الأخرى ، مع أن (الجميع متفقون على أن متى قد كتب إنجيله اعتماداً على مصادر مشتركة بينه وبين مرقس ولوقا ، وأن متى استخدم بشكل واسع إنجيل مرقس الذى لم يكن أحد حوارى المسيح) (٢) ..

من أين إذن جاء متى (بمظاهرة) القديسين هذه ١٩ .

(١) اليهودية واليهودية المسيحية - ص ١٦٦ / ١٦٧ .

(٢) موريس بوكاي - ص ٨١ / ٨٢ .

ألا يوضع فى الاعتبار حدوث هذا الصعود لموسى وأخنوخ وأليشع وأشعيا ، وأن انتقال (القديس) بجسمه وحياته إلى السماء من الأفكار الشائعة المألوفة بين اليهود ، كما يقول ول ديورانت (١) ؟ .

ظاهرة لافتة - سبقت الإشارة إليها فى الفصل الثامن - أن من جاءوا بعد موسى - عليه السلام - حرص كتابهم على أن يجرؤوا على أيديهم معجزات جرت على أيدي الأنبياء السابقين .

ولقد تكرر مثل هذا مع من جاءوا بعد عيسى ، عليه السلام .

(بطرس) يلتقى برجل كسيح (أعرج من بطن أمه) ، فيقول له : (ليس لى فضة ولا ذهب ، ولكن الذى لى فأياه أعطيك ، باسم يسوع المسيح الناصرى قم ، وامش) ، وفى الحال (تشددت رجلاه وكعباه ، فوثب ووقف وصار يمشى) - (أعمال الرسل / ٣) .

(وجرت على أيدي الرسل آيات وعجائب كثيرة فى الشعب) - (أعمال الرسل / ٥) .

****** فى (أعمال الرسل / ٥) حنانيا (باع ملكاً ، واختلس من الثمن ، وامرأته لها خبر ذلك ، وأتى بجزء وضعه عند أرجل الرسل) ، أى أن الرجل لم يخطئ ، لأن المال ماله ، ولأنه أراد أن يتقرب إلى الله بهذا المال ، عن طريق الرسل ، وزوجه على علم بكل هذا .. ومع ذلك سقط حنانيا ، ومات ، لأن الشيطان ملأ قلبه بالكذب ، واختلس من ثمن الحقل !! أى أنه أخطأ فى حق الله !! ولو أن هذا حدث ، فهل يسقط الأثم ميتاً ، وتكون المعجزة ١٩ أم أن الرجل أصيب بصدمة ، حين فوجئ بأن برّه صار إثمًا ، وطاعته صارت معصية ، فتوقف قلبه عن العمل ، وسقط ميتاً ،

(١) قصة الحضارة - مج ٣ - ج ٣ - ص ٢٤٠ .

وماتت كذلك زوجته ١٢ أليكون السبب أنه باع حقله ، والتفريط فى الأرض كالتفريط فى العرض ١٢ .

** (كانوا يحملون المرضى خارجا فى الشوارع ، ويضعونهم على قرش وأسرة ، حتى إذا جاء بطرس يخيم ولو ظله على أحد منهم ، واجتمع جمهور المدن المحيطة إلى اورشليم ، حاملين مرضى ، ومعذبين من أرواح نجسة ، وكانوا يبرءون جميعهم) - (أعمال الرسل / ٥) .

هكذا تبراُ الجموع بمجرد أن يخيم ظل بطرس عليها .. أهو العامل النفسى أيضاً ؟ بسبب الثقة ؟ بسبب الإيمان القوى ؟ أم هى آفة الخيال الواسع ١٢ .

** ألقى الكهنة (أيديهم على الرسل ، وضعوهم فى حبس العامة ، ولكن ملاك الرب فى الليل فتح أبواب السجن ، وأخرجهم) - (أعمال الرسل / ٥) .

وكذلك فعل ملاك الرب مع بطرس فى سجن هيرودس - (أعمال الرسل / ١٢) - ومع بولس فى فيلبى - (أعمال الرسل / ١٦) .

قد يقول قائل : لماذا يكون الإفراج ليلاً ؟ طبعاً العمل الفدائى ليس وارداً ، لكن حتى لا يرى ملاك الرب ، أو حتى لا تهتز السنن الكونية فى أذهان الناس ، فيصابوا بالزلزال الذى يمزق واقعهم ، وإن كان فى إبراء المرضى - بصورة جماعية ، أمام جموع أهل المدن - ما يعدّ النفوس لتقبل كل خارقة ، إذ لم يعد للسنن الكونية قانون ثابت مطرد 11 .

أليس (كثيرون من المغلوجين والعرج شُفوا) على أيدي فيلبس بمدينة السامرة ؟ (أعمال الرسل / ٨) .

ألم يعمد فيلبس الخصى : (ولما صعدا من الماء خطف روح الرب فيلبس ، فلم يبصره الخصى أيضاً ، وذهب فى طريقه فرحاً ، وأما فيلبس

فوجد فى أشدود) ١٢ - (أعمال الرسل / ٨) .

وكان (شاول) يقتل (تلاميذ الرب) ، فظهر له المسيح وآله ، فكان (وهو مفتوح العينين لا يبصر أحداً .. وقد رأى فى رؤيا رجلاً اسمه حنانيا داخلياً وواضعاً يده عليه لكى يبصر) .. لكن حنانيا اعترض على شفاء رجل يوثق جميع الذين يدعون باسم الرب . (فقال له الرب : اذهب ، لأن هذا لى إثناء مختار ، ليحمل اسمى أمام أم وملوك بنى إسرائيل) ، فما كاد حنانيا يضع يده على شاول حتى (وقع من عينيه شيء ، كأنه قشور ، فأبصر فى الحال) - (أعمال الرسل / ٩) .

(وكان يجلس فى لسترة رجل عاجز الرجلين ، مقعد من بطن أمه ، ولم يمس قط) ، فقال له بولس (بصوت عظيم : قم على رجليك منتصباً ، فوثب ، وصار يمشى) - (أعمال الرسل / ١٤) .

وفى أفسس ، وجد بولس اثنى عشر تلميذاً ، (ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبئون) - (أعمال الرسل / ١٩) .

(وكان يؤتى عن جسده - بولس - بمناديل أو مآزر إلى المرضى ، فتزول عنهم الأمراض ، وتخرج الأرواح الشريرة) - (أعمال الرسل / ١٩) .

وفى يافا مرضت (طابيثا) وماتت ، وأرسل أهلها فى طلب بطرس من لُدة (اللد) ، فجاء (وجثا على ركبتيه ، وصلى ، ثم التفت إلى الجسد ، وقال : طابيثا ، قومى ، ففتحت عينها ، ولما أبصرت بطرس جلست ، فناولها يده ، وأقامها) - (أعمال الرسل / ٩) .

ودعا (شاول) على سرجيوس بولس : (الآن هوذا يد الرب عليك ،

فتكون أعمى لا تبصر الشمس إلى حين ، ففي الحال سقط عليه ضباب وظلمة ، فجعل يدور ملتصقا من يقوده بيده) - (أعمال الرسل / ١٣) .
خوارق عديدة من أجل الحرية ، ومن أجل محاربة المرض ، ومن أجل إحياء الموتى .. ولا تعليق !!

نختم هذه السياحة الطويلة بهذا الخبر :

(إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان ، واحد من الجارية ، والآخر من الحرة ، ولكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد ، وأما الذى من الحرة فبالموعد ، وكل ذلك رمز ، لأن هاتين هما العهدان : أحدهما من جبل سيناء ، والوالد للعبودية الذى هو هاجر ، لأن هاجر جبل سيناء فى العربية ، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة ، فإنها مستعبدة مع بنيتها ، وأما أورشليم العليا التى هى أمتنا جميعاً فهى حرة ، لأنه مكتوب : افرحى أيتها العاقرة التى لم تلد ، اهتفى واصرخى أيتها التى لم تتمخص ، فإن أولاد الموحشة أكثر من التى لها زوج ، وأما نحن - أيها الإخوة - فنظير إسحق ، أولاد الموعد ، ولكن ، كما كان حينئذ الذى ولد حسب الجسد يضطهد الذى حسب الروح ، هكذا الآن أيضاً ، لكن ماذا يقول الكتاب : اطرّد الجارية وابنتها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة) - (رسالة بولس إلى أهل غلاطية / ٤) .

خليط من المفاهيم الخاطئة والعصبية الحاقدة ، دون مبرر ، إلا أن نقول إنها كتبت بيد صهيونية ، إذ كيف يكون أولاد إسماعيل ملعونين بالعبودية ؟ .

ولماذا كان أولاد إسحق مولودين حسب الروح ؟ .

أليس إسماعيل بكر إبراهيم وابن شبابه ؟ .

ألا نخرف مع المخرفين ، فنقول ، إن إسحق ابن شيخين وهن عظمهما ، فلم يرث إلا آثار الشيخوخة ؟ .

وإذا كانت المسيحية (للأمم جميعاً) - كما قال بولس فى رسالته إلى أهل رومية - فكيف لا تخلص المسيحية العرب - أبناء هاجر - من العبودية ١٩ .

أليست (الحرية التى حررنا المسيح بها) حقاً للعرب كذلك ١٩ .

١١- إنجيل برنابا .. لماذا ؟

برنابا أحد حواربي السيد المسيح ، الذين شهدوه ، وماروا خلفه ، وعملوا على نشر دعوته من بعده ، وكان هو الذى قدم بولس إلى المجتمع المسيحى .

يشير صاحب (قصة الحضارة) إلى أن برنابا وقف إلى جانب بولس فى محنته من المسيحيين واليهود ، على السواء ، وقدم له المعونة ، (وطلب إليه أن يساعده على خدمة الدين فى أنطاكية ، وأخذ الرجلان يعملان معاً ، فهديا كثيراً من الناس ، ثم رحل الرجلان إلى قبرص للتبشير بالدين الجديد ، ممثلين لرؤساء الكنيسة ^(١) ، ثم ركبا السفينة من يافوس إلى برجا فى بيفيلية ، واجتازا طرقاً جبلية وعرة ، تعرضا فيها للخطر ، حتى وصلا إلى أنطاكية فى بسيديا Pisidia ، وحملوا الإنجيل إلى دربي Derbe ، ثم عادا بالطريق نفسه إلى برجا ، وأبحرا منها إلى أنطاكية السورية) .

أكثر من خمس سنوات ، ورسولا المسيحية فى صحبة حميمة ، مخلصين فى نشر الدين الجديد ، وما لبث أن اختلف الرسولان ، فقام بولس برحلته التبشيرية الثانية وحده سنة ٥٠ م ، واختفى برنابا فى موطنه بجزيرة قبرص ، ولم يعد له ذكر فى التاريخ ^(٢) .

كان لا بد من هذا الاختلاف ، وكان لا بد من اختفاء برنابا ، بعد اشتهاى أمر بولس ، ذلك بسبب ما داغا إليه بولس من ألوهية المسيح ، وبما روج من تكفير صلب المسيح عن خطيئة آدم ، وفتح أبواب الفردوس أمام المؤمنين به ، بعد أن كانت مغلقة بسبب الخطيئة ، وبسط التشريع اليهودى ، حتى اقتصر على أربعة محرمات : (ماذبح على النصب ،

الدم ، المخنوق ، الزنا) ، وأباح ما عدا ذلك ، حتى الامتناع عن الختان ، وحتى سجل النجاسات التى عرف بها التشريع اليهودى .. هذا على حين كان برنابا يرى فى المسيح إنساناً رسولاً ، ويرى أن إسماعيل بن إبراهيم هو الذبيح ، لا إسحق ، وأن يسوع لم يصلب ، بل رفع إلى السماء ، وأن الذى صلب هو يهوذا الخائن الذى شبه به ، وأن المسيح المنتظر الذى تحدث عنه العهد القديم هو (محمد) لا يسوع .

وترتب على هذا الخلاف أن أغفلت المسيحية دور برنابا ، بل حاربته ، وحذفت اسمه من الأنجيل المعترف بها .

وإذا أخذنا بما جاء فى دائرة المعارف الفرنسية من أن إنجيل كل من مرقس ويوحنا من وضع بولس ، أدركنا سر هذا الإغفال ، إذ إن معظم الكتابات المسيحية سيطر عليها بولس وأتصاره من بعده ، ولم يكذب يبعث برنابا من جديد إلا فى القرن الثامن عشر ، حين عشر سنة ١٧٠٩ م على نسخة إيطالية من إنجيل برنابا محفوظة فى أمستردام ، وأهديت إلى البرنس (أيوجين سافوى) الذى حفظها سنة ١٧٣٨ م فى مكتبة البلاط الملكى فى فيينا ، كما عثر على نسخة أسبانية قديمة العهد فى أوائل القرن الثامن عشر ، ترجمت إلى الإنجليزية ، بواسطة المستشرق (سايل) والدكتور (منكهوس) أحد أعضاء الكلية الملكية فى أكسفورد ، وترجمت أيضاً النسخة الإيطالية إلى الإنجليزية ، ووجد أنها تطابق - تقريباً - الترجمة الخاصة بالنسخة الأسبانية .

وقد ترجم هذا الإنجيل عن الإنجليزية الدكتور خليل سعادة سنة ١٩٠٨ م .

ولما كان النص المنقول إلى العربية يتضمن مفاهيم عربية إسلامية ، فقد ذكر المترجم أنه (لم يرد ذكر لهذا الإنجيل فى كتابات مشاهير الكتاب المسلمين ، سواء فى الأعصر القديمة أو الحديثة ، حتى ولا فى مؤلفات من

(١) انظر (أعمال الرسل / ١٥) .

(٢) قصة الحضارة - مج ٣ - ج ٢ - ص ٢٥٦ / ٢٥٣ .

انقطع منهم إلى الأبحاث والمجادلات الدينية ، مع أن إنجيل برنابا أمضى سلاح لهم في تلك المناقشات ، وليس ذلك فقط ، بل لم يرد ذكر لهذا الإنجيل في فهارس الكتب العربية القديمة عند الأعراب والأعاجم ، أو المستشرقين الذين وضعوا فهارس لأندر الكتب العربية ، من قديمة وحديثة (ص (ط) .

فمن أين إذن جاء هذا التوافق مع الفكر الإسلامى ؟ .

يقول المترجم : (الذى أذهب إليه أن الكاتب يهودى أندلسى اعتنق الدين الإسلامى بعد تنصره واطلاعه على أناجيل النصارى .. لأنك إذا أعملت النظر فى هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إماماً عجيباً بأسفار العهد القديم ، لا تكاد تجد له مثيلاً بين طوائف النصارى إلا فى أفراد قليلين من الإخصائيين الذى جعلوا حياتهم وفقاً على الدين ، كالمفسرين) .

(.. وما يعزز هذا رأى أن هذا الإنجيل يتضمن كثيراً من التقاليد التلمودية التى يتعذر على يهودى معرفتها ، وفيه أيضاً شيء من معانى الأحاديث والأقاصيص الإسلامية الشائعة على ألسنة العامة ، ولا سند لها من كتب الدين ، ولا يتأتى لأحد الاطلاع على مثل هذه الروايات إلا إذا كان فى بيئة عربية) - ص (ي) .

ثم إن (نحو نصفه أو ثلثه - على الأقل - يتفق مع مصادر أخرى غير التوراة والإنجيل والتلمود والقرآن ، إذ فيه تفاصيل ضافية الذيل ، لم يرد لها ذكر فى الأناجيل إلا على طريق الاقتضاب ، وليس لبعضها ذكر بالمرّة ، وإن على كثير من هذه الزيادات صفة القدمية ، ويذكر التاريخ أمراً أصدره البابا جلاسيوس الأول الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ م يعدد فيه أسماء الكتب المنتهية عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى « إنجيل برنابا » ، فإذا صح ذلك كان هذا الإنجيل موجوداً قبل ظهور نبي المسلمين بزمن طويل ، وهو دليل على أن هذا الإنجيل لم يكن حينئذ لا بساً هذا

الثوب القشيب الذى يرفل فيه الآن) - ص (ل) .

وهذا يعنى أن إنجيل برنابا تداولته أقلام كثيرة .. فمن ناحية المحتوى نجد أفكاراً يونانية ، وأخرى إسلامية ، بالإضافة إلى دراسة جيدة لما جاء فى العهدين القديم والجديد .. ومن ناحية الشكل نجد فصولاً معنونة ، وعناوين مكررة ، وفصولاً بلا عناوين ، والعناوين جملة تأخذ تقليداً إسلامياً بقلم غير عربى .

لهذا آتت ألا يكون هذا الإنجيل أحد مصادر الدراسة السابقة ، ولا أحد مراجعها .

*** والناظر فى هذا الإنجيل يجد إلحاحاً على صلة برنابا بالمسيح ، فهو يقول فى الفصل العاشر : (ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر - كما أخبرنى بذلك نفسه - صعد إلى جبل الزيتون ... ولقد قال لى : صدق يا برنابا أنى أعرف كل نبي ، وكل نبوة ، وكل ما أقول إنما قد جاء من ذلك الكتاب) .. يشير إلى كتاب قدمه جبريل إلى يسوع .

وفى الفصل الرابع عشر : (وانتخب اثنى عشر سماعهم رسلاً ، منهم يهوذا الذى صلب .. وبرنابا الذى كتب هذا) ، وحذف توما وسمعان ، مع مالهما من شأن فى العقيدة والتاريخ المسيحى ، وذكر تدّوس معه فى مكانيهما .

وفى الفصل التاسع عشر يقول يسوع : (لا تأسف يا برنابا ، لأن الذين اختارهم الله قبل خلق العالم لا يهلكون ، نهلك لأن اسمك مكتوب فى سفر الحياة) .

وفى الفصل الحادى والعشرين بعد المائتين (التفت يسوع إلى الذى يكتب ، وقال : يا برنابا ، عليك أن تكتب إنجيلى حتماً ، وما حدث فى شأنى مدة وجودى فى العالم ، واكتب أيضاً ما حلّ بيهوذا ، ليزول انخداع المؤمنين ، ويصدق كل أحد الحق) .

هكذا قدم برنابا نفسه إلى قرائه ، مؤكداً قوة صلته بالسيد المسيح ، واختصاصه بكتابة الإنجيل ، كأنما يرد على أولئك الذين صادروا إنجيله ، وحكموا على صاحبه باللعنة .

** كثير من الموضوعات التي طرحها إنجيله دليل قوى على أن هذا الإنجيل تحول إلى لون من التراث الإنساني العام ، وإن كان في صميمه مسيحياً .

ونكتفى في هذا الإطار المحدود بإلقاء الضوء على أبرز الملامح الفكرية (العقائدية) الواردة في هذا الإنجيل .

أ - الشيطان :

في الفصل الخامس والثلاثين يتناول موقف الشيطان من الإنسان في ثلاثة مواقف ، أقرب إلى أن يكون تناولاً فلسفياً .

يجيب عن سؤال : هل كان سقوط الشيطان عصياناً لله أو كبرياء ؟ فيقول على لسان الشيطان :

(يارب ، إننا روح ، ولذلك ليس من العدل أن تسجد لهذه الطينة) . ولما قال ذلك أصبح مخوف المنظر ، فتضاعف (ظلم الله) له ولهذا قال متحدياً :

(يارب ، إنك جعلتني قبيحاً ظلاماً ، ولكنني راض بذلك ، لأنني أروم أن أبطل كل ما فعلت) .

وهذه الجراءة شجعت أتباعه على المغالبة في التحدى ، فالأتباع دائماً - كما يقول المثل ... ملكيون أكثر من الملك .. لهذا قالوا :

(لا تدع رياً ، ياكوكب الصبح ، لأنك أنت الرب) .

لكن الرؤوف الرحيم عدل هؤلاء الأتباع المندفعين في عصيانهم ، ودعاهم إلى الجادة ، إلى تحكيم عقولهم ، فقال :

(توبوا واعترفوا بأنني أنا خالفكم) .

وكان استمراء العصيان أحب من الطاعة التي تكبح الجماح ، وتقيد المسيرة ، فأجابوا :

(إننا نتوب عن مجودنا لك ، لأنك غير عادل ، ولكن الشيطان عادل وبرىء ، هو ربنا) .

إنهم يقلبون الحقائق ، وسيلة إلى تركية نفوسهم ، وتبرير موقفهم ، إمعاناً في الضلالة ، ولجأجاً في الحيرة ، واضطراباً في أحبولة الانخداع بالباطل .

بهذا صور (برنابا) الضعف الإنساني الذي يتمثل في تزيين الشهوات ، والاعتزاز بالإثم ، والاعتزاز بالشرور ، والاندفاع إلى الهاوية في خطوات الشيطان التي وضحها القرآن الكريم بقوله : ﴿ إنه يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾^(١) ، فهو ينتقل بالإنسان الذي اتخذ إلهه هواه من السوء ، إلى الفحشاء ، إلى الكفر بخالقه وعبادة الأوثان ، وأخطر الأوثان هو ذات المرء ، والالتفاف حول الذات أخطر العبادات .

** وفي الفصل الأربعين يعالج الكاتب طبيعة الجرم الإنساني ، عن طريق شهوة الفرج التي يرمز إليها التراث الإنساني بالحية ، فالشيطان يصل إلى الإنسان ، ويسيطر عليه ، عن طريق هذه الشهوة ، لهذا يقول الشيطان للحية : (إنك كبيرة ، فافتحي فاك ، فأدخل في بطنك ، فمتى دخلت الجنة ضمعتني بجانب هاتين الكتلتين من الطين اللتين تمشيان على الأرض) .

لا شك في أن التعبير بالكتلتين من الطين عن آدم وحواء يمثل الاستهانة والقدرة على التسخير للخطيئة ، فإذا قلنا إن الحية رمز لبعض

(١) البقرة : ١٦٩ .

التذكير فقد أصبحت كتلتنا الطين من جسد المرأة أمراً لا يحتاج إلى بيان .

ولما كان ارتكاب الإثم يبدأ بقدر من التردد بسبب من الفطرة الطيبة ، فإن حجاج الباطل تأخذ طريق التعمية والتشويه والافتراء : (يجب أن تعرفي أن الله شرير وحسود ، لذلك لا يحتمل أنداداً ، ولكنه يستعيد كل أحد ، وهو إنما قال لكما ذلك لكيلا تصيرا نذنين له ، ولكن إذا كنت وعشيرك تعملان بنصيحتي فإنكما تأكلان من هذه الأنمار كما تأكلان من غيرها ، ولا تلبثا خاضعين لآخرين ، بل تعرفان الخير والشر كالله ، وتفعلان ما تريدان ، لأنكما تصيران نذنين له) .

إنه يركز على الكبرياء الزائفة إلى جوار الإغراء المثير بالقدره على (الخلق) : أو الإنجاب ، والإنجاب هو السبيل إلى معرفة وممارسة الخير والشر ، لأن الخير والشر لا يكونان إلا في مجتمع من (البشر) ، يسيطر عليه الغرائز ، وتحركه المنافسة .

** وفي الفصل الحادى والخمسين يحاول العودة بالشيطان إلى طريق التوبة والصلاح ، لكنه لا جدوى من الموعظة الحسنة ما لم تجد تربة صالحة ، فالتغيير لا يأتى من الخارج : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾^(١) ، وعلى هذا الأساس القرآنى يقول يسوع : (إنى عطفت على الشيطان لما علمت بسقوطه ، وعطفت على الجنس البشرى الذى يفتنه ليخطئ) ، فدعا الله سبحانه أن يرحم الشيطان بمساعدته على التوبة ، فقال الله : (يسوع ، انظر فإنى أصفح عنه ، فاحمله على أن يقول فقط : أيها الرب ، إلهى ، لقد أخطأت فارحمنى) .

لكن الشيطان المريد « عبس ويسر » ثم أدبر واستكبر » ، وقال : (إنى بمسرة أقبل المصالحة ، إذا قال الله لى هاتين الكلمتين) .

هكذا تصور (الكاتب) مدى سيطرة الشر على صاحبه ، ومن أجل

توضيح هذه الفكرة الفلسفية ساق قصة إيمان إبراهيم - عليه السلام - ، وإصرار أبيه على الكفر ، فى أربعة فصول متتالية (ص ٣٥ - ٤٣) .

ومن أجل تعميق حقيقة الإيمان ، وبيان حلاوة الطهارة النفسية ، أورد صوراً مختلفة لهذه القيمة الإنسانية السماوية مصوغة صياغة الحكمة أو الصورة الأدبية .

يقول فى الفصل الثالث بعد المائة : (ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقتة النفس ، ولا يبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة) .

لكن ، ألا تتحقق هذه الخطيئة دون إرادة منا ؟ أليست قدراً مقدوراً ؟

يجيب فى الفصل العاشر بعد المائة : (إنكم لا تتألمون ما لا تشتنون ، إن الله لقادر - إذا اشتبهتم الطهارة - أن يجعلكم طاهرين فى أقل من طرفة عين ، ولكن إلهاً يريد أن تنتظر ونطلب لكى يشعر الإنسان بالهبة والواهب) .

الأمر ليس مقصوراً على الدعاء ، بل على الرغبة والتوجه ، فمن مشى إلى الله ذراعاً مشى إليه باعاً ، لا بد أن تكون البداية من الإنسان ، يشاء ويسعى ، طالباً من الله العون على تحقيق ما فيه خيره وخير الآخرين .

(إن الشهوة هى عشق مكبوح الجماع ، إذا لم يرشده العقل تتجاوز حدود البصيرة) .

لهذا وجب ، أن يعرف المرء نفسه ، يعرف دوافعها ، ويعرف كوابحها ، لأن (الإنسان لما لم يكن يعرف نفسه أحب ما يجب عليه بغضه ، صدقونى ، متى أحب الإنسان شيئاً - لامن حيث إن الله أعطاه هذا الشيء - فهو زان ، لأنه جعل النفس متحدة بالخلق ، وهى التى يجب أن تبقى متحدة بالله خالقها) - ص ١٧٥ .

(١) الرعد : ١١

نزوع إلى التصوف ، إلى العشق المكبوح ، إلى الاتحاد بالخالق ، إلى محاسبة النفس ، ومراقبة السلوك ، لهذا أعطى الله الإنسان حريته ، لا ليطنى ، بل ليحسن العمل ، ليزداد قرباً من الله ، (ليعلم أن ليس لله حاجة إليه ، كما يفعل الملك الذى يعطى حرية لعبده ، ليظهر ثروته ، وليكون عبده أشد حباً له) .

(تركه حراً بجوده ، على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير ، وإن الله - مع قدرته على منع الخطيئة - لم يرد أن يضاد جوده ، إذ ليس عند الله تضاد ، فلما عملت قدرته على كل شيء وجوده عملهما فى الإنسان لم يقاوم الخطيئة فى الإنسان ، لكى تعمل رحمة الله وبره) - ص ٢٤٠ / ٢٣٩ .

إن من رحمة الله وبره أن ترك للإنسان حق الاختيار ، وهياً له القدرة على الصواب والخطأ ، وفتح أمامه باب التوبة ، وأحب الله التوابين المتطهرين ، لأنهم اكتسبوا بتجربة الخطأ عرفانهم بعفو الله ، وبواسع جوده .
(قولوا لى : من هو أشد حباً للطبيب : الذين لم يمرضوا مطلقاً ، أم الذين شقاهم الطبيب من أمراض خطيرة ؟) .

(إن الخاطئ التائب يحب إلهاً أكثر من البار ، لأنه يعرف رحمة الله العظيمة له ، لأنه ليس للبار معرفة برحمته الله ، لذلك يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً) - ص ٢٩٤ .

ب - ميثاقاً فيزيقاً :

ويمضى به هذا النزوع الفلسفى إلى تناول القضايا الغيبية التى أهتمت الفلاسفة الإسلاميين ، لكن تناوله كان أقرب إلى المسّ الرقيق ، بعيداً من التفصيل والتفريع والتعميق .

١ - يعرض لتنزيه الله عن الجوارح التى تشبهه بالبشر ، فإذا هو يجرى حواراً بين متى ويسوع ، يرد فيه السيد المسيح قول متى : (إذا كان لله يدان

فله إذن شبه بالبشر) - بأنه (لا يجب على الإنسان أن يلاحظ ظاهر الكلام بل معناه ، إذ الكلام البشرى بمثابة ترجمان بيننا وبين الله ، ألا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء صرخ آباؤنا : « كلمنا أنت يا موسى ولا يكلمنا الله ، لئلا نموت » ؟ وماذا قال الله على لسان أشعياء النبى ؟ أليس كما بعدت السماء عن الأرض هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس وأفكار الله عن أفكار الناس ؟) - ص ١٥٨ .

لم يقف السيد المسيح عند حدود اليد التى أولها المعتزلة بالقوة وبالنعمة ، ووقف منها أهل السنة موقف التسليم ، دون كيف ، بل اكتفى بالحكم العام : (شتان بين طرق الله وطرق الناس ، وأفكار الله وأفكار الناس) ، لأنه (ليس كمثله شيء) .

٢ - ويلمس ثوب أرسطو وابن سينا وابن رشد ، فيقول : (النفس والحواس مرتبطان معاً ارتباطاً محكماً ، وحتى أن أكثر الناس يشتون أن النفس والحواس إنما هما شيء واحد ، فارقين بينهما بالعمل ، لا بالجواهر ، ويسمونهما بالنفس الحاسة والنباتية والعقلية ، ولكن الحق أقول لكم ، إن النفس هى شيء حى مفكر) - ص ١٦١ .

٣ - وكما قال الصوفية إن سبب خلق الكون إنما هو (معرفة) الله ، أو عبادته ، كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) - نجد السيد المسيح يقول : (إن إلهاً لأجل أن يظهر لخلائقه جوده وبرحمته وقدرته على كل شيء ، مع كرمه وعدله - صنع مركباً من أربعة أشياء متضاربة ، ووحدها فى شبح واحد نهائى ، هو الإنسان ، وهى التراب والهواء والماء والنار ، ليعدل كل منها ضده ، وصنع من هذه الأشياء الأربعة إناء ، وهو جسد الإنسان ، من لحم وعظم ودم ونخاع وجلد ، مع أعصاب وأوردة ، وسائر أجزائه الباطنية ، ووضع الله فيه النفس والحواس ،

بمثابة يدين لهذه الحياة ، وجعل مثنوى الحس فى كل جزء من الجسد ، لأنه انتشر هناك كالزيت ، وجعل مثنوى النفس القلب ، حيث تتحد مع الحس ، فتسلط على الحياة كلها) - ص ١٨٦ .

٤ - ثم يتناول المصير الإنسانى ، بادئا بأشراط الساعة - ص ٨٣ -
فيأتى بتفصيل خيالى عجيب ، يتحدث فيه حديث الراقى ، كأنما رآها رأى العين ، ولما كان المتحدث يسوع فليس إلا التسليم ، وهى جملة وتفصيلاً تختلف عن الأشراط الموجودة فى التراث الإسلامى ، وهو يجرى أشراطه فى خمسة عشر يوماً متتابعة ، فى صورة أحداث تأخذ خطأ مأساوياً متصاعداً .. وبعد أربعين سنة من هذه الأحداث التى تحول الأرض إلى سهل ، بعد أن (تتطاير الجبال فى الهواء كالطيور ، وتطوى السماء كطىّ الدرج) ، تكون القيامة - ص ٨٤ - بدءاً برسول الله محمد ﷺ الذى سيطلع (كالشمس ، بيدائه متألق كآلف شمس) ، وختاماً بالشيطان (الذى سيصير كل مخلوق عند النظر إليه كميت ، خوفاً من هيئة منظره المريع) .

ويكون الحساب ، (ويفتح الله الكتاب الذى فى يد رسوله) محمد ﷺ (فيقرأ رسوله فيه ، وينادى كل الملائكة والأنبياء وكل المختارين) ص ٨٨ .

ولاشك فى أن الجحيم ستكون للخطاة ، وهم سبعة : (المتكبر والحسود والطماع والزانى والكسلان والنهم والغاضب المستشيط) - ص ٢٠٦ - ٢٠٨ - بنفس ترتيب دركات الجحيم ، ويدخل الكافر فى درك الغاضب المستشيط ، وعلى هذا فللخطايا السبع هذه سبعة أبواب - ص ٢٠٥ - وفاته أن هناك خطايا أخرى ذات معالم محددة كالقتل والخيانة والفتنة والسرقة وشرب الخمر والكذب والغش والنميمة والرشوة ، بالإضافة إلى ارتكاب ما حرمه بولس من (ماذبح على النصب ، والدم ، والخنوق) ، وكثيرة هى الصفات العدوانية الشاذة ، كما أنه لا بد أن يوضع غير المختون المحروم من الفردوس فى الاعتبار .

وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالذين (قد زنوا بالبغايا ، فستحول كل أعمال هذه النجاسة فيهم إلى غشيان جنيات الجحيم اللواتى هن شياطين بصور نساء ، شعورهن من أفاع ، وأعينهن كبريت ملتهب ، وفمهن سام ، ولسانهن علقم ، وجسدهن محاط بشصوص مريشة بستان ، شبيهة بالتي تصاد بها الأسماك الحمقاء ، ومخالبهن كمخالب العقبان ، وأظفارهن أمواس ، وطبيعة أعضائهن التناسلية نار ، فمع هؤلاء يتمتع الشهوانيون على جمر الجحيم الذى سيكون سريراً لهم) - ص ٢٠٧ .

نلاحظ أن عذاب الدركة الأولى أهون بكثير من عذاب الدركة الرابعة الخاصة بالزناة ، مما يفيد تأثير الكاتب الذى (كان يهودياً) بما جاء به العهد القديم .

ولما كان (يتحتم على كل أحد - أيًا كان - أن يذهب إلى الجحيم) ، حتى (الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون ليشاهدوا حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله - يرفع العقاب عن كل ذى جسد بشرى من المقضى عليهم بالعقاب ، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم ، ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين .. ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله ، ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين ، وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد ، قائلاً بعضهم لبعض : (اهربوا ، اهربوا ، فإن عدونا محمداً قد أتى) - ٢٠٩ / ٢١٠ .

ثم يتناول فى تفصيل وصف (الجنة الواسعة جداً) ، ويوجب على سؤال هام :

يقول بطرس : (يا معلم ، لا بد أن تكون الجنة أكبر من الله ، لأن الله يرى داخلها) .

فيجب يسوع بحديث (قدسى) عن الله : (كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض ، وكما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل ،

هكذا أنا أكبر من الجنة ، بل أكثر من ذلك عدد حبوب رمل البحر ، وقطرات الماء فى البحر ، وعشب الأرض ، وأوراق الأشجار ، وجلود الحيوانات ، بل أكثر من ذلك كثيراً ، عدد حبوب الرمل تملأ السموات والجنة ، بل أكثر .

وكيف يرى الله ، وهو يملأ الكون كله ؟

قال يسوع : (إن نفسك التى هى أعظم من الأرض برمتها ترى بعين واحدة الشمس التى هى أكبر من الأرض بالكوف من المزار .. هكذا ترى الله خالقك بواسطة الجنة) - ص ٢٦٧ .

ج - تقسيم :

١ - قد اهتم الكتاب اهتماماً خاصاً بتأكيد ما جاء فى القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام ، إذ يقول : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (١) .

فجعل يعلن هذه البشرى ما وسعه ذلك ، مستعيناً بالتراث الشعبى الإسلامى ، ومضيفاً إليه من اجتهاداته ، فهو يقيم الدليل على أن الرسول محمداً - ﷺ - بشر الله به منذ أول الخلق ، بقوله : (فلما انتصب آدم على قدميه ، رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس ، نصها : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ، وكان لا بد أن يسأل آدم عن هذه اللافتة ، أو هذا الشعار ، فأجاب الله سبحانه : (هذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنتين عديدة ، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء ، الذى متى جاء سيعطى نوراً للعالم ، الذى كانت نفسه موضوعة فى بهاء سماوى ستين ألف سنة ، قبل أن أخلق شيئاً) - ص ٥٨ / ٥٩ .

ثم يمضى مع الكتاب المقدس فإذا كل حديث عن (المسيا) -

(١) المصنف / ٦ .

المسيح المنتظر - إنما هو حديث عن رسول الله محمد ، ويعلن على لسان السيد المسيح : (ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم ، صدقونى ، إنى رأيته وقدمت له الاحترام ، كما رآه كل نبي ؛ لأن الله يعطيهم روحه نبوة ، ولما رأيته امتلأت عزاء ، قائلاً : يا محمد ، ليكن الله معك ، وليجعلنى أهلاً أن أحل سير حذائك ، لأنى إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقديساً الله) - ص ٦٩ .

٢ - ولأنه ينسب إلى بولس أنه تحول بالمسيحية اليهودية إلى مسار جديد ، من وثنية الثالوث ، ومن التحلل من التشريع اليهودى ، وبخاصة النجاسات والختان الذى جعله كتاب التوراة (علامة) شعب الله المختار نجد برنابا يحتفل لهذا الأمر ، فيعلن على لسان عيسى - فى أكثر من موضع - أنه يرى من هذا الكفران المبين : (أيها الرب الإله القدير الغيور .. العن إلى الأبد كل ما يفسد إنجيلي الذى أعطيتنى ، عندما يكتبون أنى ابنك ، لأنى أنا الطين والتراب خدام خدمك ، ولم أحسب نفسى قط خادماً صالحاً لك) - ص ٣٠٥ .

ولا يكتفى (الكاتب) بهذا ، بل يبين أن (غيرة) الله سبحانه تستدعى أن يحاسب عيسى - وهو البرىء من دعوى البثوة أو الألوهية - لأنه أنيطت هذه الدعوى به ، و (الله يعاقب على كل خطيئة ، مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً ، لأن الله يغضب من الخطيئة .. فلما كان الناس قد دعونى الله ، وابن الله ، على أنى كنت بريئاً فى العالم ، أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا ، معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب ، لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة) - ص ٣١٨ .

٣ - ويعلن فى حدة (تجريم) التخلي عن (الختان) ، فيقول على لسان يسوع : (الحق أقول لكم ، إن الكلب أفضل من رجل غير مختون) - ص ٢٩ .

كتب المؤلف

كتب مطبوعة :

- ١ - المنهج البياني فى التفسير الحديث للقرآن الكريم - الأنجلو المصرية
 - ٢ - التراث .. واجبنا نحوه - الأنجلو المصرية
 - ٣ - أمين الخولى فى مناهج تجديده - المجلس الأعلى للفنون والآداب
 - ٤ - أمين الخولى .. حياته وأعماله - الهيئة العامة للكتاب
 - ٥ - سبحانه الله - دار المعارف
 - ٦ - الذين يلحدون فى آيات الله - دار المعارف
 - ٧ - قراءة فى ديوان ابن الرومى - دار المعارف
 - ٨ - اليهود تاريخاً وعقيدة - دار الهلال ١٩٨١ - دار الاعتصام ١٩٨٨
 - ٩ - فى مرقص الظلال (شعر) - توزيع دار المعارف
 - ١٠ - حتى تعود الابتسامة (شعر) - توزيع دار المعارف
 - ١١ - الأرض لا تبت أغصاناً جافة (شعر) - توزيع دار المعارف
 - ١٢ - دراسة فى التوراة والإنجيل - توزيع دار المعارف
 - ١٣ - قبل أن تفيض الكأس (رواية) - توزيع دار المعارف
 - ١٤ - حتى مطلع الفجر (رواية) - توزيع دار المعارف
 - ١٥ - عبر الأسلاك الشائكة (رواية) - توزيع دار المعارف
 - ١٦ - الإدانة .. شاهد من أهلها (رواية) - توزيع دار المعارف
- كتب معدة للطبع :
- ١ - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا (دراسة مطولة فى مجلدين)

ثم بين سبب الختان وتاريخه ، قائلاً : (إنه لما أكل آدم ، الإنسان الأول ، الطعام الذى نهاه الله عنه فى الفردوس ، مخدوعاً من الشيطان ، عصى جسده الروح ، فأقسم قائلاً : تالله لأقطعنك ، فكسر شظية من صخر ، وأمسك جسده - إخليله - ليقطعه بحد الشظية ، فربخه الملاك جبريل على ذلك ، فأجاب : لقد أقسمت بالله أن أقطعه ، فلا أكون حائثاً ، حينئذ أراه الملاك زائدة جسده فقطعها ، فكما أن جسد كل إنسان من جسد آدم وجب عليه أن يراعى كل عهد أقسم آدم ليقوم به ، وحافظ آدم على فعل ذلك فى أولاده ، فتسلسلت سنة الختان من جيل إلى جيل .. وأثبت هذا العهد قائلاً : « النفس التى لا تختن جسدها إياها أبدد من شعبي إلى الأبد » .

ثم قال يسوع : (دعوا الخوف للذى لم يقطع غرلته ، لأنه محروم من الفردوس) - ص ٣٠ / ٣١ .

هذه - بإيجاز - أبرز ملامح إنجيل برنابا ، مع غلبة استخدام الأسلوب المنطقي الذى هو أقرب إلى الفلسفة اليونانية منه إلى الأناجيل الثلاثة (متى ومرقس ولوقا) .

٨ أكتوبر ١٩٨٩ .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
١ - أنبياء العهد القديم .. ورب إسرائيل	٩
٢ - شعب صلب الرقبة	٣٤
٣ - صهيونية	٤٦
٤ - إله من ذهب	٦٠
٥ - تشريعات سماوية ، ولكن	٨٩
٦ - أسطورة ، بل لا معقول	١٢١
٧ - قيم أدبية جديدة فى العهد القديم	١٤١
٨ - كتاب مقدس عبارته تنفى قداسه	١٧٥
٩ - الآب والابن والروح القدس	٢٠٧
١٠ - وعبرة العهد الجديد فيها نظر	٢٣٩
١١ - إنجيل برنابا ... لماذا ؟	٢٧٠

٢ - محاكمة النص القرآنى - دار الفضيلة

٣ - هوامش تراثية - دار الاعتصام

٤ - من تجارب الشعر والشعراء (ج ١ فى الجاهلية وفى الإسلام - ج ٢

فى العصر العباسى) - الزهراء للإعلام

٥ - هذا أبو الطيب .. شاعر المعاناة والتمرد - الزهراء للإعلام

٦ - فى صحبة أبو العلاء - دار الأمين

٧ - حالة مخاض (رواية)

٨ - الأرض والجردان (رواية)

٩ - حين ينزعون اللحاء (رواية)

١٠ - لله .. لا لقيصر - دراسة فى الإمامة

١١ - الساعة الخامسة والعشرون - دراسة فى أشراف الساعة

١٢ - آيات بينات من الهدى والفرقان - دار المعارف
